

مَصْرُ وَالشَّاهِدُ فِي عَصْرِ الْأَيُوبَيْنَ وَالْمَمَالِيكَ

تأليف
دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
جامعة القاهرة وبيرول العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والتنشر
بـ ٧٤٩ بـ صـ بيروت

مَصْرُ وَالشَّاهِدُونَ

في عَصْرِ الْأَيُوبِيِّينَ وَالْمَمْلَكَيْكَ

مَصْرُ وَالشَّاهِرُ فِي عَصْرِ الْأَيُوبِيِّينَ وَالْمَمَالِيِّكَ

تأليف
دكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبـلـيـروـتـ العـرـبـيةـ

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بـلـيـروـتـ مـ.ـبـ ٧٤٩

بِاللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

الدولة الأيوية

الفصل الأول

مولد الدولة

إذا كنا قد أفضينا بعض الشيء في الكلام عن عظمة الدولة الفاطمية و مدى ما أصابته مصر من تقدم حضاري على أيام الفاطميين ، فإن هناك حقيقة يجب لا تغيب عن أبصارنا ، هي أن منطقة الشرق الأدنى شهدت أو آخر العصر الفاطمي تحولا خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي ، وكيف أنها عجزت عن فهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب ، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه .

ومعنى هذا أنه صار عليها أن تتخلى ، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحمل ملها ، و تستطيع أن تنهض بأمانة الجihad .

وزاد الموقف سوءاً بالنسبة للمسلمين في الشرق الأدنى في أوآخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلاد) تفكك دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٣م) ، وهي الدولة التي سبق أن نفخت في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى روحًا جديدة مكنت المسلمين من الصمود في وجه الروم ، بل مهاجتهم في عقر دارهم . وكان أكبر مظاهر لانحدار سلطان السلاجقة - وخاصة في بلاد الشام والعراق - ظهور عدد

كثير من البيوت الحاكمة ، لا تجمعها رابطة إلا الانتساب إلى البيت السلجوقي الكبير ، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم أتابكيات ، وعلى أصحابها اسم أتابكة ، وبعض هذه الوحدات صغيرة جداً لا تتعدي حدودها أسوار مدينة أو قلعة واحدة^(١) .

ومن أبرز تلك الأتابكيات أتابكية دمشق – ومؤسسها ظهير الدين طغتكين – وقد استمرت من سنة ٤٩٨ حتى ٥٥٤٩ (١١٥٤ – ١١٠٤)^(٢) أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكي ، وقد استمرت من سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ – ١١٢٧ م) .

ولى زنكي هذا ترجع البذور الأولى للجنة الإسلامية المتحدة في الشرق الأدنى ، لأنّه كان يحمل تقليداً من سلطان السلاجقة بحكم حلب فضلاً عن الموصل ، ومعنى ذلك أن نفوذه امتد من شمال العراق إلى شمال الشام . وكان زنكي يتطلع إلى إتمام الجنة الإسلامية عن طريق ضم الإمارات الإسلامية المجاورة – وبخاصة أتابكية دمشق – لو لا قتله المفاجئ سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) بعد سنتين من استيلائه على الورا من الصليبيين^(٣) .

ولسكن نور الدين محمود – ابن عماد الدين زنكي – حل الأمانة ، واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لفتح الجنة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل^(٤) .

ولم تثبت أن غدت مصر – كما سرى بالتفصيل بعد أسطور قليلة –

(١) لatabek ا نقط تركي معناه « مربي الملك » ، فكان آل سلجوقي إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تكريمه أصنفووا عليه هذا اللقب أحاذنا في تكريمه .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشر : الحركة الصليبية ، ج ١ ص ١١٦ .

(٣) ابن القلانيسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهري ، ص ١٠٧ ، السكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

ميداناً لصراع طويل بين قوات نور الدين محمود وقوات الصليبيين ، في الوقت الذي كانت الخلافة الفاطمية نفسها لا تقوى على مجرد الحركة . وهذا يتطلب منها إلقاء نظرة سريعة على موقف الصليبيين — الذين استقروا في بلاد الشام — من مصر وأرض النيل .

مصر والخروب الصليبية:

ترتب على الحركة الصليبية التي بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) نتائج بعيدة المدى في تاريخ الشرق والغرب جيئاً، ويهمنا من هذه النتائج في دراستنا هذه ما يرتبط بالجانب السياسي . ذلك أن الأوضاع السياسية في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى تعرضت للتغيرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين إلى الشام ؛ وهذه التغيرات والتطورات إنما جاءت إلى حد كبير وليدة الخطط الصليبي . فالصليبيون أنفسهم قضوا على كثير من الآتابكيات والإمارات الصغرى التي كانت قائمة في بلاد الشام عند وصولهم إلى تلك البلاد .

على أن انتصار الصليبيين على المسلمين في الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم في تأسيس إمارات في الرها وأنطاكيه وطرابلس ، فضلاً عن مملكة بيت المقدس ، كان له أثره السييء ورد فعله العنيف في العالم الإسلامي ، الأمر الذي استثار بعض الزعماء المخلصين في المشرق الإسلامي ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين . ولم تثبت أن أدت حركة الجهاد في القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) إلى بروز عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ في الشرق الأدنى . وسرعان ما اتضحت أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا في ظل جهة إسلامية متحدة، توحد بين القوى الإسلامية المعاشرة بين النيل والفرات ، وتحجعل من هذه القوى بنيناً مرصوصاً يستطيع الصمود في وجه الخطط الصليبي . وكانت هذه الفكرة — فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة — هي الحركـ الأول الذي جعل

نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وأصبح يسيطر على المدين الكبرى في الشام مثل حلب ودمشق^(١). وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود في شئون مصر، لنوصلح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية. ولكن الذى نحب أن نؤكده الآن هو أن التطورات السياسية التي انتهت بقيام الدولة الأيوبية، إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية.

والواقع إن الصليبيين لم يقولوا طمعاً في ملك مصر عن نور الدين؛ بل إن الصليبيين سعوا لإمتلاك مصر منذ الوقت الذي استقرت لهم الأمور في في بيت المقدس. من ذلك إن جودفري دي بوأيون – أول حكام دولة الصليبيين في بيت المقدس – وضع مشروعآ للاستيلاء على مصر ولكنه توفي سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) قبل أن يبدأ في تنفيذ مشروعه. وعندما أخلفه أخيه بالدوين الأول، خرج هذا الملك الجديد سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) للقيام بحملة استطلاعية، فوصل إلى أبيه على شاطئ البحر الأحمر، ثم اتجه إلى دير القديسة كاترينا في شبه جزيرة سينا، فرفض رهبان الدير أن يستضيفوه في ديرهم خوفاً من السلطات الفاطمية في القاهرة، وعندئذ عاد واتجه نحو الفرما واستولى عليها ونهبها، ثم تقدم إلى تيس على شاطئ بحيرة المنزلة حيث مرض وتوفي بالعرיש وهو في طريق عودته سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م)^(٢).

ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الاستيلاء على مصر، حتى كان منتصف القرن السادس الهجري (الثانية عشر للميلاد) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لا تستدير حلقتها وتسكتمل

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢ ص ٦٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج ١ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذي جعل من مصر ميدانًا رئيسيًا في الصراع بين نور الدين محمود والصلبيين.

وفي أوائل سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) توج عموري الأول ملكاً على عرش بيت المقدس الصليبي، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر. ذلك أن عموري الأول اتصف بالشجاعة والجرأة والدهاء، وهي صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء^(١). وقد أدرك عموري أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحمص ودمشق قد حالت دون توسيع الصليبيين في شمال الشام، وأن الطريق الطبيعي الذي يُتيح لهم إتمام الصليبيين هو طريق مصر.

وكانت الدولة الفاطمية في ذلك الوقت تقاسى آلام الموت البطيء، بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيمنتها واحتلت أحوال مصر الداخلية. ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عنئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلاً عن تحكم الوزراء العظام في شئون الدولة والخلافة جميعاً. وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولاً سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، فاستبد بالأمور في مصر الوزير طلائع بن رزيك –الأرمني الأصل. وكان الخليفة الفائز بن الظافر – طفلاً صغيراً لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها. وعندما توفي الفائز وهو في الحادية عشر من عمره سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) أقام طلائع في الخلافة الخليفة العاضد الذي كان هو الآخر صغيراً في السن، مما مكن الوزير من الامتناع بالخلافة واستعراض المرشحين لها واستعراض الغنم، على حد قوله^(٢). ولم يلبث أن أحسن الخليفة العاضد بشغل ذلك

(١) ابن الأثير : السكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٤ هـ .
Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 438-442.

(٢) ابن الأثير : السكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

الكافوس ، فدب مؤامرة مع الامراء لقتل بن رزيك ونجحت المؤامرة سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م) ، تخلف ابن رزيك في منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد وتولى الوزارة بدله سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) . ثم كان أن استبد شاور وساقت سيرته ، نفرج عليه ضرغام واستند التناقض بين الرجلين ، في الوقت الذي أخذ عموري الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر .

وقد قام عموري بغزو مصر سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م) فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، في الوقت الذي كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود بالشام « واطمعه في الديار المصرية »^(١) . وكانت غزوة عموري لمصر قد أفرزت نور الدين لأنها كشفت عن نيات الصليبيين في امتلاك وادي النيل ، ولذلك رأى نور الدين أن يسرع بإرسال جبوشه إلى مصر خاتماً من السقوط في أيدي الصليبيين .

وقد أرسل نور الدين حملة الأزلى إلى مصر سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين — ابن أخي شيركوه — وكان في السابعة والعشرين من عمره . وهنا استبعد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعموري الأول — مقابل مساعدته — أن يقدم معاهدة تصبح مصر بمقتضاه تابعة للصليبيين^(٢) . ولكن مهارة شيركوه وسرعته في قطع الصحراء رغم تقدم سنّه جعلته يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا ، فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح في الوصول إلى القاهرة في بداية ما يو سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام جميع الأعواض والناس والجيش والخليفة ، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة^(٣) .

(١) أبو المحسن : التجorum الازاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨٣ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين سنة ٥٥٩هـ .

على أن شاور لم يرع العمود التي قطعها على نفسه لنور الدين ، فلم يكدر يتولى الوزارة حتى تذكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه الخروج من مصر . وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يحاكي سلفه ضر غام ، فاستنجد بالصلبيين ووعد عموري الأول بإعطائه مبلغاً كبيراً من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما حضر عموري الأول على رأس جيش صليبي كبير إلى الدلتا ، وعندئذ أخذ شيركوه يقوى مركزه في بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كمانة بالشرقية . وعندما أخذت جيوش عموري وشاور تحاصر شيركوه في بلبيس ، ثم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعموري مصر ، وتم ذلك فعلاً في أواخر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) . وربما كان عموري الأول أكثر تلهفاً على العودة إلى الشام بعد أن اتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدد هجماته على الصليبيين .

عودة شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) :

ولتكن إذا كانت جيوش نور الدين والصلبيين قد أنسحبوا من مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) إلا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها مع ضعفها الشديد . وتتفق المراجع العربية في أن شيركوه لم يغادر مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) إلا مكرها وأنه ما فتاه يذكر مصر عقب عودته إلى بلاد الشام ويرجو أن يعود إليها مرة ثانية^(١) . ولتكن نور الدين محمود كان حريصاً دائماً على عدم تشتيت قواته ، في الوقت الذي دُثرت الاشتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام .

ولا يخفى علينا أن هناك سبب قوي ربما حرك عنده نور الدين الرغبة في غزو مصر ، وأعني بذلك العامل المذهب . ذلك أن الخلاة الفاطمية في

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، أبو الحسان : النجوم ج ٥ من ٣٤٨

مصر كانت مصدراً من مصادر الفرق في العالم الإسلامي، لأنها جعلت ولا المسلمين في الشرق الأدنى تقاسمه خلافتان ومذهبان، إحداهما الخلافة العباسية السنوية في بغداد والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة. لذلك كان من الطبيعي أن يتوجه نور الدين – وهو الحاكم السنفي الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات – إلى التفكير في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكّو من استبداد شاور وظلمه. ولم يكن نور الدين في حاجة إلى مزيد من التحريض ضد شاور، فإذا كان في قلبه منه «حزارة لسكونه غدر بأسد الدين شيركوه»، واستنجد عليه بالفرنج^(١) لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م)، وكان بصمة شيركوه في تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين. ويبدو أن شيركوه عمل حسناً با لاستنجاد شاور بالصليبيين، فلم يشا أن يغامر بقواته في القيام بهجوم على القاهرة، واختار أن يعبر النيل إلى الجيزة حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، وعندئذ أخذ الخليفة الفاطمي يدرك أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور والصليبيين. وقد صفع ما توقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعموري الأول ملك بيت المقدس الذي أسرع في نهاية سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيشه للمرة الثالثة. وعندما علم شاور بوصول حلفائه خف لاستقبالهم عند بلبيس واتجه معهم حيث عسكر وأعلى الضفة الشرقية للنيل، في حين كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية. وفي هذه المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجراً

(١) أبو الحasan : التجويم ٥ ص ٣٤٨ .

قبل أن يساعدوه في محاربة شيركوه ، فعمد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً^(١) . ومن الواضح أن هذه الإنفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولذلك رحب بها الصليبيون ، وحرص عموري الأول على إعطائهم صفة رسمية . فأرسل سفارته إلى الخليفة الفاطمي زارته في قصره حيث تم اعتماد الاتفاق .

ولم تثبت أن أخذت قوات عموري وشاور تستعد لعبور النيل لها جمة شيركوه ، بل أنهم عدوا فعلاً إلى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عموري الأول وشاور . وكان أن دارت معركة بين الطرفين قرب الأثنين في المنيا ، وهي معركة البالىن ٥٦٢ هـ (مارس ١١٦٧ م) التي اشتراك فيها صلاح الدين ، والتي انتهت بانتصار شيركوه وإزداد عموري حيث عسکر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط^(٢) . وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه في احتلال القاهرة لو اقتفي أثر عموري في الحال ، ولكنه تباطأ وآثر أن يسير على الضفة الغربية للنيل ليحتل الإسكندرية التي « تلقاء أهلها طاععين » ورحبوا بهم بغير عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين^(٣) .

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الإسكندرية ، فترك صلاح الدين في الإسكندرية تراقبه قوة صغيرة ، في حين أتجه شيركوه نفسه إلى الصعيد وسيطر عليه . وقد حدث ما توقعه شيركوه إذ خرج عموري لخسار صلاح الدين بالإسكندرية ، فساحت حالة المدينة

Schlumberger: Campagnes du Roi Amoury I, p. 116. (١)

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية Rec. Hist. Cr. II, pp. 231-239.

(٣) أبو الحشيش : الروضتين من ١٤٥ ، أبو الحسان : النجوم ج ٥ من ٣٤٩ .

وقل الطعام به حتى تخرج موقف صلاح الدين الذي لم يكن معه أكثر من ألف جندي . وقد أرسل صلاح الدين إلى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه ، ويطلب منه النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالاً في أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) . ويدو أن شيركوه أدرك في تلك المرحلة حرج موقفه ، فأرسل إلى الصليبيين يطلب الصلح ، وتم الاتفاق - مثل المرة السابقة - على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الطرفان مصر لينعم بها شاور من جديد .

وليس هناك من شك في أن الذي شجع عموري على قبول طلب الصلح هو إحساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام في ذلك الوقت ، تحت ضغط هجمات نور الدين محمود . ولكن إذا كان عموري قد غادر مصر فعلاً ، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن حقق نوعاً من السيادة الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية جميعاً . وأهم مظاهر هذه السيادة هي تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار ، وبقاء قوة صليبية تحمى أبواب القاهرة ، فضلاً عن تعين شحنة (مندوب) للملك الصليبي في القاهرة يكون له رأى مسموع في شؤون الحكم^(١) .

استيلاء نور الدين على مصر :

على أنه إذا كان عموري الأول قد خرج من مصر مضطراً سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها ، لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر في مبارات السابقة أدى إلى أن « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » ، على قول المؤرخ أبي المحاسن^(٢) . وقد أدرك عموري الأول أنه في حاجة إلى مساعدة قوة خارجية تمسكه من الاستيلاء على مصر ، فتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية ، وتم الاتفاق على أن تقوم

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابيكية (Rec. Hist. Cr. II, pp. 240-246)

(٢) أبو المحاسن : التجorum الزاهري ج ٥ ص ٣٥٠ .

القوات الصليبية البيزنطية بغزو مصر . ويدو أن الامبراطور البيزنطي كان مشغولا في البلقان عندئذ ، فطلب إمامه بعض الوقت لتنفيذ اتفاقيته مع عموري ضد مصر ، ولكن عموري لم يشأ الانتظار وانفرد بالهجوم على أرض النيل . أما السبب الذي جعل عموري يسرع بالهجوم ، فكان تذكر شاور لالتزاماته للصلبيين وعدم وفائه بتعهداته ، بل إن شاور اضطر تحت ضغط الرأي العام الإسلامي إلى أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية ^(١) . وعندما غزا عموري مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) لمس انقلاباً كبيراً في موقف السلطات الحاكمة ، إذ قاومته بليبيس وأضطر إلى استخدام العنف للإستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعاً صوب القاهرة . وكان أن لمس شاور حرج موقفه واستيهان الناس من سياساته فأحرق القسطاط في نوفمبر سنة ٥٦٤ هـ (١٦٨ م) وبدأ بعد العدة المدفوع عن القاهرة .

ولم يلبث أن أدرك عموري صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة ، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار ، واتجه الصليبيون إلى جهة سرفاقوس حيث سمعوا باقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وكان خطة عموري تتجه إلى مبايعة جيوش شيركوه عند فاقوس وهي متبعة ، قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الانحاد مع القوات المصرية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عموري أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة حيث رحب به الأهالي والتلقوه حوله لما لهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عموري في تلك المرة حليةً يعتمد عليه في مصر ، إذ اتحد المسلمون جميعاً ضدّه ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فوراً عائداً إلى فلسطين في يناير سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٩ م) ومعه رجاله « خاليين بما أملوه » ^(٢) .

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين .

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ ، تاريخ الدولة الأيتابية 250 p.

أما شيركوه فقد « فقد فرح به أهل مصر » واستقبلوه استقبال البطل الخالص عند وصوله إلى القاهرة. وسرعان ما استدعاه الخليفة العاشر الفاطمي وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور، وأخذ أرباب الدولة يتزدرون عليه لقضاء حوانهم . وكان من الطبيعي أن يحس شاور بخطر شيركوه ، لا سيما بعد أن رأى تأييد الخليفة العاشر له . لذلك أرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق دمياط^(١) . بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه وقتلهم جميعاً أثناء ولية يولها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل له الخبر يطلب منه الوفاء بوعده ، أخذ يماطل لكسب الوقت ، انتظاراً لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيراً اجتمع أعيان مصر وقالوا لشيركوه إن « شاور سبب فساد البلاد والعباد » وطالبوه بقتله وإنقاذ المسلمين من شره^(٢) .

وهيئاً انهى الأمر بقتل شاور وولده السكامل في يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وشارك الخليفة الفاطمي نفسه في التخلص منه . أما شيركوه فقد دخل على رأس قواته – وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين – القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباح للناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن توفي بعد شهرين (مارس ١١٦٩ م) خلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين^(٣) .

(١) أبو المعاصن : النجوم الراherة ج ٥ ص ٣٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٠ – ٧٠١ .

(٣) ابن الأثير : السكامل سنة ٥٦٤ هـ

ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من أكابر الأمراء النوريه الذين تسلعوا جميعاً إلى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، ولكن المراجع المعاصرة توّكّد أن الخليفة العاضد الفاطمي أصر على اختيار صلاح الدين للوزارة ، ولما تمنع «ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة ، وربما ظن العاضد الفاطمي أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداته سهلة في يد الخليفة ، يستعين به في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر ، وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعاً^(١) .

ولكن صلاح الدين لم يكُن يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمي ، فشرع في استئلاة الناس إليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها «فمال الناس إليه وأحبوه ، وضعف أمر العاضد ، ثم أن صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه وسيطر سلطنة تامة على الجندي ، في الوقت الذي أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدولة توران شاه آخر صلاح الدين . وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجندي السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمي^(٢) .

وكان البلاط الفاطمي في ذلك الوقت مركزاً لـكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحتمل رجاله عن الاستعانته بالأعداء في سبيل تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد — وكان خصياً نوبياً اسمه مؤمن الخليفة — استأثر من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبّر مؤمنة لخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعموري الأول والصلبيين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٦ - ٧٠٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج السكري و ج ١ ص ١٧٤ (مطبوع) .

للحصول على معاونتهم . ولتكن رسالة مؤمن من الخليفة إلى عموري وقعت في صلاح الدين ، الذي رأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضي على أبيه محاولة للعودة إلى سياسة ضراغم وشاور ، فقتل مؤمن الخليفة فوراً في ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) ^(١) .

ثم جاء صلاح الدين إلى أبعد جميع الخدم (الخصيان) السودان عن قصر الخليفة الفاطمية ، الأمر الذي أثارهم ، فقاموا بثورة كبيرة في القسطاط بعد أن تجمعوا فيبلغ عددهم خمسين ألفاً . وقد اضطر صلاح الدين لإنجاد هذه الثورة إلى إشعال النار في محلتهم التي اعتصموها فيها ، فطلبوا الأمان في أو آخر أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية للنيل . ولتكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه في طائفته من العسكري ، فأبادهم بالسيف ^(٢) . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرم ، إذ أشعل النار في مسكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة ، وأدب القوى التي حاولت الوقوف في وجه آماله ومشاريعه . ولم يبق أمام صلاح الدين إلا كبار الإقطاعيين وملوك الأرض الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الأوضاع القائمة ، فخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضاً وأحل محلهم في إقطاعاتهم جماعة من رجاله من أهل الشام .

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة في ذلك الدور بوصفه نائباً عن نور الدين محمود ، لا باسم الخليفة الفاطمي بوصفه وزير له . وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه نتيجة للخطوات السريعة الناجحة التي دعم بها

(١) ابن الأثير: *التكامل* ، حوادث سنة ٥٦٤ هـ . أبو شامة: *كتاب الروضتين* ص ١٧٨ .

(٢) ابن واصل: *مفرج السكريوب* . ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ (طبع). .

سلطانه في مصر . والواقع إن صلاح الدين كان لا يستطيع بأى حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين في ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعاباً عديدة داخل مصر في الوقت الذي أخذ الصليبيون ينهضون على الحدود الشرقية للبلاد^(١) .

الصلبيون ومحاجمة مصر :

ومن الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود في السيطرة على مصر آثار فزع الصليبيين بالشام بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شتى الرحي . هذا إلى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحريّة في شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحريّة على الجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط .

وعندما فشل عموري الأول ملك بيت المقدس في الحصول على معونة سريعة من غرب أوروبا ، اتجه صوب الإمبراطورية البيزنطية طالباً عقد تحالف بين القوتين لغزو مصر واقتسامها^(٢) . وكان أن أعد الإمبراطور البيزنطي مانويل كوميني أسطولاً كبيراً غادر الدردنيل في يونيو سنة ١١٦٩م (٥٥٦٤) قاصداً قبرص ومنها إلى صور ثم عكا الاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق في هذه الخطة على غزو مصر براً وبحراً عن طريق دمياط ، فأفلج الأسطول البيزنطي صوب دمياط ، في حين زحف الصليبيون براً في أكتوبر سنة ١١٦٩م (٥٥٦٥) من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط « ومعهم المجنحقات والدبابات وآلات الحصار »^(٣) ؛ في حين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .

Guillaume de Tyr (R. Hist. Cr. II, p. 961).

(٢)

(٣) ابن واصل : مفرج السكريobi ج ١ ص ١٨٠ (مطبوع) .

وقف الأسطول الهيني عاجزاً عن دخول الميناء بسبب العاصفة ، وهي السلسل الحديدية الممتدة في الماء بعرض الميناء لمنع دخول سفن الأعداء . وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن في أول الأمر أنهم سيقتصون القاهرة عن طريق الشرقية ، كما فعل عموري في حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين إلى تحصين بلبيس والقاهرة فضلاً عن الإسكندرية وغيرها من المراكز الأمامية . فلما اتجهت الجملة إلى دمياط وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج ، لاسيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده في الداخل نتيجة للاستياء من سياساته تجاه خصيان القصر والجند السودان .

ومع ذلك ، فإن صلاح الدين ثبت للموقف وطلب النجدة العاجلة من نور الدين « فسيير نور الدين العساكر إليه أرسلا يتلو بعضها بعضاً »^(١) . وفي الوقت نفسه كان تقي الدين عمر – ابن أخي صلاح الدين – وخاله شهاب الدين ، قد استطاعا دخول دمياط ، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات إليها عن طريق النيل ، مما جعل حصار الصليبيين للمدينة غير قائم . هذا إلى أن أهل دمياط المحاصرين استخلوا جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني خارقة بها مواد مشتعلة ، أُنزلت أبلغ الضرب بالأسطول الهيني ، فاضطر إلى الابتعاد عن لسان النيل والمدينة^(٢) .

ولم يلبث أن نفذ توين الأسطول واشتد القلق بعموري نتيجة للأخبار التي بلغته عن ازدياد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك وفع عموري الحصار عن دمياط ، وعاد ومهه جبوشه إلى عسقلان في أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) تراقبهم خيبة الأمل ، في الوقت الذي

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٦٥ هـ
Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II, p. 968). (٢).

لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح، مما أدى إلى غرق كثير منها.

ولا شك في أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين في مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تقى لها في التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاشر الفاطمي — عقب انسحاب الصليبيين — إلى نور الدين، يرجوه سحب جنده الأترالك من القاهرة . بمحجة أنهم بنوا الرعب في قلوب أهلهما . ولكن نور الدين أرسل إليه يعتذر عن عدم إجابتة إلى طلبه ، ويوضح له أنبقاء أوائل الجندي أمر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين^(١).

سقوط الخلافة الفاطمية :

وفي الوقت الذي شدد نور الدين محمود هجماته على الصليبيين بالشام، كما استولى على الموصل سنة ٥٥٦٦ (١١٧١ م) ، كانت هناك مشكلة كبيرة لها خطورتها تفلق بالنور الدين وصلاح الدين جميعاً . وأعني بهذه المشكلة — التي نطلببت حلاً مريعاً حاسماً وضع الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة كبيرة تدين بالمذهب السنى . فنور الدين محمود كان سنياً ، وازدادت علاقته قوة بالخلافة العباسية وتقديرها له عقب استيلائه على الموصل^(٢). أما صلاح الدين في مصر فلم يكن أقل تحمساً للمذهب السنى لأنّه كان شافعياً مخلصاً، مما دفعه — منذ أن استتبّت له الأمور في مصر — إلى العمل على تدعيم المذهب السنى في البلاد . هذا كله والخلافة الفاطمية في قصره عاجز عن مقاومة الوضع الجديد . ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين ظل متبنّياً من

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير : السكمال حوادث سنة ٥٥٦٦ م .

الإقدام على الخطوة الكبرى الخاصة بأسقاط الخلافة الفاطمية . كما يبدو أن مخاوف صلاح الدين لم يكن مرجعها قوة الشيعة في مصر ، بقدر ما كان التخوف من نوايا نور الدين . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس في ذلك الدور بتغيير شعور سيده نور الدين نحوه ، وأنه بات يحسده على مكانته في مصر ، ويعمل حسابة لازدياد نفوذه في وادي النيل ، ولذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين^(١) .

وكان أن أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الأخير القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقاً للوحدة المذهبية في العالم الإسلامي . ولكن نور الدين لم يعد يتحمل المماطلة ، فأرسل إنذاراً نهائياً في صيف سنة ١١٧١ م (٥٦٦ هـ) إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العابسي المستضي محل اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة ، وألزمته ذلك إلزاماً لا فسحة فيه ،^(٢) .

وهكذا اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء في أول جمعة من عام ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العابسي المستضي وأمير المؤمنين ، وحدث الانقلاب في هدوء دون أن ينطهر فيه عنزان ، على قول ابن الأثير^(٣) ؛ ويقال أن الخليفة العاضد الفاطمي توفى بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر بإخفاء الخبر عنه . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية في مصر؛ ومن

(١) ابن الأثير : *التكامل حوادث سنة ٥٦٧* .

(٢) ابن واصل : *مفرج السكري* ج ١ من ٢٠٠ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : *تاريخ الدولة الاتباعية* . (Rec. Hist. Cr., Tome II, p. 287) .
التكامل حوادث ٥٦٧ .

ذلك ما يرويه المقريزى أنه نزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة والقاهرة كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين^(١).

ولاشك في أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ، وإنما كان حدثاً خطيراً في تاريخ العالم الإسلامي بوجه عام وفي تاريخ مصر بوجه خاص . فـها هي دولة الفاطميين تهـار بعد قرنين من الزمان تقريباً ، لتعود للعالم الإسلامي وحدته المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية هي الخلافة الوحيدة التي يدين لها المسلمون بولائهم الروحي . لذلك لا عجب إذا أقيمت الاحتفالات في بغداد تعـييراً عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل إن الخليفة العباسي المستضيء أسرع بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ، ومعهما الأعلام والرايات السود ، شعار العباسيين^(٢) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٢) ابن الأثير : السكامل حـوـادـث سـنة ٩٧٧ هـ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٦ .

الفصل الثاني

صلاح الدين وتأسيس الدولة الايوية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبت بين صلاح الدين وسميده نور الدين، عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما البعض . فتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى في مصر بوصفه وزيرًا شرعياً لل الخليفة الفاطمي ، فضلاً عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته في مصر . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد ، صفا الوقت لصلاح الدين على قول المؤرخ أبي المحاسن ، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العياسي والملك العادل نور الدين محمود^(١) .

ثم إن صلاح الدين لم يكتف بتوطيد نفوذه في الإسكندرية وغيرها من مدن مصر ، وإنما أخذ يفكر في الاستيلاء على برقة طمعاً في ثروتها .

وهكذا صار لزاماً على صلاح الدين في ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار أحد طريقين ، فإما أن يظل على ولاته لنور الدين وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل في آية لحظة قرار نقله وإحلال غيره محله في مصر ، وإما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته وفي هذه الحالة من الممكن أن تسلم له مصر إذا استطاع الدفاع عن كيانه ضد هجمات نور الدين^(٢) . ويروى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرات ج ٩ ص ٣٥٧ .

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 590.

(٢)

لنا ابن الأثير مثلاً واضحاً اتخوف صلاح الدين من نوره انور الدين في ذلك الدور ، ويقول إن صلاح الدين خرج من مصر في أوائل سبتمبر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) – بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين – لمهاجمة حصن الشوبك . ولم تستطع حامية الحصن الصالحية الثبات في المقاومة، فطلب إعطاؤها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولحسن صلاح الدين لم يلبث – وهو أمام الشوبك – أن علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته . وعندئذ خشي صلاح الدين أن يقبح عليه نور الدين إذا رآه ، فأسرع بالإنسحاب والعودة إلى مصر ، معذراً بأن العلوين على وشك إشعال ثورة في القاهرة . مما طلب سرعة عودته^(١) .

على أن هذا السلوك لم يكن له سند قوي يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه في مصر « وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذرها » . بل إن نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، الأمر الذي أخاف الآخرين فعقد اجتماعاً من أقاربه وبعض خاصته للتشاور في الأمر . وفي ذلك الاجتماع استهل الحديث بعض الشبان المتجهمسين – مثل المظفر تقى الدين عمر ابن أخي صلاح الدين – فنادوا بصد نور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين – وهو الشيخ نجم الدين أيوب – تدخل بلياقه، فشتم أولئك المتهورين ، ثم نظر إلى صلاح الدين وقال « والله لو رأيت – أنا وأخالك هذا – السلطان نور الدين ، لم يمكننا إلا أن نرجل له ونقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا وهذه البلاد أه وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فما حاجة إلى المحبى ؟ يا ملك الكتاب مع نجاح حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريده »^(٢) . ثم طلب

(١) ابن الأثير : *الكامل* ، حداث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) المقريزى : *السلوك* ج ١ ص ٤٩ .

بِحَمْ الدِّينِ مِنْ وَلَدِهِ صَلَاحُ الدِّينِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى نُورِ الدِّينِ لِيُعرَبَ لَهُ عَنْ
وَلَاهُ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ هُدْيَةً ثُمَّيْتَهُ مِنَ الْحَيَاةِ النَّادِرَةِ وَالْجَوَاهِرِ
وَالْأَقْشَةِ وَالْمَصْنُوعَاتِ وَالْعَطَرِ^(١) .

عَلَى أَنْ صَلَاحَ الدِّينَ — مَعَ ذَلِكَ — لَمْ يَتَقَاعِدْ عَنْ حِمَايَةِ مَكَابِسِهِ الَّتِي
حَقَّقَهَا فِي مِصْرَ ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتَخَلِّي عَنْ مَطَامِعِهِ ، وَإِنَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَسْتَعْدِلَ مَعَ اعْسَاهِ
أَنْ يَحْدُثَ فِي الْمُسْتَقْبِلِ . وَكَانَ أَنْ فَسَرَ صَلَاحَ الدِّينِ وَأَهْلَهُ دُفَّ تَحْصِيلِ عَلَيْهِ
يَقْصِدُونَهَا وَيَتَمَلَّكُونَهَا ، تَسْكُونَ عَدْدَهُمْ ، إِنْ أَخْرَجُوهُمْ نُورُ الدِّينِ مِنْ مِصْرَ
سَارُوا إِلَيْهَا وَأَقَامُوا بِهَا^(٢) . لَذَلِكَ أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ أَخَاهُ شَمْسَ الدُّولَةِ
تُورَانَ شَاهَ فِي أَوَاخِرِ سَنَةِ ١١٧٢هـ (٥٦٨) لِفَتْحِ النُّوبَةِ حَتَّى تَصْبِحَ
مَأْوَى الْأَيُّوبِ يَبْيَنُ فِي حَالَةِ دُخُولِ نُورِ الدِّينِ مِصْرَ . ثُمَّ اكْتَشَفَ صَلَاحُ الدِّينَ
أَنَّ بِلَادَ النُّوبَةِ فَقِيرَةٌ ، قَلِيلَةُ الْجَدْوِيِّ ، فَأَرْسَلَ أَخَاهُ تُورَانَ شَاهَ إِلَى الْيَمَنَ
سَنَةَ ٥٧٠هـ (١١٧٤) م) حِيثُ أَخْضَعَهَا وَضَمَّنَ تَبْعِيْتَهَا اصْلَاحَ الدِّينِ .

بَلْ إِنَّ ابْنَ الْأَئْمَرِ يَبْيَغُ فِي ذَلِكَ كَيْفَيَةَ إِنْ صَلَاحُ الدِّينِ حَرَصَ فِي ذَلِكَ الدُّورِ
عَلَى عَدْمِ التَّوْسِعِ فِي حَرْبِ الْأَصْلَمِيِّينَ لِيَظْلِمُوا سَتَارَآءَ يَفْصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُورِ الدِّينِ^(٣)

وَإِذَا كَانَ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ قَامَ بِغَزْوِ أَمْلَاكِ الْأَصْلَمِيِّينَ فِي السَّكُوكِ وَالشَّوَّبَكِ
سَنَةَ ٥٦٨هـ (١١٧٣) بِنَاءً عَلَى نَصِيحةِ وَالْدَّهِ ، فَإِنْ هَذِهِ الغَزْوَةُ لَمْ تَطْلُلْ ،
بَلْ عَلَى العَكْسِ أَدَتْ إِلَى تَجْدُدِ الْخِلَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُورِ الدِّينِ . ذَلِكَ أَنَّ
صَلَاحُ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ يَحْاصلُ حَصْنَ السَّكُوكِ ، حَتَّى عَادَ وَتَخَوَّفَ مِنْ أَنْ يَغْدِرُ
بِهِ نُورُ الدِّينِ ، الَّذِي كَانَ هُوَ الْآخِرُ قَدْ اقْرَبَ مِنَ السَّكُوكِ فَمُلَلا . وَهَكُذا
لَمْ يَلْبِسْ صَلَاحُ الدِّينَ أَنْ تَحْجُجَ تَلْكَ الْمَرَةَ بِمَرْضِ آيَيْهِ فِي مِصْرَ ، وَأَنْهُ يَخَافُ

(١) ابْنُ وَاصِلٍ : مَفْرُجُ السَّكُوكِ ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٢) ابْنُ الْأَئْمَرِ : السَّكَامِلُ سَوَادِثُ سَنَةِ ٥٦٩هـ ، الْمَقْرِيزِيُّ : السَّلُوكُ ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابْنُ الْأَئْمَرِ : قَارِئُ الدُّولَةِ الْأَنْجَكِيَّةِ (Rec. Hist. Cr., II, p. 293).

أن يحدث عليه حادث الموت ، فعاد فوراً إلى مصر ، دون أن ينتظرو وصول سيده نور الدين^(١) . وفي تلك المرة كان صبر نور الدين قد نفد ، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ولكن بينما نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر ، إذ به يموت في مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) وبذلك صار الميدان خالياً أمام صلاح الدين^(٢) .

المؤمرة السكري ضد صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) :

استطاع صلاح الدين في مدى فترة قصيرة أن يتخلص من الشورة التي اعترضت سبيله وسلطانه ، فقضى على الجندي السوداني ، ثم خلصه الموت من الخليفة العاشر الفاطمي وسيده نور الدين محمود . على أنه لم يكن معنى سقوط الخليفة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين قد غدا فعلاً وارث القوتين الفاطمية والنورية ، وأن الأمور استقرت له نهائياً في مصر والشام ، وإنما كان على صلاح الدين أن يواجه متابعي جمه من جانب أتباع الفاطميين في مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين في الشام ، حتى يستطيع أن يتحقق وحدة إسلامية متينة في الشرق الأدنى تمكنه من منازلة الصليبيين .

فن ناحية مصر ، يلاحظ أنه إذا كانت الخليفة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً في ظاهر الأمر ، إلا أن الخلاصين من الشيعة في مصر لم يرضوا عن ذلك الانقلاب ، فضلاً عن أنه وجد عندئذ عدد ضخم من أتباع النظام القديم ، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوي مثل صلاح الدين . ولم تلبث أن دبرت مؤمرة كبرى في القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (مارس -

(١) ابن واحد مدرج السكري بج ١ ص ٣٣٠ وقد توفى نجم الدين أيوب فملاي ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

أبريل ١٧٤م) اشتراكـت في حبك أطراـفها جـمـيع العـناـصـر النـاقـحة عـلـى الـوـضـع الجديد، واتـخذـت ستـارـاـً شـيـعـياـً يـسـتـهـدـف إـحـيـاء الـخـلـافـة الفـاطـمـيـة وإـعادـتـها إـلـى ماـكـانـتـ عـلـيـهـ . أـمـا زـعـمـاء هـذـه المـؤـامـرـة فـكـانـوا الشـاعـرـ عـمـارـةـ بـنـ أـبـوـ الحـسـنـ الـيـنـيـ ، وـعـبـدـ الصـمـدـ السـكـاتـبـ ، وـالـقـاضـيـ الـعـورـيـسـ دـاعـيـ دـعـةـ الشـيـعـةـ ، وـابـنـ عـبـدـ القـوـيـ ، فـضـلـاـ عـنـ عـدـدـ آـخـرـ كـبـيرـ مـنـ أـقـبـاعـ الدـوـلـةـ الفـاطـمـيـةـ مـنـ الـمـوـظـفـينـ وـبـقـائـاـ الـجـنـدـ السـوـدـانـ وـخـدـمـ الـقـصـرـ الفـاطـمـيـ ، وـغـيـرـهـ^(١) .

وـعـنـدـماـ أـدـرـكـ المـتـآـمـرـونـ أـنـهـمـ فـيـ مـسـيـسـ الـحـاجـةـ إـلـىـ قـوـةـ خـارـجـيةـ تـسـاعـدـهـمـ فـيـ تـنـفـيـذـ مـؤـامـرـتـهـمـ ، اـتـصـلـواـ بـالـإـسـمـاعـيلـيـةـ الـبـاطـنـيـةـ (ـالـحـشـيشـيـةـ) وـهـىـ الـقـوـةـ الشـيـعـيـةـ السـكـبـرـيـةـ بـالـشـامـ ، وـطـلـبـواـ مـنـهـمـ الـقـيـامـ بـقـتـلـ صـلـاحـ الدـيـنـ^(٢) . لـمـ يـكـفـ المـتـآـمـرـونـ بـذـالـكـ إـنـاـتـصـلـواـ أـيـضاـ بـالـصـلـيـبيـيـنـ ، وـاتـفـقـواـ مـعـهـمـ عـلـىـ أـنـ تـقـومـ الـقـوـاتـ الصـلـيـبيـيـةـ بـغـزوـ مـصـرـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ يـشـعـلـونـ هـمـ نـارـ الـشـوـرـةـ فـيـ الـقـاهـرـةـ وـالـقـسـطـاطـلـ ، وـبـذـالـكـ يـقـعـ صـلـاحـ الدـيـنـ بـيـنـ نـارـيـنـ^(٣) . ثـمـ أـنـ المـتـآـمـرـيـنـ اـتـصـلـواـ أـكـذـالـكـ بـولـيمـ الثـانـىـ الـنـورـمـانـيـ مـالـكـ صـقـلـيـةـ لـيهـاـجـمـ أـسـطـوـلـهـ بـالـاسـكـنـدـرـيـةـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ يـدـهـمـ الـصـلـيـبيـيـوـنـ مـصـرـ مـنـ نـاحـيـةـ الـشـرـقـ . وـهـكـذاـ دـارـتـ الـاتـصالـاتـ بـيـنـ زـعـمـاءـ الـمـؤـامـرـةـ فـيـ الـقـاهـرـةـ مـنـ نـاحـيـةـ وـبـيـنـ مـلـكـيـ بـيـتـ الـمـقـدـسـ وـصـقـلـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ أـخـرـىـ وـوـضـعـتـ جـمـيعـ الـتـرـتـيـبـاتـ بـحـيـثـ «ـلـمـ يـقـ إـلـاـ رـحـيلـ الـفـرجـ»ـ ، عـلـىـ قـوـلـ اـبـنـ الـأـثـيـرـ^(٤) .

وـقـبـلـ أـنـ يـيدـأـ التـنـفـيـذـ ، أـرـسـلـ عـمـورـيـ الـأـوـلـ رـسـوـلـاـ إـلـىـ الـقـاهـرـةـ يـحـمـلـ فـيـ ظـاهـرـ الـأـمـرـ تـحـيـاتـ الـمـلـكـ الصـلـيـبيـ اـصـلـاحـ الدـيـنـ ، وـاـكـنـهـ أـتـىـ فـيـ الـحـقـيقـةـ لـيـرـسـمـ الـتـرـتـيـبـاتـ الـنـاهـيـةـ مـعـ الـمـتـآـمـرـيـنـ . أـمـاـ وـلـيمـ الثـانـىـ مـالـكـ صـقـلـيـةـ فـقـدـ اـسـتـجـابـ

(١) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٥٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٤٩ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(٤) ابن الأثير : السكامـلـ فـيـ الـتـارـيـخـ حـوـادـثـ سـنـةـ ٥٦٩ـ هـ

للدعوة، وأعد أسطولاً ضخماً من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثة ألف رجل^(١). وقد اختار المتأمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه في حالة مقتله، بل بلغ بشقة المتأمرين في نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد «وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك» ^(٢) بحسب ما يبيحه الحديث إلا التنفيذ^(٣)

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وأحيطت المؤامرة قبل أن تولد. ذلك أن المتأمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الوعاظ زين الدين على ابن نجا الذي قام بإطلاق صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولاً فأول. وفي الوقت نفسه وصل المبعوث الذي أرسله عموري الأول إلى القاهرة محلاً بالهدايا وعيارات الود لصلاح الدين ، فانكشف أمره بعد قليل. أما صلاح الدين فلم يكدر يتأكّد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتأمرين فوراً وصلب زعماً لهم الشاعر عمارة اليمني وعبد الصمد السكاكيب والعوريس القاضي في أبريل سنة ١١٧٤ هـ / ٥٦٩ م ، في حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد^(٤).

ثم أن صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو إخماد ثورة أخرى قامت في أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمه كفرن الدولة — الذي جمع حوله من أسوان بعض العناصر من الشيعة وغيرهم ، وأوهمهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المهزولة ، ثم زحف بهم على قوص . ولكن الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه

(١) بهاء الدين بن شداد : التوارد السلطانية ص ٨٠.

(٢) ابن واصل : مفرج السكريobi ج ١ ص ٢٤٤.

(٣) ابن الأثير : السكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ.

العادل سيف الدين استطاعت أن تقضى على أولئك الجنود السودان قضاءً مبرماً في أوائل سبتمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ)^(١)

أما عموري الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكدر بعلم بإنكشاف سر المؤامرة في القاهرة وفشل خطته الموضعية لغزو مصر حتى توفى مهوراً في يوليو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) في بيت المقدس . ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية في ٢٨ يوليو من العام نفسه إلى الإسكندرية ليجد كل شيء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من ناحية ووفاة عموري الأول من ناحية أخرى جعلت غزو مصر غير ذي موضوع . ومع ذلك فإن رجال الحملة النورمانية حاولوا الاقتحام الإسكندرية ، ولكن المسلمين صدوا لهم وأحرقوا بعضًا من سفنهم ، في الوقت الذي قدم صلاح الدين مصرعاً ومعه جيشه فهاجم النورمان ، وأغرق بعض سفنهم ، وأنزل بهم الهزيمة ؛ وبذلك أضطر النورمان إلى الانسحاب يبحرون أذىال الفشل والخيبة^(٢) .

صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود في منتصف مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) خسارةً كبيراً للMuslimين ، لأن مشكلة تقسيم دولاته الواسعة بين ورثته هددت الوحدة الإسلامية التي أجهد نور الدين نفسه في بنائها . وكان الوريث الأول لنور الدين في حلب ودمشق هو ابنه الملك الصالح إسماعيل ، الذي لم يتتجاوز عمره عند وفاته أربعين عاماً . ولكن الملك الصالح إسماعيل هذا كان له ابن عم هو سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل الذي فرح بوفاة عمه نور الدين ، وأسرع إلى الاحتلال بعض المواقع بالجزيرتين مثل نصبيين والخابور وحران والرها وغيرها^(٣) .

(١) ابن شداد : التوارد السلطانية والخاسن اليسافية ص ٧٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل ح١٦٧٠ هـ

(٣) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ثم أن المنازعات لم تقتصر على ما كان هناك بين ورثة نور الدين وبقائياً البيت الرشكي في الشام ، وإنما امتدت إلى أمرائه ، فدب الخلاف بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين على بن الداية وشمس الدين محمد المعروف بابن المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة النورية ، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل في دمشق .

ولا شك في أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين تمديداً خطيراً في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان الصليبيون يتوعدون ويتحفرون . وهذا ظهر صوت ينادي بتحكيم صلاح الدين والاتفاق حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية والمحكم في ملك مصر بواردها وثروتها وقوتها . ذلك أن القاضي كمال الدين الشيرازي أشار على الأمير ابن المقدم وعلى بقية أمراء نور الدين بالرجوع إلى رأي صلاح الدين والانقياد له فهو أقوى مما لا ينفر منه بملك ديار مصر ، ولكن الأمراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين وخافوا أن يؤدي تدخله إلى أن يعصف بهم جميعاً ويضيق الشام إلى ملك مصر^(١) .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه في مصر ، وكان من الممكن أن يتدخل في شؤون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورماني إلى الإسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك أكتفى صلاح الدين بأن أرسل إلى الشام يعلن حقه في الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . والواقع أن صلاح الدين كان يجد سندآ قوياً للتدخل بحججه حماية وحدة المسلمين ، في الوقت الذي شرع الصليبيون

(١) ابن واصل : مفرج السكري بج ٢ ص ٣ (مطبوع) .

فعلا في مهاجمة المدن والمعاقل الإسلامية في الشام . ذلك أنه لم تكدر تهضي على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع عموري الأول في مهاجمة بانياس وحاول الإستيلاء عليها ، ولكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين . وبدلًا من أن يحاول الأمير ابن المقدم محاربة الصليبيين فإنه « راسلم ولا طفهم » وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أمرى الصليبيين في دمشق ، ثم محاالفتهم الصليبيين ضد صلاح الدين وأطعماه المقبلة ^(١) .

وعندما علم صلاح الدين بذلك الاتفاق « استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم » وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، فأرسل إلى الملك الصالح اسماعيل ورجاله « يقبح ما فعلوه » ^(٢) . ولم يطال الأمر حتى أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية إلى استئناف بعضهم بصلاح الدين ، بخاتمة هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية .

ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر على رأس جيش من سبعين ألف فارس ، بعد أن استختلف على مصر أخاه الملك العادل ، فوصل دمشق في أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ) ، دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا نؤكد أن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام عندما لم يستهدف مجرد تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ، وإنما كان حر يصا على أن يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية ، فأعملنا في صراحة ، إننا لا نؤثر الإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كأتمهم ^(٣) . وقد استقبل صلاح الدين في دمشق استقبالاً طيباً ، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها إياه .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج السكريوب ج ٢ ص ٨ (مطبوع) .

(٣) ابن واصل : مفرج السكريوب ج ٢ ص ١٨ (مطبوع) .

ولعل أهم ما يسترعي نظرنا في ذلك الدور من تاريخ صلاح الدين ، أنه حرص على الناظر بالولاية للصالح إسماعيل بن نور الدين ؛ فقال : « أنا مملوك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه »^(١) . وتحت هذا ستار ستار الولاية للصالح إسماعيل ورد أملأك التي أخذت منه في الجزيرة إليه — أخذ صلاح الدين ينفذ سياساته الخاصة بتدعيم الجبهة الإسلامية المتجدة وإعادتها إلى سابق عهدها ، حتى تندى من الفرات إلى النيل .

وبعد أن استمال صلاح الدين قلوب الدمشقة بتوسيع الأموال والهبات . غادر دمشق متوجهاً شمالاً ضد كشكين الذي استبدل بالأمور في حلب^(٢) . وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص في ديسمبر سنة ١١٧٤ (٥٧٠ م) ثم على مدينة حماه في أواخر الشهر نفسه .

أما حلب فقاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل إن أصحاب السلطان فيها أسرعوا إلى الاستعادة بالشيشية والصلبيين . ولم يليث سنان مقدم الباطنية أن أرسل إلى معسکر صلاح الدين جماعة من الفدائين لقتله ، وأوشك هؤلاء على النجاح في مهمتهم لو لا اكتشاف أمرهم . ولما فشل الباطنية في قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع المئن إذا هو تنجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويضيف ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراکز التي يبد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب^(٣) .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصي على عرش مملكة

(١) ابن الأثير : الكمال سنة ٥٧٠ هـ .

(٢) ابن شداد : النواذر السلطانية ص ٧٢ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ ، ابن الأثير : الكمال حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

يحيى المقدس عندئذ — يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب ، والقيام بدور حامى الصالح إسماعيل بن نور الدين ، لا حباً له وخدمة لأمراء حلب — كما يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري — وإنما ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ويحول دون قيام وحدة إسلامية في الشرق الأدنى^(١) .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولاً الاتجاه إلى الوسائل السياسية ، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسأله حلب ، ولوح له بأن الفرج انددوا « وصاروا يداً واحدة ». ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للإغارة على إمارة أنطاكية^(٢) . وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حصن التي كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أيام قريب . وإذا كان صلاح الدين قد اضطر إلى ترك حلب مؤقتاً في أوائل فبراير سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) لنجدة حصن ، فإنه عاد من جديد ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفي الموقعة التي دارت بين الطرفين عند قرون حماه في آخر أبريل سنة ١١٧٥ م (٥٧٠ هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين ، ثم أتبع انتصاره بدخول حلب ، حيث أعلن عزل الصالح إسماعيل ، وأخذ لقب « ملك مصر والشام » . ولم يلبث الخليفة العباسى أن أقر الوضع الجديد ؛ وأرسل إلى صلاح الدين التلخى وصلته من حماه^(٣) .

ولم يكن متظراً أن يقبل الزنكيون ذلك الوضع في سهولة ، فقام سيف

(١) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr., p. 1014).

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين بـ ١ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ .

اللدين غازى صاحب الموصل بحركة تعبئة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصلبيين ، وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكته بيت المقدس . وفي الموقعة التى دارت عند تل السلطان – على الطريق بين حماه وحلب – في أبريل سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) حلت الهزيمة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون ، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة^(١) . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرق حلب ليقطع الصلة بينها وبين الموصل ، حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الحلبين ، فانصرف عن حلب في صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) .

أما الباطنية ، فلم يكونوا أقل من الصليبيين همها بسبب انتصارات صلاح الدين وتوحيد بلاد الشام الإسلامية تحت سيادته . ولم يلبث أن حاول الباطنية اغتيال صلاح الدين مرة أخرى أثناء حصاره عواز في صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ولكن محاولتهم باءت مثل ما بقى منها بالفشل . وكان لا بد لصلاح الدين من أن يثار لنفسه من تلك الجماعة أهدافه ، فلم يكدر يفرغ من الصلح مع الحلبين حتى اتجه لحصار قلعة الباطنية في مصياف وقتل كثيراً منهم ، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الخارمي خال صلاح الدين^(٢) .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصلبيين جميعاً ضد صلاح الدين في ذلك الدور ليحولوا دون تحقيق الوحدة الإسلامية ، بين العراق والشام ومصر ، وهى الوحدة التى كانت تنذر دائماً بالقضاء على الحلفاء الثلاثة .

ويلاحظ في ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن واحد : مفرج السكري ج ١ ص ٤٧ .

كانت موزعة بين ثلاث جهات ، فهو يعمل ضد دعاة الانفصال من الزنكيين في شمال الشام والعراق ، ويحاول أن يتحقق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات لمواجهة الخطر الصليبي . وهو في الوقت نفسه مضطرب إلى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين إما لإرهابهم أو لصد عدوائهم ، لا سيما وأن الانفصاليين في شمال الشام والعراق أعمتهم مصالحهم الشخصية عن روبيه الخطر الحقيقى الذى يهدى الوطن العربى فى الشرق الأدنى ، فلم يجتمعوا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأخيراً فقد كان على صلاح الدين ألا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها بعد أن ثبتت التجارب أن الصليبيين أشد طعماً في مصر منهم في الشام والعراق ، وأنهم يحسبون حساباً كبيراً لإستيلاء صلاح الدين على مصر بالذات^(١) .

واعل هذا هو السبب في أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين في ذلك الدور نجد لا يكاد يحارب الانفصاليين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه أصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين في حرب حتى يقبل عروضهم للهداة ويسع إلى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت في مصر يشرف على تحصينها حق يبادر بالعودة إلى الشام ... وستوجل كلامنا عن جهود صلاح الدين في تحصين مصر من ناحية وفي محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، ليحرص على وحدة الموضوع ونوضح كيف كللت جهوده في سبيل توحيد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى بالنجاح .

اضطرب صلاح الدين إلى عقد الصلح مع الحلبين سنة ١١٧٦ م (٥٥٧١) كما رأينا ، ولذلك ظلل في قرارة نفسه يؤمن بأن أي عمل حربى وأسم ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصى وتوحيد الجبهة الإسلامية في الشرق الأدنى . وإذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ من ٧٥٠ .

وأمر مصر ، فإنه لم ينس الموصل وحلب ، بخرج للحصار الموصل سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) ، ولكنه ألح في القتال فلم ينل غرضاً ، لأن عن الدين مسعود صاحب الموصل (١١٧٦ - ١١٩٣ م = ٥٧٢ - ٥٨٩ هـ) كان قد أعد عدته للحصار وحشد داخل مدينةه عدداً ضخماً من الرجال وكثيارات وأفراة من الطعام والسلاح^(١).

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرب لفشلها في الإستيلاء على الموصل ، ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتخاذل مع الصليبيين . على أن أتابك الموصل لم يهتز بجميع تلك المناورات ، بل لجأ إلى الاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط وغيرهما . أما الخليفة العباسى فقد اكتفى بأن سعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين^(٢) . ولكن المؤرخ أبو شامة يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ، الأمر الذى يفسر اشتداد غارات الصليبيين على أعمال دمشق وحوران في تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثمرت في تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد إلى شمال الشام في صيف سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ - ٥٨٠ هـ)^(٣) .

وإذا كان صلاح الدين قد عاد من الجزيرة لم يباشر نشاطه في شمال الشام فإنه بدأ بحصار حلب . وهنا نجد أن عماد الدين زنكي الثاني أتابك حلب (١١٨٢ - ١١٨٣ م = ٥٧٨ - ٥٧٩ هـ) لم يكن له ما لا ي فيه عن الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكدر صلاح الدين يحاصر مدينة حتى ارتباك ورفض

(١) ابن واصل : مفرج السكري بـ ج ٢ ص ١١٩ (مطبوع)

(٢) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٥٧٨ .

(٣) المرجع السابق .

أن يستنجد بالصليبيين أو حتى يأخذ عز الدين . وإذا كان الصليبيون أنفسهم قد أظهروا مقاومة عنيفة في ذلك الوقت ، إلا أن حاكمهم عماد الدين أخذ يذكر في الفرار ، وأرسل إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجر ، فوافق صلاح الدين على ذلك وقاده الخابور ونصريين والرقة وسروج ; وتمت الصفقة في يونيو 1183 م (٥٧٩هـ) ^(١) .

ولاشك في أن استسلام صلاح الدين على حلب وتوابعها كان نصراً كبيراً لفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ، كما كان ضربه كبرى أحس بها الصليبيون ، وأعترف بها مؤرخوهم ^(٢) .

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل ، فعاد إلى حصارها المرة الثانية 1185 م (٥٨١هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتاً ليستولي على ميافارقين . ويقال إن الموصلة التهزا فرصة منرض صلاح الدين في تلك السنة ، فسعوا إليه في الصلح ، وتم الصلح فعلاً بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل في مارس سنة 1186 م (٥٨٢هـ) . وبمقدمة ذلك الصلح رضى صاحب الموصل أن يكون تابعاً لصلاح الدين وأن يخطب باسمه على المنابر ويضرب المسكة باسمه ^(٣) .

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية السكري من الفرات إلى النيل ، ولم يبق إلا أن يوجه صلاح الدين جهوده نحو تحصين مصر من ناحية ، وإزال ضربة الصليبيين من ناحية أخرى .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤٢ ، ابن شداد : المؤادر السلطانية ص ٩٨ .
Guillaume de Tyr, p. 1114. (٢)

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ (مطبوع) .

صلاح الدين وتحصين مصر :

لم ينس صلاح الدين مطلاقاً مطامع الصليبيين في مصر ، وظل متاخفاً طوال الفترة التي قضاها في توحيد الجبهة الإسلامية من أن يقوم الصليبيون بحملة كبيرة لغزو مصر ، من طراز حملات عموري الأول ملك بيت المقدس السابق^(١) . الواقع أن صلاح الدين لم يكن مبالغاً في مخاوفه ، إذ ثبت التاريخ أن نية اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر^(٢) . لذلك كان لا بد لصلاح الدين من أن يتخذ الأهةبة ويضع نظاماً قوياً لتحصين مصر حتى يمكن مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها .

والواقع إن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر إنما يرجع إلى أيام وزارته ، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك إن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) في ترميم سور القاهرة وإصلاح ما فيه من عطب بعد أن هُتّم أكثره وصار طريقاً لايّر داخلاً ولا خارجاً^(٣) . على أنه يلاحظ إن صلاح الدين كان في ذلك الوقت ضعيف النفوذ ، فهو وزير لل الخليفة الفاطمي ، وتبع لنور الدين محمود ؛ هذا إلى أنه كان في ذلك الوقت أيضاً محدود المسنودية قليلاً التجربة بحرب الصليبيين . لذلك لم يكن متظراً من صلاح الدين في تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسؤولياته وإمكاناته ، فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين (أعلام العرب ٤١) ص ١٣٥ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1033.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٢ [طبعة النيل] .

ولسكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة الفاطمي شم وفاة نور الدين محمود؛ إذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الأول المسؤول عن سلامتها والدفاع عنها. هذا إلى أن الفترة التي قضاها صلاح الدين في الشام يوحده قوى المسلمين ويحارب الصليبيين أكسيته خبرة واسعة في سياسية الشرق الأدنى في ذلك الوقت. ولاشك في أن صلاح الدين شاهد في بلاد الشام عندئذ مدنًا مخصصة، وحصونا مسورة، وأسوارا عالية محكمة البناء، فأخذ فكرة واضحة عن أساليب الحصار والدفاع وال الحرب، وعن أهمية الحصون والقلاع والاستحكامات في حماية المدن. وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ثم سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) ليقوم في كل مرة بسلسلة من التحصينات القوية لحماية عاصمة مصر وغورها ومراكزها الحيوية ضد أي هجوم متضرر من جانب الصليبيين.

وقد روى المؤرخ أبو شامة - على إسناد العميد الأصفهاني - أن صلاح الدين لما تملك مصر رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لـ كل واحدة منها سور لا ينبعها، فقال إن أفردت كل واحدة سورا احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإنى أرى أن أدير عليهم ما سروا واحداً من الشاطئين إلى الشاطئين، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم^(١). وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع، ويحمي عاصمة البلاد وأهلها من أي هجوم خارجي، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزاً للحكم، وملادعاً يحمى به إذا هددته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطط خارجي من جانب الصليبيين.

وسرعان ما أخذ صلاح الدين في تنفيذ مشروعه، فلبت بعض الأحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة، وساعد في العمل عدد كبير من

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج ١ ص ٢٦٨.

أسرى الصليبيين^(١) أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقعها بحيث تشرف على القاهرة ومصر إشرافاً تاماً، و تستطيع حمايتها أن تقوم بعمليتين مزدوجتين ، هما ضبط الأهالى وإخراج أية فتنه داخلية ، ثم صد أي هجوم خارجى تتعرض له القاهرة^(٢). والمعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا في عهد السكامل الأيوبي سنة ٥٦٠٤ م (١٢٧٠) ، فهو الذى شيد أول ما بني فيها من قصور كشيد أبراجها الرئيسية، ثم اتخذها منزلة له و مقاماً للحكم . ومنذ ذلك الوقت والقلعة تقوم بوظيفة القصر السلطانى الذى عاش فيه بقية سلاطين الأيوبيين ثم المماليك ثم الولاية العثمانية حتى زمن الخديو إسماعيل .

أما سور القاهرة فقد استخدمت فيه أيضاً الأحجار الضخمة، وروعى في السور أن يكون محصناً بأبراج متعددة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين ، ويكون البرج من قبو نصف دائري يؤدى إلى ستار الحائط بمراحل تستخدم لرمي العدو المهاجم بالسهام منها ، أو إلقاء المواد السكاوية والزيت المغلي^(٣) .

على أن جهود صلاح الدين في تحصين مصر لم تقف عند حد القاهرة ، وإنما امتدت إلى مختلف الغور والموانئ المصرية ، لاسيما بعد أن تذكرت اعتداءات السفن الصليبية على تيسى ودمياط وغيرهما من الموانئ . من ذلك مايريه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٧ م (١١٧٧) إلى دمياط وبصحبته ولادة الأفضل على والعزيز عثمان ، فتفقد تحصينات المينا، ثم رحل إلى الإسكندرية حيث تفقد سورها الدائر وفخوص الزيادات التي كان قد أمر بإنشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٩ .

(٢) نظير حسان سعداوي : التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٩٢ .

(٣) للرقوف على تفاصيل القلعة والسور ارجع إلى : نظير حسان سعداوي التاريخ العربي المصري ص ١٠٣ - ١٠٨ . وسأشير إلى بعض التفاصيل في نهاية هذا الباب عند الكلام عن الفنون .

بالاسكندرية وأمر بعمارة وتجديده سفنه « وما انصرف حتى أمر بإتمام الشغر
وتهجين الأسطول »^(١) .

وبينما صلاح الدين منصرف في السنوات التالية إلى تدعيم الوحدة
الإسلامية بالشام ومحاربة الصليبيين ، كان العمل مستمراً في التحصينات التي
أمر بها صلاح الدين سواء في القاهرة أو الإسكندرية . وقد حدث سنة
١١٨١ م (٥٧٧ هـ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرق بحيرة المنزلة
— نخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بذلك الغارة سبرغور المسلمين
تمهيداً لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعناية بتحصين دمياط وتنيس
هـ ورتب المقاتلة على البرجين بدِمياط ، وتجهزت، خصماً له ديار لعبارة سورها
والنظر في المسائلة التي بين البرجين . وعمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور
تنيس وإعادته كما كان في القديم . كذلك أمر صلاح الدين في العام نفسه
بناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً ورتبته فيه الفرسان .^(٢)

وهكذا اعنى صلاح الدين عنابة فاتحة تحصين عاصمة مصر وموانئها
وأنورها حتى يأمن عاديه الصليبيين . وإذا كان صلاح الدين قد اهتم بذلك
الاهتمام ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والأنور فمصر ، فمن الواضح
أن يكون اهتمامه بذلك الأمر في بلاد الشام عظيماً ، فأكثر من بناء الحصون
في الواقع الاستراتيجية ، وحرص على تحصين القلاع لتسكون مراكز لعملياته
ضد الصليبيين .

(١) أبو شامة : كتاب أروض بين ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

الفصل الثالث

صلاح الدين والصلبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين :

ولد صلاح الدين وشب في بلاد الشام في عصر ازدهرت حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين . ذلك أن عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود أكسبوا هذه الحركة طابعاً عملياً وأضيأها ، لأنهما بدماء من النقطة التي كان ينبعى أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور الخطر الصليبي في أفق الشرق الأدنى ، وهى توحيد الجهود وجمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية تضم – على الأقل – البلدان العربية التي كانت أكثر تعرضاً للخطر الصليبي من غيرها ، وهي الشام ومصر والعراق . وإذا كان صلاح الدين قد نشأ في منطقة هي بمثابة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصلبيين ، وشب في عصر شهد اشتداد حركة الجهاد ، وترعرع بين أنساس لا حديث لهم إلا عن الجهاد والدفاع عن الوطن والعقيدة ، والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الاحتفاظ بكلائهم ضد دخاله معتدين ؛ فلا غرابة أن نجد بعد هذا صلاح الدين وقد برز في صورة أعظم شخصية شهد لها الوطن العربي في عصر الحروب الصليبية . ذلك أن صلاح الدين لم يكتفى باعتماد فكرة الجهاد ، وإنما أصر إصراراً عظيمًا على تنفيذها ، وقضى حياته حتى آخر رمق فيه يذود عن المسلمين وببلادهم . وفي ذلك يقول ابن شداد « ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانبه استيلاً عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويبحث عليه »^(١) .

(١) ابن شداد : النواذر السلطانية ، ص ٤٤ .

ويتبين لنا عند دراسة الدور الأول من أدوار حياة صلاح الدين أن القدر والحظ ساعده إلى حد كبير ، إذ تهيأت له فرصة المجيء إلى مصر وهو الميدان البكر الذي استطاع صلاح الدين أن يعمل فيه ويظهر مواهبه على مسرحه ، ثم تهيأ له سبيل الظهور بوفاة عمه شيركوه ووفاة الخليفة العاشر الفاطمي وفشل المحاولات التي بذلت لإحياء الخلافة الفاطمية . وأخيراً توفي نور الدين محمود صاحب الحق الشرعي في حكم البلاد وفي السيادة على صلاح الدين وجيوشه . واجت وفاته في الوقت الذي كان يتأهب للخروج إلى مصر لتأديب صلاح الدين . ولا ندرى ماذا كان الموقف إذا لم يحدد القدر نهاية أجل نور الدين في ذلك الوقت بالذات ؛ ولكن كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه لو أن العمر أتم نور الدين حتى أتي إلى مصر فإن تاريخ صلاح الدين كان سيتهنىء عند تلك المرحلة . ذلك أنه كان من الصعب على رجل واحد من رجال صلاح الدين — بل كان من الصعب على صلاح الدين نفسه — أن يرفع سيفه في وجه نور الدين محمود ، سيدهم الشرعي وولي نعمتهم ؛ إذ أحسوا جميعاً بأنهم على يد نور الدين وعيده ، كما اعترف بذلك نجم الدين أيوب والـ صلاح الدين^(١) .

ولذلك نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجىء صلاح الدين إلى مصر يمثل نقطة التحول الأولى في حياة ذلك البطل ، فإن وفاة نور الدين محمود في مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) كانت نقطة التحول الكبرى في حياة صلاح الدين ، بل كان ذلك الحدث بداية مرحلة جديدة في تاريخه ، هي مرحلة البطولة التي خلدت اسمه في التاريخ . ذلك أن وفاة نور الدين تركت المسرح العربي في الشرق الأدنى وليس عليه شخصية كبرى من طراز عماد الدين زنكي أو نور الدين محمود ، وبذلك بُرِزَ صلاح الدين على المسرح ليُبَذِّلَ عماد الدين زنكي ونور الدين محمود جميعاً في صبره على الجهاد ومقدراته على انتقاء خير الوسائل لتحقيق أغراضه .

(١) ابن واصل : مفرج الــ الكروب ج ١ ص ٢٢٢ « مطبوع » .

الدور التقييدى في الحرب بين صلاح الدين والصلابيين :

وأول ما يسترعي نظرنا في حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الأول الذي امتد من سنة ١١٧٤ - ١١٨٦ م (٥٨٢ - ٥٧٠ هـ)، ولم يكن صلاح الدين في هذا الدور متفرغاً لحرب الصليبيين وإنما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهة الإسلامية وإدخال القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة في الشام وشمال العراق تحت سيادته، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة قوية متحدة تشد أزره . وإذا كان صلاح الدين قد اشتغل مع الصليبيين في حروب في ذلك الدور ، فإن هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعي إما لحماية أملاك المسلمين وأراضيهم وإما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية التي أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجي . فاستعانت بالصلابيين ضد صلاح الدين . وأما الدور الثاني من أدوار الحرب الصلاحية ضد الصليبيين فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢ م (٥٨٢ - ٥٨٨ هـ) وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل ، فانصرف بكل طاقاته إلى فكرة الجهاد ، حتى حقق الانصارات الضخمة التي خلدت ذكرها في التاريخ .

ويبدأ الدور الأول التقييدى كما دكرناه سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، ولكن ليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمهاجمة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة أن المصادر لا تمننا بشيء ذي قيمة عن اشتراك صلاح الدين في مستهل حياته — قبل مجيهه لأول مرة إلى مصر سنة ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) — في حرب الصليبيين ، ولكن صلاح الدين الذى شب على مسرح الحروب الصليبية في بلاد الشام ، وقضى فترة هامة من حياته الأولى في بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلاشك صورة طبيعية حية مجتمع مضطرب بنار الجماحة الدفاع عن الوطن والعقيدة وحماية نفسه من عدو خطير أتى من أقصى

الغرب ليعتمد على قوم آمنين في ديارهم ويسليهم جزءاً عزيزاً من بلادهم . وبوصول صلاح الدين - صحبة عمه شيركوه - إلى مصر لأول مرة سنة ١١٦٤ م (٥٥٩هـ) بدأت صفحة جديدة في تاريخ علاقته بالصلبيين ، لأن المجلات الثلاث التي أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة ١١٦٤ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ (٥٥٩هـ ، ٥٥٦٢هـ ، ٥٥٦٤هـ) والتي شارك فيها صلاح الدين ، إنما كانت في حقيقة أمرها موجة ضد الصليبيين الذين دخلوا مصر في ذلك الوقت وحاولوا امتلاكه . وتعتبر المعارك التي دارت بين المسلمين والصلبيين في أرض مصر عندئذ المحك الأول بين صلاح الدين والصلبيين ، إذ حدث فيها الاختلاف المباشر بين الطرفين لأول مرة ، فقام صلاح الدين بدور بارز في موقعة البابين في أبريل سنة ١١٦٧ م (٥٦٢هـ) ، ثم تعرض صلاح الدين لخسائر الصليبيين في الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسيه خبرة وأساليب الصليبيين وحربهم .

ثم كانت الفوضى التي أصابت دولة نور الدين محمود بعد وفاته - كما سبق أن ذكرنا - الأمر الذي ترتب عليه قيام بعض الأطراف المتنازعة في الشام بدعوة صلاح الدين لتسلمه دمشق سنة ١١٧٤ م (٥٧٠هـ) . وقد خشي الصليبيون عاقبة جهود صلاح الدين في الشام لتوحيد القوى الإسلامية ، فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوسي على عملة بيت المقدس للتحيلولة دون استسلام صلاح الدين على حلب ، وفعلاً نجح متفقاً سنة ٥٧٠هـ (فبراير ١١٧٥ م) في صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن ريموند قام بدوره في مهارة التظاهر بمحاباة الزنكينيين من أطعام صلاح الدين إلا أن الأخير أظهر ثباتاً عجيباً ، فظل يحارب الزنكينيين حيناً ويدافع الصليبيين أحياناً ، مع حرصه الشديد في ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين حتى لا يحارب في جبهتين في وقت واحد . وربما اختلفت الحرب بين صلاح الدين والصلبيين في ذلك الدور كما حدث بين سنتي ١١٧٧ م (٥٧٣هـ ، ٥٧٦هـ) ولكنها مع ذلك لم تتخذه صورة الحرب الشاملة . ثم إن الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطراباً كبيراً في أحوالهم الداخلية

عندئذ ، إذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضاً بالجذام ، ومشكلة العرش ووراثته تثير كثيراً من المنافات بين أمراء الصليبيين ، فضلاً عن احتلال أحوال إمارة أنطاكية في الشمال . وهكذا حق استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨١ هـ) ، وعندئذ أصبح في وسع صلاح الدين أن « ينصرف بكلته إلى الفرج » .

صلاح الدين وملائكة بيت المقدس :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على مملائكة بيت المقدس أخذت تشتغل بعد استيلائه على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ هـ) . وفي ذلك الوقت كانت مملائكة الصليبيين قد بلغت درجة شديدة من الضعف بعد أن سامت أحوال ملوكها المريض ووضع عرش المملكة تحت وصاية جاي لوز جنان وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير^(١) . وقد استولى صلاح الدين على بعض المعاقل الصليبية في تلك السنة ، ثم حاول أن يستدرج خصومه للدخول معه في معركة فاصلة في فلسطين ، ولكن الصليبيين « لم يخرجوا إلى الماصاف خوفاً من المسلمين »^(٢) .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن فكر في اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين . نتيجة لاستفزاز الأمير أرناط الصليبي صاحب حصن الكرك . ولم يكن أرناط من طراز الفرسان الذين يجدتهم العصور الوسطى ، لخراصهم على التسلك بمبادئ الشرف ، وإنما اشتهر بحبه للصلب والنها واعتماده على الآبرية المسلمين^(٣) . لذلك فإنه لم يكتف بقطع طرق القوافل بين مصر والشام

Guillaume de Tyr, p. 1116.

(١)

(٢) ابن واحد : مفرج الكروب . ج ٢ ص ١٠٠ - ١٥١ .
King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111. (٣)

والحجاز ، وإنما جاء إلى تهديد الحرمين في الحجاز . وقد بدأ أرناط مشروعه الغريب سنة ١١٨٢ (٥٧٨) بالاستيلاء على أيلة ، وهي الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم جاء أرناط إلى بناء عدة سفن حملت أحجزاًوها مفتكـة إلى خليج العقبة حيث ركبت ، وسخنها بالمقاتلين ، وأتجه على رأسها لمهاجمة الموانى الإسلامية في البحر الأحمر ^(١) . ولم يكتف أرناط بالعدوان على الموانى المصرية مثل عيذاب ، بل نقل نشاطه إلى شاطئ الحجاز ، حتى أن المقرizi يذكر أن الصليبيين أصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة ^(٢) .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو يسكن عنه المسلمين ، فأسرع العادل — أخوه صلاح الدين — إلى إرسال أسطول قوى في البحر الأحمر نجح في تدمير السفن الصليبية وأسر كثير من رجالها ، في حين فرّ أرناط نفسه بتصوبته . أما صلاح الدين فقد رد على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك في أواخر سنة ١١٨٣ م ثم سنة ١١٨٤ م (٥٧٩ — ٥٨٠ هـ) وإن كان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوته تحصينه ^(٣) .

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولاً حينئذ بتنظيم الأوضاع الداخلية في دولته وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته في حكم أجزاء دولته الكبيرة ، فاكتفى بعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠ هـ (١١٨٥ م) ^(٤) . وكانت هذه المدنة عظيمة الأهمية للطرفين إذ أتاح اصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفي الوقت نفسه أتاح للصليبيين فرصة ذهبية ليصفية كثير من المشاكل الداخلية التي نشبت في دولتهم بعد وفاته بدون الرابع في مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشا — بمحافنه

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ .

(٢) المقرizi : السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٦ .

(٤)

المعهودة — أن يترك الصليبيين ينعمون بذلك الفرصة ، فتعجل في إثارة الحرب مع صلاح الدين ، وهي الحرب التي جامت كارثة على الصليبيين جميعاً.

موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلي الذي نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض — عقب وفاة بادوين الرابع — باختيار جای لوز جنان ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفي الوقت الذي آل أمر المملكة الصليبية إلى ذلك الملك الضعيف ، كان أرнат قابعاً في حصن السكرك جنوب البحر الميت ، وهو الحصن الذي كان يتحكم بموقعه الفذ في طرق الموصلات بين مصر والشام والمحاجز . ولكن أرnat كان لا يستطيع أن يحيى هادئاً دون أن ينبت ويسرق^(١)؛ ولذلك لم يلبث أن انقض جفأة على قافلة كبيرة المسلمين كانت متوجهة في آخر سنة ١١٨٦ م وأوائل سنة ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) من القاهرة إلى دمشق . ويبدو أن الثروة الضخمة التي كانت تحملها القافلة أسالت عاب أرnat ، فنصب لها كميناً واستولى على كل ما تحمله من ثروة وبضائع ، وأسر رجالها في حصن السكرك حيث «سامهم الشد والشدة»^(٢).

وكان كل مافعله صلاح الدين عندئذ هو أنه أرسل إلى أرnat مهدداً ، طالباً منه رد الأسرى والغنائم . ولكن أرnat أبى ذلك ، ورفض رجاء جای لوز جنان نفسه عندما أمره برد الأسرى والغنائم إلى صلاح الدين . وهكذا لم يبق أمير صلاح الدين إلا الحرب ، فقام بحركة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية ، استعداداً لحركة جهاد كبير لم تنته

Grousset : Hist. des Croisades, II, p. 116.

(١)

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

إلا في نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم في تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعداداته ، خرج صلاح الدين من دمشق في منتصف مارس سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) فقصد السكرك أولًا ونازحا وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك « ثم أتجه بعد ذلك إلى بانياس — قرب طبرية — لرقبة الموقف^(١) .

وفي ذلك الوقت جمع الملك جائ لوز جنان جيوشه في القاهرة ، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصلبيين قرب صفورية في مايو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وفيها سقط معظم الجيش الصليبي بين قتل وأسرى . ويبدو أن هذه الكارثة التي حلّت بالصلبيين جعلت رمون الثالث يهوي إلى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين ، واجتمعت الجيوش الصليبية في صفورية استعداداً للانتقام .

وقد رد صلاح الدين على ذلك بهاجمة طبرية — التي كانت للصلبيين — فاقتصرت جيوشه المدينه في يونيو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) وأحرقها ؛ وإن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها^(٢) .

ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من هاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك موقعهم عند صفورية ، فيتمكن من إزالة المهزيمة بهم بعد أن يتعريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو .

وفعلاً نجحت خطة صلاح الدين ، فتحرّك الصليبيون للدفاع عن طبرية ،

(١) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

وساروا في شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) في ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلة الماء ومشقة الطريق^(١) . وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تجاهه سرسروراً كبيراً وقال « جاء ما زيرد »^(٢) .

وأخيراً وصل الصليبيون إلى قرون حطين - وهي هضبة مرتفعة على سفح جبل طبرية - وهم في حالة سيئة من الإئناك والعطش ، في الوقت الذي كان المسلمون مدخرین قوتهم، ينعمون بالماء العذب والظل المديد . وفي ٤ يوليو دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصليبيين، فأحاط المسلمون بخصوصهم ، ولم يجد الصليبيون مخرجاً سوى التراجع نحو قمة الجبل « القتل والأسر يعملان في فرسانهم » حتى قتل معظمهم وأنهارت قوة من نجاحاً ، فاستسلموا للMuslimين^(٣) .

وكان من جملة الأسرى الملك جاي لوز جنان، وأرнат صاحب حصن السكرك ، ومقدم الداوية ، فسيقوا جميعاً إلى صلاح الدين في خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ماعداً أرnat صاحب حصن الذي قتله صلاح الدين وفأه لقسم له^(٤) .

استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم . ولم يكن متوقراً من ملائكة بيت المقدس بعد فناء جيشهما وأسر ملوكها أن تستطيع الصمود والمقاومة ، الأمر الذي مكن صلاح الدين من تحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين . وهنا نلاحظ أن صلاح الدين

(١) King : The Knights Hospitallers, pp. 125-126.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القوى ص ٢٣ . ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

(٤) ابن واصل : مدرج السكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

تحلى في ذلك الدور من أدوار حربه ضد الصليبيين بصفات التسامح والمرودة والشهمة والبعد عن التطرف ، وهي السياسية التي كثيراً ما سببت الأضرار بصالح المسلمين ، وجعلت بعض المؤرخين المسلمين -- مثل ابن الأثير -- ينقدون صلاح الدين نقداً مراً لتساهله مع خصومه تساهلاً يفوق الحدود^(١) .

وكان المفروض أن يتوجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولي عليها في سهولة، بعد أن غدت المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها؛ ولكنه آثر أن يتوجه أولاً إلى الموانئ الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معاونة تأتي إليهم من غرب أوروبا عن طريق البحر ، وبعد ذلك يسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين .

هذا بالإضافة إلى أن استيلاء صلاح الدين على موانئ فلسطين من شأنه أن يهيأ له اتصالاً بحرياً سريعاً وسهلاً بين شطري دولته، الشام ومصر^(٢) .

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا في سهولة ، إذ استسلمت له المدينة بمجرد رؤية الجيش الإسلامي في ٨ يونيو سنة ١١٨٧ م (٥٥٨٣) . ويبدو أن السياسة الرحيمة التي اتباعها صلاح الدين مع أهل عكا، ساعدته في الاستيلاء على كثير من المدن الساحلية والداخلية فيما بعد ، فأرسل جيشه للإستيلاء على المعاقل القرية، حتى تم لل المسلمين الاستيلاء على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفوريه، وغيرها من المواقع القرية من عكا^(٣) . هذا في الوقت الذي زحف العادل أخوه صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، في حين سقط حصن آبنين، وصر هند، وصعيداً في أيدي المسلمين في أو آخر يونيو سنة ١١٨٧ م (٥٥٨٣) . كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان التي

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١١ وما بعدها .

(٢) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 249.

(٣) ابن راسخ : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٢

أيدت مقاومة عنيفة . وهنا يلاحظ أن صلاح الدين كان يترك الحرية لآهالي معظم هذه المدن التي استولى عليها في أن يبقاءوا أو يرحلوا ، فأثر معظمهم الرحيل إلى صور « حيث اجتمع كل أفراد مجتمع في الساحل »^(١) .

وهذا الخطأ من صلاح الدين ترتب عليه تجمع جميع عناصر المقاومة الصليبية في مدينة صور ، الأمر الذي أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين عليها من ناحية ، وإلى اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيها بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غداً صعباً ، آثر أن يتوجه إلى داخلية فلسطين ليستولي على بيت المقدس . وكان أهل بيت المقدس قد استفادوا من الفرصة التي أتاحها لهم إتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين ، وحصروا مدینتهم ، فرفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين ويسلموا المدينة له مقابل تأمينهم^(٢) . ويقال أن صلاح الدين عندما رأى عناد الصليبيين في بيت المقدس ، أقسم على أن يستولى على المدينة بحد السيف ، فبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية في ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣)^(٣) ، وعندئذ أدرك الصليبيون استحالة المقاومة ، فطلبوا الأمان^(٤) . ويبدو أن صلاح الدين تمنع عن إجابة الصليبيين إلى طلبهم تلك المرة بعد أن رفضوا عروضه السابقة ، حتى وافق أخيراً على أن يسمح لهم بالخروج سالمين مقابل فداء معين عن كل رجل أو امرأة أو طفل . وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) . وشامت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الأسراء والمعراج ، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية في بيت المقدس

(١) أبو شامة : النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٢)

Runciman: A Hist. of the Crusades, II, p. 464.

(٣)

وأحسنوا معاملة الصليبيين ، مما جعل كثيراً من المؤرخين الأوربيين يشيدون بتسامح صلاح الدين ، وبالفرق بين معاملته للمسيحيين ومعاملة الصليبيين لل المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٧ م (٥٤٩١) ^(١) .

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين ، لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية في شمال الشام ، مثل صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلاً عن الحصون الداخلية ، مثل حصن الأكراد وحصن المرقب . أما صور فقد فشلت جميع جهود صلاح الدين في الاستيلاء عليها بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التي تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التي استولى عليها . لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتجنيه جهوده ضد طرابلس وأنطاكية .

وقد بدأ صلاح الدين هجومه على إمارة طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة في قليم الجليل ، مثل قلعة هونين ، كما حاصر صفد وحصن كوكب ، وإن كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا في أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩ (٥٨٤) ^(٢) . وفي تلك الأثناء استولى صلاح الدين على بانياس في أقصى الشمال من إمارة طرابلس ، ثم أوغل في إمارة أنطاكية وإستولى على جبلة في يوليو ١١٨٨ (٥٨٤) ^(٣) . وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية - أكبر موانئ إمارة أنطاكية - في أواخر يوليو سنة ١١٨٨ م (٥٨٤) ، هاجم حصن صهيون واستولى عليه بعد قليل . وبذلك أخذت معاقل إمارة أنطاكية تتساقط في يد صلاح الدين معملاً بعد آخر بحيث لم يبق لتلك الإمارة سوى ثلاثة حصون ، هي القصير وبغراس ودرسالك ^(٤) . وحتى هذه الحصون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٥٨٤ ه ، أبو شامة ، الروضتين ص ١٣٦-١٣٧ .

لم يلبث أن ستوى عليها صلاح الدين في أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٥٨٤)، وبذلك أصبحت إمارتاً أنطاكية وطرابلس مقصوصةً لجناحه، على قول المؤرخ أبي شامة.

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الكبير الشامل على الصليبيين سنة ١١٨٧ م (٥٥٨٣)، ولم تكتمل ثالث سنوات على ذلك الهجوم حتى انكمشت الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، فلم يبق من مملكة بيت المقدس إلا صور، ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة انطرطوس وحصن الأكراد، ومن إمارة إنطاكية إلا عاصمتها مدينة إنطاكية وحصن المرقب، هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الضئيلة الأهمية^(١).

ولاشك في أن المصائب التي حللت بالصليبيين في المشرق على يد صلاح الدين كان لها صداتها ورد فعلها العنيف في الغرب الأوروبي، فارتفاع صوت البابوية ينادي ملوك أوروبا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبيرة، تسترد بيت المقدس من المسلمين، وتثار ماحل بالصليبيين في الشام على يد صلاح الدين. ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة رينشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أنططس ملك فرنسا وفردريلك بربروسا إمبراطور ألمانيا.

وقد اختار فردريلك بربروسا أن يأتي إلى الشام عن طريق البر وآسيا الصغرى، في حين سلك زميلاه ملك فرنسا وإنجلترا طريق البحر. ويدوأن الحملة الألمانية بزعامة فردريلك بربروسا تعرضت في طريقها لصاعب جة من جانب الدولة البيزنطية ثم السلجوقية، حتى انتهى الأمر بغرق الإمبراطور

Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 834-835.

(١)

فردريلك بربوسا نفسه في أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت حملته سنة ١١٩٠ م (٥٨٦)^(١).

وفي الوقت الذي جمعت البقايا الصليبية فلوطا في الشام وأخذت تشدد الهجوم على عكا لاستردادها من المسلمين، وصل فيليب أوغسطس على رأس الحملة الفرنسية إلى الشام في إبريل سنة ١١٩١ م (٥٨٧) ليشجع الصليبيين ويبيث فيهم روحًا جديدة، ويحيي فيهم الأمل. ولم يضع فيليب أوغسطس الوقت، وإنما تزعم على الفور معركة عكا، حتى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا إلى الشام في ٨ يونيو، فازداد الصليبيون قوة، في حين ساء موقف الحامية الإسلامية المحسورة داخل عكا. ولم تفلح المجممات القوية التي شنها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لإنقاذ عكا، فاضطررت حاميتها إلى التسلیم في يوليه سنة ١١٩١ م (٥٨٧)^(٢).

وإذا كان الخلاف بين فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد دفع فيليب إلى الاعتناء بالمرض والإبحار إلى الغرب في أوائل أغسطس سنة ١١٩١، فإن ريتشارد اختار أن يبقى بعض الوقت في الشام ليحاول أن يصفي الحساب بين صلاح الدين والصليبيين. وتعتبر المخروب التي دارت في الشام بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ - ١١٩٢ م (٥٨٨ - ٥٨٧) من أهم حلقات المخروب الصليبي إطلاقاً، وأكثرها ماتعة للباحث. ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور، فتزعم القوى الصليبية بالشام ل القيام بحركة كبيرة يسترد بها بيتم المقدس ويعيدها إلى سابق عهدها^(٣). وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطئ فلسطين - من عكا

(١) ابن الأثير : *ال الكامل*، حوادث سنة ٥٧٦ هـ op. cit., III, p. 15.

(٢) ابن واحد : *مفرج التكروب* ج ٢ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ، ابن شداد : *النوادر السلطانية* ص ٢٧٦.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : *المملكة الصليبية* ج ٢ ص ٨٧١ وما يceedها.

إلى عسقلان ، فاستولى الصليبيون على حيفا ثم على قيسارية في نهاية أغسطس سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح الدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم في سهلة، وإنما أخذ في مطاردتهم ، وتحمل في هذه المطاردة كثيراً من التضحيات ، حتى كانت موقعة أرسوف بين الطرفين في أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) . وفي هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقضى عليهم كما حدث في حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذي أعاد تنظيم رجاله في سرعة، واستطاع أن يحول المعركة إلى صالح الصليبيين^(١) .

ومع أن الصليبيين انتصر واف أرسوف ، إلا أن صلاح الدين ظل مجتهداً بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات القوية التي اتخذها المدافعون عن المدينة^(٢) .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوي ومتين ، وأن الأحوال في غرب أوروبا تستدعي سرعة عودته إلى بلاده ؛ ولذلك كله لما ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . وقد طالت هذه المفاوضات بين الطرفين ومررت بأدوار متعددة ، حتى أدت في النهاية إلى صالح الرملة في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ) وهو الصلح الذي نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وما دعا ذلك - بما فيه بيت المقدس ذاتها - تظل بأيدي المسلمين^(٣) .

(١) المقرizi : السلوك ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن شداد : التوردر السلطانية ص ٣٦٣ ، عماد الدين السكاك : الفتح القوى ص ٣٤٢

وبعد عقد الصلح ركب ريتشارد البحر عائدًا إلى بلاده في أوائل أكتوبر سنة 1192 م (٥٨٨ هـ). ولم يأبى صلاح الدين نفسه أن توفي في أوائل مارس سنة 1193 م (٥٨٩ هـ) في دمشق بعد مرض قصير.

ولاشك في أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبيرة للعالم الإسلامي بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص. ويكفي أنه — باعتباره جمرة المؤرخين المسلمين والأوربيين — كان أعظم شخصية شهدتها عصر الحروب الصليبية، مما دفعهم جميعاً إلى الترحم عليه والإشادة بقوته وعدله وتساحجه^(١).

(١) ابن شداد: النواذر ص ٤١٠، Runciman: op. cit., III, pp. 11-18.

الفصل الرابع

الدولة الأيوية بعد صلاح الدين

انقسام البيت الأيوبي :

ترك صلاح الدين خلفه دولة متaramية الأطراف ، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبناءه السبعة عشر ، أو إخوته ، أو أبناء إخوته أن يملأه . ولا أقل من أن نلقي نظرة سريعة على أحوال الدولة الأيوية عند وفاة صلاح الدين ، لندرك مدى الخطر الذي كان يتهددها ويتهدد وحدة المسلمين في الشرق الأدنى عندئذ . على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الإداري في الدولة الأيوية عند وفاة صلاح الدين يصبح أن نشير إلى ملاحظة ، هي أن صلاح الدين اعتمد في الدور الأول من تاريخه على إخوته وأبناء عمومته في توطيد سلطاته ، واحتضنهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية في دولته؛ ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن بدل سياسته ، فجعل لأبناء المكانة الأولى ، ووزع عليهم حكم الأجزاء الرئيسية ، ثم استبق لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية . وسواء كان الدافع لصلاح الدين إلى ذلك عاطفة الآبوة الطبيعية التي جعلته يفضل أبناءه على إخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه وأزدياد نفوذ إخوته ، فالمهم هو أننا نجد الدولة الأيوية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بنى أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء الحصارة وأخذ بقية الأقارب الأقرب الأقل أهمية .

وكان أكبر أبناء صلاح الدين هو الملك الأفضل نور الدين على ، فاحتفظ (١١٩٣-١١٩٦م - ٥٩٢-٥٨٩ھ) بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصري وبايناس وهو نين وتبنين إلى الداروم

قرب حدود مصر . أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان فسكن بصر وفاته أبيه ، فاحتفظ بها (١١٩٣ - ١١٩٨ م = ٥٨٩ - ٥٩٥) ، في حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين — وهو الملك الظاهر غازى — حلب وشمال الشام (١١٩٣ - ١٢١٥ م ، ٥٨٩ - ٥٦٣) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والأردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها إقطاعات ثانوية متفرقة منهجه إليها صلاح الدين ، ولا تناسب مع أهمية العادل التي سترداد ظهوراً مع مضي الوقت ^(١) . أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوه وأقاربه ، فـكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة : مثل الظافر خضر ابن صلاح الدين الذي أخذ بعلبك ، والمجاهد شيركوه الثاني (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين وقد أخذ حمص ، والمنصور الأول محمد ابن تقى الدين عمر وقد أخذ حماه ، في حين أخذ سيف الإسلام طغتكين — وهو الأخ الرابع لصلاح الدين — اليه وجزيرة العرب ^(٢) .

إذا أضفنا إلى ذلك كله تحفظ أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة ، مثل البيت الزنكى مثلاً في عز الدين مسعود الأول ابن مودود أنايل الموصى (١١٨٠ - ١١٩٣ م ، ٥٧٦ - ٥٨٩) وأنجيه عماد الدين زنكى الثانى ابن مودود أنايل سنجار (١١٧٠ - ١١٩٧ م ، ٥٦٦ - ٥٩٤) ، والبيت الأرتقى مثلاً في قطب الدين سقمان الثانى صاحب كيما وآمد ، وعماد الدين أبو بكر صاحب خربت ، فضلا عن بني سكمان في خلاط ، أدركناحقيقة الموقف في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى عند وفاة صلاح الدين ^(٣) .

(١) ابن واصل : مفرج السكري بج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ « مطبوع » .

(٢) عماد الدين السكاكى : الفتح القوى ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الأثير : السكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ م .

النزاع بين أبناء البيت الأيوبي :

ولم تلبث أن نشب حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبي . ذلك أن صلاح الدين أوصى لإبنه الأفضل - صاحب دمشق - بالسلطنة من بعثه ، على أن تكون له السلطة العليا في بقية أنحاء الدولة الأيوبيّة . ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذي يصلح لتلك المهمة لضعفه وسوء سيرته ، حتى وصفه المؤرخون بأنه « أقبل على اللعب ليه ونهاره وتظاهر بذلك »^(١) . وزاد من كراهيّة الناس له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الأثير ، أخي المؤرخ الشهير . ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمراؤه المستبعدون أن فروا إلى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر ، واستعدوا على أخيه الأفضل ، نخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ هـ) قاصداً الشام ، وشرع في محاصرة الأفضل في دمشق ، الأمر الذي جعل الأفضل بدوره يستنجد بعمه العادل^(٢) .

وهكذا أتيحت الفرصة للعادل - وهو الرجل الطموح الذي كان يرجو أن يختلف أخاه صلاح الدين - فأخذ يتدخل ، عليه يتحقق أطلاعه الخاصة . وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه كان « ذا مكر شديد وخدعة ، صبوراً ذا أناة وتدبر »^(٣) . فلم يشا أن يتوجه نحو الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين ، وأنفذ يتصرف بأناه ريثما تتضح الأمور . وكان أن استجواب العادل لنداء الأفضل ، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماه ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، والأبجد صاحب بعلبك . واتفق هؤلاء جميعاً على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق « علماء منهم

(١) المقريزى : السلوك حوارث سنة ٥٩٠ هـ ، أبو الحasan : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الأثير : السكامل ، حوارث سنة ٥٩٠ هـ .

(٣) ابن واصل : مفرج السكري بج ٤ ص ٢٧١ « مطبوع » .

أن العزيز إن ملِكتها أخذ بلادهم ، . وعندئذ أدرك العزيز أن لاقدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً ، فانصرف عائداً إلى مصر بعد أن اجتمع بعده العادل في صحراء المبزة ، فطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها^(١) .

أما التسوية التي على أساسها انصرف العزيز ، والتي تمت في يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر جبله واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلًا^(٢) .

وهكذا أخذ العادل يبدو في صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبي ، والمحافظة على كيان المسلمين أمام الآخطر المخارجية^(٣) .

على أن الأفضل لم يلبث أن تماهى في لذاته ولهوه « فتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب » ، فالوقت الذي عاد العزيز عثمان إلى مطامعه ، خرج من مصر قاصداً دمشق. وكان أن عاد الأفضل إلى طلب النجدة من عمه العادل ، خرض العادل أمراء العزيز على تركه ، وعندئذ وجد العزيز نفسه وحيداً فاضطر إلى العودة إلى مصر . وسرعان ما تم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل مصر ويترك دمشق للعادل ، فجمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعاً يرحفان على العزيز في مصر

(١) المقريزى : السلوكي حواريث سنة ٥٩٠ هـ.

(٢) ابن الأثير : التكامل حواريث سنة ٥٩١ هـ.

(٣) يروى أبو الحasan أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له :

« لا تخرب البيت وتتدخل عليه الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب ارجع إلى مصر واحفظ عهديك » (النجوم الراحلة ج ٦ ص ١٢١) .

حتى وصل إلى بلبيس وحاصرها . وليس أدل على مهارة العادل في ذلك الدور من أنه عاد بخشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فأرسل العادل سراً إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد له بالانسحاب من بلبيس ^(١) . وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق في حين جعل العادل من نفسه حكماً بين أبناء صلاح الدين مما مكنته من أن يفرش كلامه عليهم جميعاً .

على أن الأفضل عاد في تلك المرة إلى دمشق ليترك جميع شئون الحكم في يد وزيره خنياء الدين ابن الأثير «الذى اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثُر شاكوه» ؛ فضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً ^(٢) .

وهنا وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، فذهب إلى العزيز في مصر ، وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض ، ثم خرج الإثنان — العادل والعزيز — من مصر في يونية سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) قاصدين دمشق «فما صدّهم عن البلد صاد ولا ردّهم راد» ^(٣) .

ولم تلبث أن سقطت دمشق في أيديها في أوائل يوليه ، وعندئذ حل العادل محل الأفضل في حكم دمشق وأواسط الشام ، في حين أخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت له مصر وبيت المقدس ؛ على أن يذكر اسمه في الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران شرقى بصرى، ليقيم فيها فسيا منسيا ^(٤) .

(١) ابن الأثير : *الكامل حواري* م ٥٩١ .

(٢) المقريزى : *السلوك* ج ١ ص ١٢٩ . سنة ٥٩٢ هـ .

(٣) ابن واصل : *مفرج الكروب* ج ٣ ص ٦١ (مطبوع) .

(٤) أبو الحasan : *النجوم* ج ٦ ص ١١٦ .

مصر في عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات (١١٩٣ - ١١٩٨ م = ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين . وفي ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن عن العزيز عثمان أنه «ولى سلطنته مصر في حياة والده صورة ، ثم تسلط بعد وفاته استقلاً للا ، باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر»^(١) .

ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بني أيوب يولد بمصر ويقول حكمها . وقد أشارت المراجع باستقامة العزيز عثمان واستقامة حكمه وعدله في الرعية ، حتى وصفه ابن خلسان بأنه «كان ملساً مباركاً كثيير الخير واسع السكرم محسناً إلى الناس» .

وعلى الرغم من أن مصر ظلت في ذلك العهد — كما كانت في أيام صلاح الدين — قلب الدولة الأيوبية ، إلا أن أحواها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل سنة ١١٩٤ م (٥٩٢ هـ) وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء ، فهلكت المواشي ، وكثير الزحام في الأسواق على الخبز لقلته وكثرت الطرحى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائة نفس ، وبقي بمصر من لم يوجد من يكفيه وأكثرهم يموت جوعاً .^(٢) ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الأفضل في ذلك الدور بالذات لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الصادفة التي أثرت تأثيراً خطيراً في أحوال البلاد .

(١) أبو المحاسن : التلجراف ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) المقريزى : السلوكي ج ١ ص ١٣٠ .

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

وإذا كانت الظروف التي ألمت بالبيت الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين قد ساعدت على إبراز أهمية العادل بوصفه كبير الأيوبيين وزعيمهم ، فإن هذه المكانة كانت تلقى مسؤولية كبيرة على كاهل العادل، فيما يختص بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أي عدوان من جانب الصليبيين . وفعلاً نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبي على خير وجه ، فعندما وفد بعض الصليبيين الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧م (٥٩٣هـ) وهاجوا المسلمين — وبخاصة قرب الساحل — أسرع العادل إلى جمع القوى الإسلامية، وأنزل الهزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة، ثم أسرع بالاستيلاء على يافا في سبتمبر سنة ١١٩٧م (٥٩٣هـ). وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت في أكتوبر، ثم فكروا في الزحف على بيت المقدس ، ولكن العادل طلب معونته العزيز عثمان من مصر، فحضر إليه في أوائل سنة ١١٩٨م (٥٩٤هـ)، وتمكن المسلمون من الصمود في وجه الصليبيين الذين انصر فواشلين^(٢).

ولم يكُن يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين في أوائل يوليه سنة ١١٩٨م (٥٩٤هـ) حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زمام العادل . ذلك أن العزيز عثمان سلطان مصر توفي في أواخر نوفمبر سنة ١١٩٨م (٥٩٥هـ) وكان ابنه الأكابر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — في العاشرة من عمره، فأرسل نفر الدين جهاركس — صاحب النفوذ في مصر — إلى العادل يستدعيه لحكم البلاد . ولكن الملك الأسدية والصلاحية في مصر خشوا بأس العادل ، فأستدعوا الملك الأفضل

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥.

(٢) أبو شامة : المختصر في تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤هـ .

من حوران وسلمه مقاليد الأمور في مصر في يناير ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وكان العادل عندئذ يحاصر ماردین في ديار بكر؛ فاتفق الملك الأفضل في مصر مع الملك الظاهر صاحب حلب للقضاء على سيادة عمها الملك العادل وأخذ دمشق منه^(١).

وعندما علم العادل بمقامه أبناء أخيه ضدّه، عاد مسرعاً إلى دمشق، فوصلها في ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وأخذ يهدى المدينة بسرعة للدفاع. ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصري والظاهر على رأس العسكر الحلبي، وحاصرَا المدينة طوال سنة أشهر، ولكن دون أن ينفوا ما بهجوم عام جاد. على أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء الأفضل والظاهر إلى تركهما والانضمام إلى العادل، في الوقت الذي استغل العادل سوء تدبير الأخرين وأخذ يزدر بذور الخلاف بينهما، حتى انتهى الأمر في أوّل دسمبر سنة ١١٩٩ م (٥٩٦ هـ) بعودته الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب^(٢). وهنا لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود إلى القاهرة وإنما تبعه إلى مصر، وأنزل به المزعمة قرب بلبيس. ولم يلبث أن استسلم الأفضل وطلب أن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه المتواضع في حوران، على أن تسكون مصر للعادل (فبراير ١٢٠٠ م = ٥٩٦ هـ)^(٣).

على أن الظاهر والأفضل لم يلبشا أن اتفقا في العام التالي مرة أخرى، وزحفا على دمشق ليحاصرها من جديد، وعندئذ أسرع العادل من مصر لينذر بذور الخلاف بين الأخرين، فعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة

(١) ابن الأثير: *التكامل حوادث سنة ٥٩٥ هـ*؛ أبو المحاسن، النجوم ج ٦ ص ١٤٧.

(٢) أبو شامة: *كتاب الروضتين* ج ٢ ص ٢٣٦.

(٣) ابن الأثير: *التكامل حوادث سنة ٥٩٦ هـ*.

عه . أما الأفضل فقد اختار عمه العادل أ . يعقوب ، فلم يعطيه تلك المرة
سوى سهلاً (١) .

وهكذا صار العادل « سلطان البلاد جميعها » وبيده ملك مصر وبيت
المقدس ودمشق ، فضلاً عن أملاكه في الجزيرة . وإذا كان العادل قد نجح في
توحيد الدولة الأيوية من جديد ، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته ،
واستعان في ذلك التنظيم بآباءه ، فأباب أبنته الكامل محمد في حكم مصر ، وجعل
المعظم عيسى في دمشق ، وأعطى الأشرف موسى حران ، والأوحد ميافارقين .
واحتفظ العادل لنفسه بالإشراف التام على جميع تلك الأجزاء وصار يتنقل
في مالك أولاده ، والعمدة في كل الملك عليه ! (٢) .

وبذلك تم توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى في وجه الصليبيين ،
وقام على رأس هذه الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره ؛ هو السلطان
العادل أبو صلاح الدين .

السلطان العادل والصلبيون :

نظر الصليبيون والغرب الأوروبي إلى جهود العادل الأيوبي في توحيد
الجبهة الإسلامية بعين القلق ، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة
الكبرى التي اعتمدت عليها الأيوبيون في نشاطهم الداخلي والخارجي لذلك
ظهرت الدعوة في الغرب الأوروبي في أوائل القرن الثالث عشر لارسال
حملة كبيرة ضد مصر ، وهي الحملة التي عرفت في تاريخ الغرب الصليبية
باسم الحملة الرابعة ، والتي انحرفت إلى القسطنطينية ولم تصل إلى مصر أو الشام .

(١) المقرئي : السلوك ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ (ج ١ ص ١٥٩) .

(٢) أبو الحasan : النجوم الراهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .

وفي تلك الأثناء ظل الملك عموري الثاني لوزجان حريصاً على عدم خرق الصلح الذي عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، فعمل دائماً على عدم استفزاز العادل حتى تأتي الجملة الصليبية المنتظرة إلى الشرق . من ذلك أن ثلثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا في نهاية سنة ١٢٠٢ م (٥٩٩ هـ) إلى عكا، وطلبوا من الملك عموري الثاني البدء فوراً بالزحف ضد المسلمين ، ولكن عموري رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفي ، وأنه من الأفضل عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تتحقق لهم النجاح في حروفهم ضد المسلمين^(١) .

على أنه ليس معنى حرص عموري الثاني على احترام الصلح مع المسلمين أنه ارتضى العدوان على الصليبيين ، إذ الواقع أن سياسته اتجهت إلى عدم المبادرة بالعدوان مع التأهب دائماً للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم . من ذلك أن أميراً مسلماً امتلك قلعة في إقليم صيدا وأدأب على تسليح بعض السفن ل القيام باغارات عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم . ولم تفلح الشكاوى التي بعث بها عموري إلى الملك العادل لوقف نشاط ذلك الأمير ، وعندئذ عزم عموري على رد العدوان بالمثل ، فتربيص أسطوله لقاقة من السفن الإسلامية – تبلغ عشرين سفينه – قادمة من مصر إلى موانئ الشام ، واستولى على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستمائة ألف دينار ، ورجال بلغوا المائتين .^(٢) وبعد ذلك شرع عموري في القيام باغارة على إقليم الجليل : فأوغل الصليبيون حتى كفر كشنا – على الطريق بين عكا وطبرية – واعتدوا على أرواح المسلمين وأملاكهم^(٣) . ولتكن العادل خرج إليهم ، فأوقف

Stevenson: The Crusaders in the East, p. 296. (١)

Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 180. (٢)

(٣) ابن الأثير: السكمال حوادث سنة ٦٠٠ هـ.

الصلبيون زحفهم واختاروا أن يترىوا حتى تصل الحملة الصليبية المزعومة، ولم تثبت أثر جامت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية واتجاهها إلى القسطنطينية ، مما ساعد على إبرام الصلح بين الصليبيين والمسلمين في سبتمبر سنة ١٢٠٤ م (٥٦٠) .

وهنا نلاحظ على العادل أنه كان متسلحاً إلى أقصى حدود التسامح، وأنه حرص دائماً على عدم العداون ، بل كان يعمد أحياناً إلى السكوت عن عدو ان الصليبيين رغبة منه في عدم إشعال نار العداوة بينهم وبين المسلمين. ذلك أن الصليبيين - وبخاصة الاشتبارية في حصن الأكراد - دأبوا منذ سنة ١٢٠٦ م (٥٦٠٣) على الإغارة على مدينة حمص ، في الوقت الذي استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٥٦٠٤) على عدة سفن «من أسطول مصر»^(١) . ومع ذلك كله فقد اكتفى العادل بانذار ملك الصليبيين ، وفتح برد أسري المسلمين . ومن الواضح أن سياسة العادل وتسليمه كانت لا تتفق بأي حال وروح العصر وحشاشة المسلمين ، الأمر الذي جعل المسلمين يعتقدون الاجتماعات في جامع دمشق ، حتى أن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى العادل وقالت له «اجعله قيداً لفرسك في سبيل الله»^(٢) .

وإذا كان هذا الشعور قد دفع العادل إلى القيام ببعض الأعمال الحربية ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧ م (٥٦٠٤) في منطقة طرابلس ، فإنه لم يلبث أن اصطلح معهم بعد قليل.

(١) ابن الأثير : *التكامل* ٤، سنة ٤٠٤، ٦٠٣. سعيد عاشور: *قبرن والمحروب الصليبية* ص ٣٩.

(٢) *ذيل الروضتين*. (Rec. Hist. Cr., Tome 4, pp. 156-158).

الفصل الخامس

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

تطالع الصليبيين إلى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام أهمية مصر لهم ولشاريعهم في الشرق الأدنى، فأخذوا يتطلعون إليها منذ أواخر القرن الحادى عشر للهيلاد (الخامس المجرى)، وقام جوهر فری دی بوایون بمحاولته الأولى الاستكشافية في أرض مصر سنة ١٠٩١ م (٤٩٣ هـ) ثم أعقبه أخوه بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — فغزوا مصر فعلاً سنة ١١١٦ م (٥٥٩ هـ).

وقد سبق أن أشرنا إلى التناقض بين شاور وضرغام في أواخر الدولة الفاطمية، وكيف أدى ذلك التناقض إلى تدخل الصليبيين في شئون مصر وقيام ملوكهم عموري الأول بحملات أربع على مصر، (١١٦١ - ١١٦٩ م = ٥٥٩ - ٥٦٤ هـ). وإذا كان الصليبيون قد فشلوا فيأخذ مصر، فإن فشلهم كان حافزاً لهم على الإحساس بمدى الخطير الذي يتهدّم بهم بعد أن غدرًا نور الدين — ومن بعده صلاح الدين — يسيطران على الشام ومصر جميعاً ويحصران الممتلكات الصليبية بين فكِّ الكلاشة الإسلامية.

ولا يخفى علينا كذلك أن مصر كانت المركز الذي استمد منه صلاح الدين قوته وموارده، والتي اعتمد عليها في جهوده الحربية التي انتهت بالإطاحة بالصليبيين في موقعة حطين، ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنهم ومعاقفهم في بلاد الشام. لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوروبي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى، هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطر وا على مصر أولاً.

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٥٦٠ هـ) ضد مصر بالذات ، ولكن مطامع البندقية وجيوش الحملة ضد القسطنطينية حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية وأقاموا امبراطورية لاتينية. وإزاء هذا الفشل الذي منيت به الحملة الصليبية الرابعة ، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونزيلوس الثالث بالدعوة لحملة جديدة ، هي الحملة الصليبية الخامسة .

حنادي برین ومهاجمة مصر :

وسرعان ما أخذت جموع الصليبيين تفند من الغرب إلى بلاد الشام تلبية الدعوة البابوية ، في الوقت الذي آمن حنادي برین ملك مملكة بيت المقدس في عكا ب فكرة مهاجمة مصر . وكانت فكرة حنادي برین تستهدف غزو مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط ، وأيده في هذه الفكرة جمهرة الصليبيين ببلاد الشام ، وعلى رأسهم الداوية والاسبناري ، فضلاً عن الصليبيين في قبرس (١) .

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين في بلاد الشام ، ترك الملك حنادي برین حامية قوية في عكا للدفاع عنها ضد أي هجوم إسلامي متظر ، ثم خرج الأسطول الصليبي قاصداً دمياط في أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) . ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم السكعنة (٢) .

على أنه يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطئاً كبيراً سنة ١٢١٨ م

Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191-192. (١)

Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie, pp. 256-266. (٢)

(٦١٥) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل . وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون عندئذ من تجرب عموري الأول التي أثبتت أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية . ولكن ربما كان عذر حنادي برين هو أن عموري كانت له قاعدة حرية كبيرة في جنوب فلسطين — هي مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها في غزو مصر عن طريق الشرق ، أما حنادي برين فلم يجد للصلبيين أية قاعدة على الحدود يسكنهم الارتكاز عليها في حماولتهم . وهكذا اختار الصليبيون النزول بد Miyat لا لأن Miyat أقرب الموانى المصرية للصلبيين بالشام فحسب ، بل لأن فرع Miyat يمثل أيضاً طريقاً طيباً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط الصليبيين بقواعدهم في الشام . ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له في غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تمثل في السدود والترع والقنوات مما يجعل وصولهم إلى القاهرة عن هذا الطريق أمراً متعدراً بل مستحيلاً^(١) .

وعندما وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع Miyat ، نصب الصليبيون معسكراً لهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة Miyat . وقد وجد الصليبيون المدينة تحصيناً قوياً . إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل عند مصبه آصر ، وهي سلاسل ضخمة من الحجر تتحول دون دخول المراكب العادية من البحر إلى النيل^(٢) . هذا بالإضافة إلى برج الساسلة ، وهو بمنارة حصن بناء المسلمين وسط مجرى النهر لحماية Miyat ودفع أي عدو ان يقع عليها^(٣) . ولما علم الملك الكامل — الذي كان ينوب عن أبيه السلطان العادل في حكم مصر — بنزول الصليبيين في مواجهة Miyat ، أسرع على رأس جنده ونصب معسكراً جنوب Miyat عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال

King : The Knights Hospitallers in the Holly Land, p. 190. (١)

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٨٨ سنة ٦١٥ هـ.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوارث سنة ٦١٤ هـ.

بالمدينه من ناحية وينع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى . هذا في الوقت الذى استدعى السلطان العادل ابنه الملك الأشرف فسوار فى عسكره إلى حص ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط ^(١) .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون عظم الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية القائمه عليها دمياط ذاتها ، مما أثار أمامهم مشكلة صعبه هي كيفية عبور النيل . هذا بالإضافة إلى أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت عقب نزولهم على شاطئ مصر ، مما أعطى المسلمين فرصة طيبة للاستعداد .

وهكذا قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجرون برج السلسلة ، حتى تمسكواأخيراً — في أغسطس ١٢١٨ م (٥٦١٥) — من الاستيلاء على البرج ، وقطع المآصر التي كانت تتعرض مدخل النهر ^(٢) . ولاشك في أن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين وتحطيم تلك المآصر التي تحمى مدخل النيل جاء خسارة كبيرة ، إذ اعتبر المعاصرون ذلك البرج « قفل الديار المصرية » ^(٣) .

ويقال إن السلطان العادل عندما سمع بذلك الخبر لم يتحمله فرض مرض الموت ، ولم يلبث أن توفي في نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٥٦١٥) .

أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء العادل في مصر والشام أن الخطر الذي يهددهم ويهدد

(١) ابن العديم : زبدة الخلب في تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٣٩ « مخطوط » .

(٢) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 161).

المسلمين عظيماً ، وأنه لو ثبت الصليبيون قدمهم في مصر ، فلن يبقى المسلمين مقام في مصر والشام ، لذلك بذلوا كل ما في وسعهم لطرد الصليبيين من مصر من ناحية ، وللضغط عليهم في الشام لإجبارهم على سحب قواتهم من الشام من ناحية أخرى .

ولكي يسد السكامل جرى النيل في وجه الصليبيين ، حاول إقامة جسر عظيم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا جري ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر السكامل عدة مركبات كبيرة وأغرقوها في النيل ليغوص تقدم السفن الصليبية في النهر ^(١) . وفي تلك المرة أيضاً تحايل الصليبيون على تفادي تلك العقبة ، فقرر واخليجا هناك كان النيل يجري فيه قدماً ، وأجرروا فيه الماء إلى البحر ، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل في النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان العادل ^(٢) .

ولم تكدر أخبار هذه الانتصارات التي أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام ، حتى تشجع إخوانهم وهاجروا بعض المراكب الإسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين وأزلقوا بهم خسائر جسيمة ، كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتصر قياساريه وهدمها ، في الوقت الذي أغاد الأبن الثالث للسلطان العادل – وهو الأشرف موسى – على إمارة طرابلس ^(٣) . ومع ذلك فإنه يبدو أن المعظم كان متذوقاً من نتيجة الحرب مع الصليبيين في مصر ، فهدم سنة ١٢١٩ م (٥٦٦) عدة حصون قوية في الشام حتى لا يستفيد الصليبيون منها إذا استولوا عليها ، بل أنه هدم أبراج مدینته بيتم المقدس وأسوارها حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية

(١) ابن الأثير : *الكامل* حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٢) المقريزي : *السلوك* ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) *ذيل الروضتين* (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 166).

فائدة ، الأمر الذي أثار موجة من الذعر والأسى بين صفوف المسلمين في المدينة^(١) .

سقوط دمياط :

وعلى الرغم من أن الموقف في تلك المرحلة كان يدل على تفوق الصليبيين ، إلا أن حنادي برين بدأ يواجه مشاكل عديدة في مصر عقب استيلانه على برج السلسلة . ذلك أن كثيراً من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي فانسحبوا عائدين إلى بلادهم . وهكذا صار على حنادي برين أن يتذكر وصول إمدادات جديدة ، وهي الإمدادات التي وصلت من أوربا فعلاً في سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) . على أنه يلاحظ أنه جاء على رأس هذه الإمدادات مندوب عن البابا هو السكاردينا نال بلا جيوس الذي تزعم الجملة . ولا شك أن ظهور زعيم جديد للصليبيين في مصر أضاعف مركز حنادي برين ، فضلاً على أن ذلك الإزدواج في القيادة أُنزل أبلغ الضرب بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها ، كما سيلى فيما بعد^(٢) .

أما عن الجبهة الإسلامية ، فيلاحظ أن العادل توفي في نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وترك لابنه ترکه ثقيلة ، إذا كان على ابنه السكامل – الذي خلف أبيه في مصر – طرد الصليبيين من الأرض المصرية ؛ كما كان على ابنه المعظم – الذي خلف العادل في دمشق – حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لإجبارهم على ترك مصر ، فضلاً عن مساعدة أخيه الكامل .

وقد حاول السكامل القيام بهجوم على معسكر الصليبيين في أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) فعبر النيل وباغتهم بالهجوم ، ولكنهم صمدوا له

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٠ .
Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211. (٢)

بل تغلبوا عليه ، وعندئذ انسحب السكامل . وأراد الصليبيون أن ينهزوا
الفرصة لعبور على ضفة دمياط واستكثروا في ذلك ^(١) . وزاد من موقف
السكامل سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى
التي نجحت عن الغزو الصليبي ، فأغاروا على القرى ونبهوا ^{هـ} وبالغوا في
الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج ^(٢) . ثم ضاعف من خطورة
الموقف أن أحد قواد السكامل — وهو ابن المشطوب — دبر مؤمرة كبرى
لعزل السكامل وإحلال أخيه الأصغر الفائز ابن العادل محله في الحكم ^(٣) .

ولم يسع السكامل أمام هذه الأخطار سوى أن يستنجد بأخيه المعظم .
و قبل أن يصل المعظم إلى مصر خشي السكامل على نفسه من المتأمرين ، فهرب
من معسكره في العادلية ليلاً ، وترتب على ذلك فرار الجندي من بعده . فلما
أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامي أمامهم خاويًا ، فعبروا في
سهو له إلى الضفة الشرقية للنهر ^{هـ} آمنين بغير منازع ولا مانع ، وغنمو كل ماف
معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة ^(٤) .

وهكذا ساء الموقف في مصر ، لو لا وصول المعظم في الوقت المناسب ؛
فأعاد الثقة إلى أخيه السكامل ، وتخلى من ابن المشطوب ، وأعاد تنظيم الجيش
الإسلامي الذي رابط عند فارسكور جنوب العادلية ، وبفضل هذه الإجراءات
المجديدة تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى قاومت فيها المحاولات
التي بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المراجع الصليبية أن
السكامل والمعظم أرسلا في طلب المعونة من جميع أنحاء العالم الإسلامي ،

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧ .

(٢) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) المقويزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) ابن الأثير : السكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

وأنهم أوضحا لبقية الحكام المسلمين خطورة استيلاء الصليبيين على مصر «فإنهم متى ماسكواها لا يمتنع عليهم شيء من الملك بعدها»^(١).

وعندما علم السكام بوصول نجادات قوية للصلبيين من قبرس وغرب أوروبا، أرسل إليهم بعرض سخى، هو استعداده لاحياء مملكة بيت المقدس القديمة وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) باستثناء حصن السكرك الذي يبقى بيد المسلمين؛ على أن يجعلوا الصليبيون عن مصر. وقد قبل هذا العرض حنادي برин وأمر أملاكه والصلبيون الفرسان بمنون. ولكن المندوب البابوي بلاجيوس رفض الموافقة عليه، وشاركه رأية الاستبارية والداوية، الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمرًا سهلاً^(٢). وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الجلة وشيعته من فرسان الداوية والاستبارية، هو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد مسكن السكام والمعظم في فارسكور، بدلاً من الأكفاء بمحصار دمياط، مما عرضهم للهزيمة والفرار. ولم تلبث أن وصلت نجادات قوية للصلبيين في سبتمبر سنة ١٢١٩ م (٦٦٦ هـ)، فشددوا هجماتهم على دمياط التي إزدادت حالتها سوءاً، فاضطررت إلى التسليم في نوفمبر سنة ١٢١٩ م (٦٦٦ هـ)^(٣).

وكان أن أتى الصليبيون كثيراً من أعمال السفك والعدوان في دمياط، كما أنهم أرادوا اتخاذ دمياط مركزاً منها دائماً لهم، «فبالغوا في عمارتها وتحصينها، أما عن المسلمين فـ كانت خسارة لهم بضمياط عظيمة، صناعف منها ظهرت خطر المغول في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، عندما استولى جنكيز خان على خوارزم وبلاد ما وراء النهر ومعظم فارس، وسقطت بخارى

(١) المقرizi : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٦ .

(٣) ابن الأثير : السكام حـ ٦١٤ ص ٧٩ .

فعلا في يده سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ھ) .^(١)

الصلبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت في صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، إلا أن الإنقسامات التي تعرض لها الصليبيون والأخطاء التي وقعوا فيها ، أزالت بهم كثيراً من الأضرار وتسربت في فشلهم النهائي . ذلك أن حنادي برин لم يستطع أن يتعاون مع المندوب البابوي بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبي عائداً إلى عكا في أواخر مارس ١٢٢٠ م (٦١٧ھ) ، تاركاً بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١ م (٦١٨ھ) في حالة وكود تام . ولم يكن ذلك إلا في أواخر يونيو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ھ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل إلى حنادي برин في عكا يرجوه العودة ومساعدة الصليبيين في فتح مصر . وكان أن خشي حنادي برин أن يتم لهم بعدم التعاون ، فحضر إلى دمياط في أوائل يوليو في الوقت الذي شرع الصليبيون فعلاً في الزحف جنو با بمحاذة السيل^(٢) .

وفي تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لإنقاذ البلاد ، فجمعوا الناس وأقاموا خطأ دفاعياً إلى قيادة طلخا ، حيث شيد الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسم المنصورة^(٣) . وفي أواخر يوليو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ھ) اجتمع الأخوة الشلاة - الكامل والمعظم والأشرف - في المنصورة ، ومعهم جيوشهم استعداداً للمعركة مع الصليبيين

D'ohsson : Hist. des Mongols, I, pp. 216-330.

(١)

Archer : The Crusades, p. 318.

(٢)

(٣) المقريزي : السلوك ح ١ ص ٢٠١ .

على أنه تنبغى الإشارة إلى أن السكامل ظل طوال تلك الأثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجلاء عن مصر مقابل أحياه مملكة بيت المقدس الصالبية . وف كل مرة يشنط الصليبيون في طلبهم ، بل أخذوا يواصلون زحفهم وسط مثاث كبير يحيط به المياه من ثلاث جهات ، هي بحيرة المانذلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً .

على أن السفن الإسلامية حرست على أن تختفي مكانها في النيل لقصد الطريق فوجه السفن الصالبية وتحول دون اتصال الصليبيين بقاعتهم أيام زحفهم^(١) . وكان أن وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشمون) من فرع دمياط ، وهي المنطقة التي تمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات ، فقطع المسلمين السدود والنهر على يمام الفيضاں ، فلم يشعر الصليبيون إلا والأرض التي هم عليها قد غرقوا بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يمسكهم من العودة عن طريقه إلى دمياط^(٢) .

فشل الصليبيين وجلاوئهم عن دمياط :

ولم يلبث أن تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم ، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان السكامل كان قد أنزل عند شارمساح — شمالي شربين — ألف فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة . وهكذا تجمد موقف الصليبيين وأحاطت بهم المياه من كل جانب ، فلا هم يستطيعون القتال في الوحل ولا هم يستطيعون العودة إلى قواعدهم ، ولم يبق لهم إلا الطلب الصلح من السلطان السكامل في أواخر أغسطس سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) . ومن الملاحظ أن موقف الصليبيين كان عندئذ جداً خطيراً، لأنه لو صبر السكامل

(١) أبو الحسن : التحريم ح ٦ ص ٢٤١ .

(٢) المقرizi : السلوك ح ١ ص ٢٠٧ ..

يومين «لأخذ برقبهم»^(١) ، ولذلك عارض المعظم والأشرف في إجابة الصليبيين إلى طلبهم . ولكن **الكامل** – الذي اشتهر بتساعته – رأى السماح للصلبيين بالخروج من مصر ، لأنّه كان يخشى وصول حملة صليبية من الغرب . على أن **الكامل** أشترط على الصليبيين أن يبعشوإليه برهان من ملوكهم ييقون لديه حتى يسلموه دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى **الكامل** عشرين من كبارهم على رؤسهم حنادي برين والمندوب البابوي بلاجيوس ، في حين أرسل إليهم **الكامل** مقابل ذلك ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه^(٢) .

وأخيرآ تم جلاء الصليبيين عن دمياط في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١ م (٥٦١٨) فدخلها الملك **الكامل** في اليوم التالي . وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا في حين عاد حنادي برين ورجاله إلى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمان سنوات (١٢٢٩ - ١٢٢١ م = ٦٣٦ - ٦١٨) .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشل بعد أن كان متظراً لها النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة إحياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل الجلاء عن دمياط ، فاضطروا في النهاية إلى الجلاء عن دمياط بلامقابل^(٣) .

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين سنة ٦١٨ هـ ، أبو الحasan : النجوم ح ٦ ص ٣٤٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن الأثير : **الكامل** حوادث سنة ٦١٤ .

الفصل السادس

السلطان الكامل والإمبراطور فردريلك الثاني

الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — تضامناً قوياً بعد وفاة أبيهم ، وإلى ذلك التضامن يرجع الفضل في التغلب على الحلة الصليبية الخامسة . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده في نهاية سنة ١٢٢٣ م وببداية ١٢٢٤ م (٦٢٠ - ٦٢١ هـ) نتيجة لاطماع معظم عيسى وجشه^(١) ذلك أن معظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه ، ولكنه بدلاً من أن يتوسع على حساب الصليبيين ، لما إلى العدوان على ممتلكات إخوه وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماه واستولى على بعض أعمالها — مثل المرة وسلية — وكانت حماه وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلچ أرسلان ، فقضى الأشرف وال الكامل لذلك ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماه « فتركها وهو حنق »^(٢) . ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين معظم من ناحية وأخوية الكامل والأشرف من ناحية أخرى .

والواقع إن الآيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد في ذلك الوقت منهم في أي وقت مضى ، نتيجة لظهور خطر جديد هدم ، هو خطر الخوارزمية . وقد ظهر ذلك الخطر الجديد نتيجة مباشرة لحركة التوسيع المغولي ، بعد أن دمر جنكر خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠ - ٦٢١ م (١٢٢١ -

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(١)

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٢١٤ .

٦١٨) . ويقال إن السلطان جلال الدين منكترت اضطر عندئذ إلى الفرار إلى الهند ، حتى إذ ما علم بعوده جنكيز خان إلى قراقورم في جوف آسيا ، رجع جلال الدين إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وأقام دولته مرة أخرى متخدًا أصفهان عاصمة له . وبدلاً من أن يعمل جلال الدين في ذلك الدور على حماية العالم الإسلامي من خطر المغول الوثنين ، قام — وهو الحاكم المسلم — بهاجمة الخليفة العباسى في العراق ، وطارد جيشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥ م (٥٦٢). وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا على مقربه من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبي ، الأمر الذى جعل الأشرف يهرب إلى دمشق طالبًا معونة أخيه المعظم (١) .

ومن الواضح أن الأشرف كان أكثر إحساساً بخطر الخوارزمية بحكم متاخمه بلاده — في الجزيرة والخليل — لهم . ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجي ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب أهل بيته ، فانتهز فرصة بجيء الأشرف إليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماء ، ثم في مهاجمة أخيهما الثالث الكامل في مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ماحدث (٢) .

على أن وجه الخطورة في النزاع الذي قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقيين المتنازعين استعنوا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك المعظم

(١) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ ، المقريزى : السلوك ١ ص ٢١٥ ، D'ohsson : Hist. des Mongols, III, pp. 5-19.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر حوادث سنة ٦٢٣ العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ .

بالخوارزمية في حين استنجد الملك الكامل بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوروبا . وهكذا لم يلبث أن حاصر السلطان جلال الدين الخوارزمي خلاط — عاصمة الأشرف — في يونيو ١٢٢٦ م (٦٢٣ هـ) كما أرسل جلال الدين إلى المعظم « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »^(١) . فاستعد الملك الكامل للزحف على الشام ، مما أندى باشتعال الحرب في العالم الإسلامي في سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٩٣٤ هـ) .

الملوك وفردريك الثاني :

عندما وجد السلطان الكامل نفسه في حاجة إلى معونة خارجية لمواجهة أطماع أخيه المعظم وحلفائه من الخوارزمية ، أرسل مبعوثاً خاصاً — هو شيخ الشيوخ الأمير نصر الدين يوسف — إلى الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، يدعوه أن يحضر لمساعدته في الشام ، وتعهد له مقابل ذلك أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »^(٢) . وسرعان ماوصل رسول الملك الكامل إلى الإمبراطور فردريك الثاني بصفلية ، فأحسن الإمبراطور استقبال الرسول ، ورد على السلطان بسفارة مائة تحمل « هدية سنوية وتحف عربية » فلتقي الملك الكامل بدوره هدية الإمبراطور بالسرور البالغ « وأكرمه إكراماً زائداً ، كأهتم بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور . وفي طريق عودة السفارة الإمبراطورية إلى الغرب مرت بدمشق لطلب من المعظم تسليم بيت المقدس الإمبراطور ولكن المعظم أسامي استقبال رسول الإمبراطور ، وأغاظط له ، وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، وما له عندى سوى السيف »^(٣) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١—٢٢٢ .

(٢) العينى : عقد الجماعة حوادث سنة ٩٣٤ هـ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١—٢٢٣ .

(٣) العينى : عقد الجماعة حوادث سنة ٩٣٤ هـ .

والواقع إن استنجاد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذي حرك فردريلك الثاني للذهاب إلى الشام ، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصلاح الوضع الذي نجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة . والمعروف أن ذلك العصر يعرف في التاريخ الأوروبي باسم عصر البابوية والإمبراطورية ، نظراً لما احتمد من خلاف ومانشب من حروب بين المسلمين والدينية والعلمانية في غرب أوروبا . ويبدو أن الإمبراطور فردريلك الثاني كان متذملاً من تنفيذ وعده الصليبي حتى لا يترك البابا حرّاً طليق اليدي في العدوان على مصالح الإمبراطورية أثناء غيابه . ولذلك أخذ فردريلك الثاني يماطل البابوية ويوجّل مشروعه الصليبي ، حتى أصدر البابا جريجوري التاسع قرار الحرمان ضد الإمبراطور في أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) .^{١١}

وكان هجوم البابوية على فردريلك الثاني عنينا في تلك المرة فلم يتحمل الإمبراطور الهجوم وقرر القيام بحملته الصليبية ، فغادر الغرب في يونيو ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) قاصداً بلاد الشام . ويجمع جميع المؤرخين على أن هذه الحملة الصليبية المعروفة باسم السادسة كانت آخر حملة في تاريخ الحروب الصليبية قاطبة . فإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قد حظيت بغضف البابوية وتمنتت ببركتها فإن حملة فردريلك الثاني جامت ملعونة من البابا وعلى رأسها إمبراطور محروم من الكنيسة وعطفهم . وإذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتحمّل الآلاف من المقاتلين والكثير من السلاح لقتال المسلمين في الشرق ، فإن فردريلك حضر إلى الشام وليس معه سوى خمسين فارس . وأخيراً فإنه إذا كانت الحملات الصليبية قد خرجت من غرب أوروبا وهي تطفح بروح العداء ضد

المسلمين والكراهية الشديدة لهم ، فإن حملة فردريلك الثاني على رأسها إمبراطور نشأ في بيته كانت مركزاً لحضارة إسلامية زاهرة ؛ فشب ذلك الإمبراطور في جزيرة صقلية محباً للمسلمين وحضارتهم مما جعل حملته تمتاز بمسحة فريدة من التسامح القوى الواضح^(١) .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريلك الثاني أتى إلى الشام ليفارض لا ليحارب ، حتى عانق أحد المؤرخين على ذلك بأن فردريلك بدا عندما غادر أوروبا وكأنه يزمع القيام بنزهة جليلة يزور فيها سلطان مصر^(٢) . ولم يكن في سياسة فردريلك هذه شيء غريب بالنسبة له ، لأنّه اعتمد على وعود السلطان الكامل ، وهي الوعود التي نصت على تسليم الإمبراطور بيت المقدس مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم »^(٣) .

وهذا نلاحظ أن فردريلك الثاني لم يتمدد على وعد الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرته الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبي بالشام ، بقصد إعداد الجيو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التي أوردها القلقشندي ، وهي عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد – أحد أمراءبني أيوب بالشام – إلى الإمبراطور فردريلك الثاني ، ردّاً على رسالته كان فردريلك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبي . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبي ، والتي يقول فيها « وأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى ... من أنه لا فرق بين المملكتين^(٤) ، فهذا هو المتفق في صدق عهده وخالص

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الإمبراطور فردريلك الثاني والشرق العربي ، بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(٣) المقرizi : السلوك ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٤) كانت كنية السلطان الكامل هي « الملك الكامل ناصر الدين أبو المعال محمد »

وده . . .^(١) ونخرج من هذه الرسالة باتجاهين هامتين : أولاً أن مراسلات فردريلك الثاني قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده ، وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بني أيوب . والثانية هي أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والأخاء حتى أن الكامل أرسل إلى فردريلك يخبره بعدم وجود فرق بين المماليكتين .

فردريلك الثاني في الشام :

على أن فردريلك الثاني لم يكُن يصل إلى عكا في سبتمبر سنة ١٢٢٨ م (٥٦٢٥) حتى وجد الموقف في بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة في تاريخ البابوية والخزوب الصليبية — أخذ يرسل الرسل سرا إلى ملوك بني أيوب بوجه عام — والسلطان الكامل بوجه خاص — محظيا إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للأمبراطور . ولا عجب في ذلك الموقف الذي اتخذه البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية في الغرب ألم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصلبيين في الشام^(٢) .

ثم إنه إذا كان فردريلك الثاني قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل آماله في وعود السلطان الكامل بتسليم بيت المقدس له ، فإن هذا الأمل انهار فجأة فتغير سياسة الكامل . ذلك أن معظم صاحب دمشق — الذي كانت أطهاعه هي السبب في استنجاد الكامل بفردريلك — كان قد توفي في أوائل سنة ١٢٢٧ م (٥٦٢٤) تاركا ابنه الناصر داود ليخلفه . وكان الناصر داود هذا شاباً صغيراً في العشرين من عمره ، عديم الخبرة محبًا للهوى ، مما مكن

(١) القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيه المعمتم ، وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانية^(١) . وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبي على ذلك ، فإن السلطان الكامل لم يعد في حاجة إلى معاونة الإمبراطور فردريلك .

ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل في ذلك الوقت ، لأن فردريلك الثاني لم يحضر إلى الشام إلا بناءً على طلب السلطان . وفي ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحيير الملك الكامل ولم يكن له دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه^(٢) ». ويدو أن الكامل أحسن بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة للبيت الأيوبي أن يصطدم بالصلبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرض الوطن العربي في الشرق الأدنى لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر في ملاطفته للإمبراطور . ولم ينس الكامل في الوقت نفسه أن أي تساهل مع الصليبيين أو تفريط في حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام في البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التي كانت أكثر إحساساً بخطر الصليبيين من غيرها^(٣) .

ومهما يكن من أمر فإن موقف فردريلك الثاني ساء في الشرق ، ولم ينس أنه خرج من بلاده بحر وما من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعود الكامل له باعطائه بيت المقدس ، لإصلاح مركزه في الغرب الأوروبي . ولو كان الإمبراطور يعلم أن الكامل سينشكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلاً ، أو لسكن استعداداً متعدداً جدياً لحرب المسلمين وجلب جيشاً كبيراً معه عند خروجه إلى الشرق .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ ، ابن الأثير : حداث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكرم ج ٢ ورقة ٢٥٢ « مخطوط » ، المقريزى : السلوك

ج ١ ص ٢٢٩ .

Grousset : op. cit., III, p. 300.

(٣)

وهكذا لم يبق أمام فردريلك الثاني سوى سلاح واحد ، هو سلاح المفاوضة والإستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوروبي مرفوع الرأس . لذاك أمرع فردريلك الثاني إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية ، وأواني ذهبية وفضية ، مطالبا إياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن السلطان الكامل تذكر لوعده وأعلنها في صراحة أنه كان سيعطي بيت المقدس للإمبراطور ثمنا المساعدة التي ينتظرها منه ، أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد السلطان في حاجة إلى تلك المساعدة فإنه لا يستطيع التفريط في بيت المقدس^(١) . ولم تفلح جهود الأمير خفر الدين يوسف مندوب السلطان في الوصول إلى حل بين الطرفين ، فناء موقف فردريلك الثاني لا سيما بعد أن جاءته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على عائلاته . ولعل هذه الأخبار في حد ذاتها كانت كافية لدفع فردريلك الثاني إلى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكي بكاء مرا في مراحل المفاوضات^(٢) . ولا أدل على ذلك من رسالة أرسلها الإمبراطور فردريلك إلى السلطان الكامل أنساء المفاوضات يقول فيها « أنا ملكك وعترتك وليس لي عما تأمره خروج . وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا بالملك باهتامى وطوعى ، فإن رجعت خاييا انكسرت حرمتى بيهم ! وهذا القدس فهو أصل اعتقادهم وضجرهم فإن رأى السلطان أن ينعم على بقىضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرفع رأسى بين ملوك البحر »^(٣) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الإمبراطور فردريلك الثاني والشرق العربي ص ٢٠٦ .

Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 185.

(٢)

(٣) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب الواقي بالوفيات)

إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الإستعطافات أن فلحت مع السلطان الكامل - وهو الرجل المتساخ الطيب القلب - فوافق على إعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سانحة دون حرب أو قتال . ويدو أن ماقام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يafa جاء بثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى تحالف فردريك مع بقية القوى الصليبية بالشام للقيام بعمل حربي مشترك ضد المسلمين .

وقد فسر المقريزى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غالاته عجزاً عن مقاومته ^(١) ». ولا شك في أن المغامرة في حرب ضد الصليبيين كانت تعنى بالنسبة لل الكامل عندئذ وقوعه بين ثلاثة أعداء ، هم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية ، والصلبيين من ناحية ثانية ، ثم الخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة .

وفي ضوء هذه الحقائق جياعاً وافق الكامل - تحت تأثير الأمير نفر الدين بوسف - على عقد اتفاقية يafa مع الإمبراطور فردريك الثاني في فبراير سنة ١٢٢٩م (٥٦٢٦) . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس ويبيت لهم والناصر وتبنيان وصيدا . وبخصوص ، بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ما هي عليه ، فلا يحدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين ، وتقام فيه شعائر الإسلام ^(٢) .

على أن تسليم بيت المقدس للصلبيين بذلك السهولة أثار موجة عامة من

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٤٠ .

(٢) العينى : عقد الجمان حرب ذات سنة ١٢٢٦ .

السخط والأسى في العالم الإسلامي «فاستعظم المسلمون ذلك وآکروه، ووجدوا له من الوهن والنأم مالم يمكن وصفه»^(١) . كذلك يفصل المقريزي مدى الآسى الذي حل بال المسلمين لنفيط السكامـل في بيت المقدس فيقول . «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل . . . وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك السكامـل وكثـرت الشناعات عليه في سائر الأقطار»^(٢) .

وسرعـان ما أحـسـ السـكامـلـ أنه «تورـطـ معـ مـلكـ الفـرجـ» على قول المقـريـزـيـ،ـ حـاـولـ أنـ يـهـونـ منـ أمرـ تـسـلـيمـ بـيـتـ المـقـدـسـ لـالـصـلـيـبيـينـ،ـ وـبـرـمـسـلـكـهـ بأـعـذـارـ لمـ يـقـبـلـهاـ مـاـصـرـ وـهـ .ـ بـلـ أـنـ الـإـمـرـاطـرـ فـرـديـلـ الثـانـيـ نـفـسـهـ أـحـسـ بـهـ سـيـيـةـ ذـلـكـ الإـتـفـاقـيـةـ منـ خـرـجـ لـلـسـلـطـانـ «فـاعـتـذـرـ الـأـمـيرـ خـفـرـ الدـيـنـ بـأـنـهـ لـوـ لـيـخـافـ اـنـسـكـسـارـ جـاهـهـ مـاـكـفـ السـلـطـانـ شـيـيـاـ مـنـ ذـلـكـ»^(٣) .

وهـكـذـاـ اـسـتـولـيـ الصـلـيـبيـونـ عـلـىـ بـيـتـ المـقـدـسـ بـسـهـولـةـ تـامـةـ ،ـ وـهـيـ الـمـدـيـنـةـ الـتـىـ أـجـهـدـ حـسـلـاحـ الـدـيـنـ نـفـسـهـ فـيـ فـتـحـهـ ،ـ وـدـخـلـهـ فـرـديـلـ الثـانـيـ فـيـ ١٩ـ مـارـسـ سـنـةـ ١٢٢٩ـ مـ (٦٢٧ـ هـ)ـ لـيـتـوـجـ نـفـسـهـ اـمـبـرـاطـرـوـرـاـ فـيـ كـنـيـسـةـ الـقـيـامـةـ ،ـ ثـمـ عـادـ إـلـىـ عـكـاـ ،ـ وـمـنـهـ اـنـصـرـ فـبـعـدـ قـلـيلـ إـلـىـ غـرـبـ أـورـباـ^(٤) .

جـمـودـ الـأـيـوـيـيـنـ تـجـاهـ الصـلـيـبيـيـنـ بـالـشـامـ :

مـنـ الصـلـيـبيـيـوـنـ عـقـبـ عـوـدـةـ الـإـمـرـاطـرـ فـرـديـلـ الثـانـيـ إـلـىـ غـرـبـ أـورـباـ بـدـورـ طـوـيـلـ مـنـ أـدـوارـ الـضـعـفـ وـالـإـنـخـلـالـ ،ـ بـسـبـبـ مـاـنـشـاـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ بـعـضـ هـنـ خـلـافـاتـ وـمـنـازـعـاتـ .ـ وـلـاـ أـدـلـ عـلـىـ ضـعـفـ الـأـيـوـيـيـنـ أـيـضاـ فـيـ تـلـكـ الـفـتـرةـ

(١) ابن الأثير : السـكامـلـ سنة ٦٢٦ هـ

(٢) المقـريـزـيـ : السـلـوكـ جـ ١ـ مـ ٢٣١ـ هـ

(٣) المرسـجـ السـابـقـ مـ ٢٣٠ـ هـ

(٤) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 314.

— أى في الربع الثاني من القرن الثالث عشر — من جمودهم أمام الصليبيين وعدم حماولتهم استغلال الظروف السيئة التي تعرض لها الصليبيون عندئذ. وكان المفروض أن يحاول المسلمون استعادة بيت المقدس من الصليبيين ، لاسيما وأن هذه المدينة بقيت غير ممحونة ومدمرة الأسوار دون جيش قوى للصلبيين فيها^(١).

وربما كان السبب في حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام في تلك الفترة ، هو تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكيرن . ذلك أن الخوارزمية لم يكنوا انتهيد الحلافة العباسية في بغداد ، بل دأبوا على محاكاة المغول في تدميرهم البلاد التي يحتلونها أو يسلكونها ، حتى لو كانت هذه البلاد إسلامية . ولم يكن الساكن والأشرف ببالفين فمخاوفهما من الخوارزمية ، إذ نجح جلال الدين في الاستيلاء على خلاط في أبريل سنة ١٢٣٠ م (٥٦٢ هـ) بعد حصار ستة أشهر ، وعندئذ دخل الخوارزمية المدينة ليعدوا على الأهالي اعتداءً وحشياً . وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبي نفسه ، فانتهك السلطان جلال الدين عرضها في الليلة نفسها التي استولى فيها على المدينة^(٢) .

وقد أفرعت هجمية الخوارزمية حكام المسلمين في البلدان المجاورة ، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر ، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علام الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمي . وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زمام الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباد في سيواس ، ومنها زحف الحلفاء على خلاط . وفي المعركة التي دارت بين الفريقيين قربه

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٢٧

(٢) أبو الندا : المختصر في تاريخ البشر حوارث سنة ٦٢٨ هـ

أرزنجان في أغسطس سنة ١٢٣٠ م (٥٦٢٧) حلت المغيرة ساحقة بالخوارزمية، وفر سلطانهم إلى أذربيجان بعد أن قتل كثير من رجاله^(١).

وبذلك استرد الأشرف خلاط، وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين. ولم يلبث أن قتل جلال الدين بيد بعض الأكراد سنة ١٢٣١ م (٥٦٢٩) وعندئذ تمزقت دولته، وهامت جموع الخوارزمية في كثير من بلاد الشرق. الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب في شرائها من حكام المسلمين^(٢).

ومع ذلك، فإن الأيوبيين في مصر والشام ظلوا لا يأمنون على أنفسهم أو بلادهم، لأن الخطر الذي هددتهم عندئذ لم يكن خطر الخوارزمية فحسب، وإنما كان من وراء هؤلاء المغول بمحاباتهم وعنهما. ولم يلبث المغول أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت الخطوة التالية أمامهم هي غزو العراق وممتلكات الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى^(٣).

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الأيوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول، مثلما تعاالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمي. ولكن علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ - ١٢٣٧ م = ٦١٦ - ٥٦٣٤) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران^(٤). وعندما أدرك السلطان السكامل حقيقة نوايا سلاجقة، جمع حوله القوى الأيوبية في الشام وزحف لمنازلة سلاجقة في الأناضول سنة ١٢٣٤ م (٥٦٣١). على أن ملك بني

(١) أبو الحasan : النجوم ج ٦ ص ٢٧٣.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٤١.

D'ohsson : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٣)

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٧.

أيوب بالشام عادوا و خافوا عاقبة ازدياد نفوذ السلطان السَّكَامل ، و خشوا
إن هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يسهل عليه القضاء عليهم جميعاً .
لذلك تآمروا على السلطان السَّكَامل ، وأرسلوا في الخفاء إلى علام الدين
سلطان سلاجقة الروم يخبرونه بوقوفهم إلى جانبه ضد السَّكَامل . وهكذا!
انتهى الموقف بعودته السَّكَامل من حيث أتى ، في حين احتل سلاجقة حران
والرها سنة ١٢٣٥ م (٦٣٢ هـ) ^(١) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

الفصل السابع

الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

نهاية السلطان السكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقف الانقسام في صفوف المسلمين في الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلاد (السابع الهجري) على محدث من عداء بين سلاجقة الروم والأيوبيين؛ بل إن البيت الأيوبي نفسه لم يثبت أن انقسام على نفسه، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان السكامل صاحب مصر، وبدأ يدبر ثورة شاملة ضده مستعيناً في ذلك بأسد الدين شير كوه صاحب حمص وضيفة خاتون الوصبة على حلب^(١). على أن الظروف شامت أن يموت الملك الأشرف في أواخر أغسطس سنة ١٢٢٧ م (٥٦٣٥) قبل أن تشتعل نار الحرب الأهلية فعلاً بين أبناء البيت الأيوبي^(٢).

وكان الأشرف قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه في ملك دمشق أخوه الملك الصالح إسماعيل صاحب بصرى. ولم يكدر الصالح يتسلّم زمام الأمور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبي ضد السكامل، فاتصل بالمجاهد شير كوه صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وضيفة خاتون في حلب ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد السكامل. وقد استجاب جميع ملوك الأيوبيين بالشام لدعوة الصالح إسماعيل، ماعدا المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الأردن والكرك. ولسكن السلطان السكامل أسرع بالحضور من

(١) المقريزي: السلوك ج ١ ص ٢٥٤.

(٢) ابن الحasan: النجوم ج ٦ ص ٣٠٠.

مصر، وقضى على تلك الحركة، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها ، حتى استولى عليها في أوائل سنة ١٢٣٨ م (٥٦٣٥) . ولم يلبث أن انتهى الأمر بعزل الصالح عن دمشق وإعطائه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع^(١) .

على أن السلطان الكامل نفسه توفي بعد قليل — في مارس سنة ١٢٣٨ م (٥٦٣٥) — وقد أجمع المؤرخون على مدحه ، فوصفه أبو الفدا بأنه كان « ملكاً جليلاً مهيناً حازماً حسن التدبر »^(٢) ، كما أشاد بقيمة المؤرخين على عدله وتسامحه وحبه للعلم وعذريته بالأمن . ولاشك في أن وفاة الكامل أثوب جاءت نذيرآً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها . حقيقة أن العادل الصغير (الثاني) ابن الكامل خلفه في ملوكه وصارت له السلطة ، أي السلطة العليا في الدولة الأيوبية ، ولكن الأوضاع في الشام نفسها اضطربت بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص في حرب ضد المظفر تقى الدين الثاني صاحب حماه ، في حين استولى الملك الصالح نجم الدين أثوب — ابن الكامل — على دمشق سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٦) ، مما أوقعه في نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير^(٣) . وفي ذلك النزاع استعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من أبناء البيت الأيوبى نفسه ، فأعتمد العادل الثاني (الصغير) على شيركوه صاحب حمص ، وأعتمد الصالح أثوب على المظفر تقى الدين صاحب حماه . هذا بالإضافة إلى أن كل فريق منهم استعان بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا في آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منشكير^(٤) .

ثم حدث في نهاية سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٧) أن استطاع الصالح اسماعيل — عم العادل الثاني والصالح أثوب — أن يسترد دمشق التي كان أخوه السلطان

(١) المقرئي : السلوك ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٥٦٣٥ .

(٣) المقرئي : السلوك حوادث سنة ٥٦٣٦ ، ٥٦٣٥ .

الكامل قد طرده منها ، وأن يطرد بدوره الصالح أيوب منها^(١) . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ - ٦٣٧ = ٥٦٤٣) ، في حين وقع الصالح أيوب في قبضة الناصر داود صاحب الأردن والذكرك ، حتى أطلق الأخير سراح الأول واتفق معه على القيام بحملة على مصر للإستيلاء عليها من السلطان العادل الثاني^(٢) . وكان كبار أمراء العادل الثاني قد استأتوا منه في ذلك الوقت لتجهيزه عنهم واستعجاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضوا عليه في نهاية مايو سنة ١٢٤٠ م (٥٦٣٧) وعزلوه ، واستدعوا بدلـه الصالح نجم الدين أيوب - ابن الكامل - الذي دخل القاهرة ليصبح سلطاناً على مصر (١٢٤٠ م - ٦٣٧ - ١٢٤٩ = ٥٦٤٧)^(٣) .

الأيوبيون والصلبيون :

وقعت بلاد الشام في حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذى اشتد بين الصالح أيوب وبين عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وشارك فى ذلك النزاع بقية أفراد البيت الأيوبي فى الشام - مثل ملوك حفص وحماد والأردن . وزاد من تلك الفوضى أنها جاءت فى الوقت الذى تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم وصول حملة صليبية جديدة من ناحية ثالثة .

ذلك أنه لم يكن ينتهى الصلح الذى عقده السلطان الكامل مع الإمبراطور فردريلك الثاني سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٦) حتى دعت البابوية لحملة صليبية جديدة وصلت إلى الشام فى أول سبتمبر سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٧) وعلى رأسها ثيبيوت الرابع . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها اتفقوا تماماً إلى أمانة السياسية

(١) أبو الفدا : المختصر حواريث سنة ٦٣٦ .

(٢) أبو الحسان : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٠ .

(٣) المقربى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

التي ميزت ريتشارد قلب الأسد وفرديريك الثاني ، فلم يحاول ثبيوت الرابع أمير شام بني استغلال المنازعات العنيفة الناشطة بين ملوك البيت الأيوبي عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت إلى فشل حملته في نهاية الامر^(١) .

وكان بيت المقدس لآخر بآيدي الصليبيين منذ أن استردها فرديريك الثاني ، ولكن الناصر داود أسرع عندما علم بنزول الصليبيين في عكا سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٧) – باحتلالها ، بدعاوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين^(٢) . وكان استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ صدمة للصليبيين الذين أخذوا يتذرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيراً على أن يتجهوا إلى عسقلان هدم تحصيناتها والاستيلاء عليها وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية في بلاد الشام^(٣) .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا إلى عسقلان ، بادر العادل الثاني – الذي كان لا يزال سلطاناً مصر قبل عزله – إلى إرسال جيش لنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة في ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩ م (٥٦٣٧) وسيق كثير من أسرابهم إلى القاهرة^(٤) .

ثم كان أن تمت في صيف سنة ١٢٤٠ م (٥٦٣٧) المؤامرة التي انتهت بعزل العادل الثاني من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدلته في السلطنة كما سبق أن أشرنا ، وعندئذ استاء الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضي حليفه الناصر داود

Grousset : op. cit., III, p. 374. (١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤ .

Stevenson : The Crusaders in the East, p. 317. (٣)

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. v, p. 139)

صاحب السكرك فوعده بمساعدته في الحصول على دمشق من الصالح إسماعيل^(١) وهكذا لم يجد الصالح إسماعيل قوة تساعدته سوى الصليبيين ، فلديه إليهم ، وطلب منهم معاونته ضد الصالح أيوب في مصر والناصر داود في الأردن . وفي مقابل ذلك كله تعهد الصالح إسماعيل بإعطاء الصليبيين بيت المقدس وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً ، بما فيها الأردن . ولكن يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين ، بادر فوراً بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان ، فضلاً عن عدد آخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي المسلمين^(٢) .

وسرعان ما ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل — مثلثاً ثار من قبل على السلطان الكامل ، حتى أن حاميات بعض القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل ، فاتى هو بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين . أما الصليبيون فقد أسرعوا إلى تسلم بيت المقدس وحصنوا قلعتي طبرية وعسقلان ، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية . وهنا وعدهم الصالح إسماعيل « بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها » ، فسأل لعاهم لذلك ، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر^(٣) .

وتؤكد المراجع التاريخية أن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق والمملوك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حصن^(٤) ، حضرا على رأس جيشهما لمعاونة الصليبيين في مهمة غزو مصر^(٥) . ولكن القوات الشامية

(١) أبو المحاسن : النجوم الراهنة ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٤) خلف المنصور إبراهيم أبوه المجاهد شيركوه الثاني في حكم حصن ١٢٤٠ ، وظل يحكمها حتى سنة ١٢٤٦ م (انظر زامبوارو : معجم الأنساب ص ١٥٣) .

(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٣ .

التابعة للصالح إسماعيل والمتصور إبراهيم لم تقبل فكرة طعن أخواهم المصريين ، فلم تكدر تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى جانب الجيش المصري ليشترك الجميع في مهاجمة الصليبيين . وهكذا حلت المزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد ضخم وسيق الأسرى إلى القاهرة ، في حين انسحب الباقيون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨هـ) ^(١) . وإذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء في بلاد الشام بعد ذلك وغادرت عكا عائدة إلى الغرب في سبتمبر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨هـ) فإن حملة أخرى جديدة وصلت إلى عكا في الشهر التالي بقيادة ريتشارد دى كورونول ، أخي ملك إنجلترا . على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة فلم تستطع القيام بعمل حربى هام في الشرق الأدنى ، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أي هجوم من جانب مصر . ^(٢) وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان في مارس سنة ١٢٤١ م (٦٣٩هـ) ، أجاب الصالح أیوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثبوت الرابع . وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الصالح أیوب للصليبيين بملكية الحصون التي أخذوها في فلسطين ، فضلاً عن بيت المقدس . ولم يلبث أن قفل ريتشارد دى كورونول راجعاً إلى بلاده في مايو سنة ١٢٤١ م (٦٣٩هـ) تاركاً خلفه الصليبيين ببلاد الشام يتخبظون في حروب أهلية طويلة بينهم وبين بعض . ^(٣)

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

ولم يلبث النزاع أن دب مرة أخرى بين الصالح أیوب في مصر وعمه الصالح إسماعيل في دمشق ، وساند الأخير الناصر داود في الأردن . وكان

Eracles, 418-420. (١)

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٩ - ١٠٤٠ .

Grousset : op. cit., III, pp. 394, 303-304. (٣)

أن جاً ملساً دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الفرنجة، وعرضوا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة، يمكّن أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الموضع الق ظلت – ولو اسماً – في حوزة المسلمين وتخت إشرافهم منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م (١) وفي ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته ضد ملك دمشق والأردن، مقابل الثمن نفسه الذي عرضه هذان الملكان على الصليبيين. وهكذا يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة – الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود – قد أقرّوا في تلك السنة ١٢٤٣ – ١٢٤٤ (٥٦٤٤) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف. ويروى المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه من بيت المقدس عندئذ، فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قناني المخر، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم... (٢)

أما الصليبيون، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر، وذلك حتى يحتفظوا بالملك كاسب التي حققوها دون عناء. على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضي طويلاً في تلك السياسة، ولم يلبيوا أن أحسوا بأنه لا بد لهم من الوقوف في صف أحد الجانبين المتنازعين ومجاهرة الطرف الآخر بالعداء. وكان أن انتصرت سياسة الداوية الخاصة بهاجة مصر، فاختار الصليبيون الوقوف في جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأنه أقرب إليهم، فضلاً عن أن التحالف معه يعني كسب الناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حفص (٣) ولم يلبث هؤلاء الملوك الأيوبيون الثلاثة أن قرروا غزو مصر بمساعدة

(١) المقريزى : السلوكي ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) العزى : عقد الجان حوادث سنة ٥٦٤١ م ، أبو العدا حوادث سنة ٥٦٤١ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 322.

الصلبيين ، فجمعوا قواتهم عند غزة ، ووعدوا الصليبيين وعدا كثيرة
لمشاركتهم في الهجوم على مصر .

أما الصالح أيوب سلطان مصر فلم يجد قوة أمامه يمكنها أن تسخذه
إسعاها سريعاً سوى الخوارزمية ، فطلب معاونهم ، الأمر الذي ترب عليه
تحول الموقف بالشام تحولاً سريعاً في صالحه^(١) . ذلك أن دعوة الصالح
أيوب لم تسدّد تصل إلى الخوارزمية حتى فرحاً بتلاك الفرصة التي أتاحت
 لهم منفذ الدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف في طريق دمشق ،
 ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين استولوا على طبرية ثم على نابلس
 ومنها قصدوا بيت المقدس^(٢) .

وكان بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ،
 ليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين
 بأمير انطاكية وطرابلس وبملك قبرس . ولكن أحداً من هؤلاء الأطراف
 لم يلب النداء ، إذ كان الصليبيون في الشام وقبرس فيشغل بشاشا كالم الخاصة
 في حين لم يحرق حلفاء الصليبيين من أمراء المسلمين – في دمشق وحمص –
 على التدخل ومنع الخوارزمية المسلمين من الاستيلاء على بيت المقدس من
 الصليبيين ، وإلا تعرضوا لنقطمة الرأى العام في العالم الإسلامي^(٣) .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس في ١١ يونيو سنة ١٢٤٤ م
(٥٦٤٢) واستولوا عليها في سهولة ، وعندئذ طلب من في المدينة من الصليبيين
 وساطة الناصر داود لتأمين خروجهم . فتوسط لهم وخرج ستة آلاف
 منهم قاصدين يافا في شهر أغسطس . على أن الخوارزمية لم يترکوهم ينصرفوا

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٢ هـ

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٦ .

Grousset : op. cit., III, p. 412. (٢)

آمنين وإنما اعتدوا عليهم في الطريق، كما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من المشاهد المسيحية في بيت المقدس.^(١) وكانت هذه آخر مرة يستولى فيها المسلمون على بيت المقدس في عصر الحروب الصليبية إذ لم يقدر لجيش مسيحي أن يدخلها بعد ذلك أبدا حتى الحرب العالمية الأولى.

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوية:

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين اتجهوا نحو غزة الإجتماع بالعسكر المصري الذي أرسله السلطان الصالح أيوب لمحافتهم (أكتوبر ١٢٤٤ م = ٦٤٢ هـ). وفي ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامي الصليبي قد اتجهت من عكا نحو غزة، ومع الجيوش الصليبية كان المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبه قوات دمشق، فضلاً عن نجدة وصلت إليهم من الناصر داود صاحب الكرك.^(٢) وفي موقعة غزة التي دارت في ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) بين الخوارزمية وجيوش الصالح أيوب من ناحية، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، حلت المعركة ساحقة بالصليبيين «ومن انضم إليهم من منافق المسلمين»، حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير.^(٣)

ولاشك في أن هذه كانت أعظم كارثة حللت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية»^(٤) وكان الخوارزمية يأملون بعد ذلك أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر؛ ولكن يبدو أنه خشي ما يتربّع على دخولهم

(١) العيني: عقد الجان حوداد سنة ٦٤٢ هـ.

(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ٢٢٣.

(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 193).

المقريزى: السلوك ج ١ ص ٣١٧.

Grousset : op. cit., III, p. 415. (٤)

مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، فلم يسمح لهم إلا بالاستقرار في الشام على حساب الصليبيين . ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت نغير على ممالك الصليبيين وضياعهم حتى وصلت إلى مشارف عكا . أما الجيش المصري ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد مرحلة غزة واتجه لعقاب صاحب الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين . وقد نجح الجيش المصري في أخذ القدس والخليل وبهيت جبريل والأغوار من الناصر داود صاحب الكرك ، وبذلك لم يبق له سوى مراكز قليلة الأهمية مثل السكرك وعجلون^(١) أو دمشق فإنها لم تستطع مقاومة الجملة التي أرسلها ضدها الصالح أيوب فاستسلمت فاكتوبر سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) وعرض الصالح اسماعيل عنها يطلب وبصرى وأعمالها^(٢) .

على أن الخوارزمية لم يلبث أن اشتد استياؤهم من الصالح أيوب لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطايا بعد أن ساعدوه في التغلب على خصوصه وفي تملك بلاد الشام ، نhab ظنهم . بل لقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها وأقطعهم الساحل « فتغيرت نياتهم وانفقوا على الخروج عن طاعة السلطان »^(٣) .

وكان أن ثار الخوارزمية بالشام واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس قائد قوات الصالح أيوب — وكانت أمه خوارزمية — وحسنوا له الانضمام إليهم في ثورتهم ضد السلطان ففعل ذلك^(٤) .

كذلك اتّمَ الناصر داود صاحب الكرك والصالح اسماعيل طريدة دمشق

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome V, p. 193)

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٥ .

الفرصة للانتقام من الصالح أيوب ، فانضموا إلى النوار ، وزحفوا جمِيعاً على دمشق وحاصروها . وهنا أظهر الصالح أيوب صبراً ومهارة ، فلما جاء إلى أعمال الخيلة والتدبر ، وبدأ باستهالة الخلبين فضلاً عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الأمير ركن الدين يمرس إلى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الإجراءات تمكَّن الصالح أيوب من إزالة المزية بالخوارزمية بين بعلبك وحمص ، فتبدَّل شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك^(١) .

وبعد القضاء على الخوارزمية ، انحجه الصالح أيوب نحو الصليبيين . فتمكَّنت جيشه في ١٧ يونيو سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) من الاستيلاء على قلعة طبرية من الصليبيين ، ثم استولت على عسقلان في أكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحصرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا^(٢) .

وهكذا استعادت الدولة الأيوبية حدتها ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس ، فأقام في دمشق من توقيعه سنة ١٢٤٨ حتى أبريل سنة ١٢٤٩ (٦٤٦ - ٦٤٧ هـ) حيث وفد إليه ملك حماه المنصور الثاني والأشرف ملك حمص ، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبى بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة . كذلك زار الصالح أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية ، فقوى تحصيناتها ودعمها وحضر إليه فيها كثير من ملوك الشام ليعبروا عن ولائهم^(٣) .

المملكة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) رد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ .

(٢) العيني : عقد الجمآن حوادث سنة ٦٤٥ هـ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 194)

فعل عنيف في الغرب الأوروبي ، فقامت البابوية - كعادتها عقب كل كارثة تحمل بالصليبيين في الشرق - بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الأوروبي عندئذ تحول دون أن يلبى كثير من ملوك أوروبا وأمراءها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذي اشتهر بتفوّاه وورعه ، حتى لقب بالقديس .

وفي الوقت الذي أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملته الصليبية ، إذا بأخبار الحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب . ذلك أن الإمبراطور فرديريك الثاني - الذي ظل مصادقاً للسلطان الكامل ومن بعده ابنه الصالح أيوب - أرسل سراً إلى السلطان الصالح يخبره بأن ملك فرنسا عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها^(١) . وكان السلطان الصالح أيوب مرضاً في دمشق عندما بلغته تلك الأخبار ، فحمل إلى مصر ونزل عند إشتونم طناح ليكون على مقربة من ميدان العمليات الحربية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرص في سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (٥٦٤٦) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر حاصلاً فيها على مزيد من المساعدات ومواد التموين ، حتى استقر الرأي أخيراً على مهاجنة دمياط ، فأبحرت الحملة إليها في مايو سنة ١٢٤٩ م (٥٦٤٧)^(٢) .

وهنا نلاحظ ملاحظتين : الأولى أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مسيطرة على عقول الصليبيين في الشرق والغرب جميعاً .

(١) المقريزى : المواقظ والاعتبار ١ ص ٢١٩ (بولاق) ، ابن الجوزى : مرآة الزمان (المكتبة الصقلية ٣ ص ٥١٧) .
(٤) Joinville : 51, 62, 82.

والثانية أن لويس التاسع أراد أن يهدى طجومه بنوع من حرب الأعصاب ، فاتبع أسلوب المغول الخاص بإرسال رسائل ملية بعبارات التهديد والوعيد والبالغة إلى حاكم البلد الذي ينون غزوه ليسقط في يده ويستسلم دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع لم يكن يصل إلى دمياط في أوائل يونيو سنة ١٢٤٩ م حتى أرسل رسالة عنيفة إلى السلطان الصالح يشرح له سوء موقف المسلمين في الأندلس ويطلب منه التسليم فوراً ، وقد عرفتك وحدرتك من عساكر قد حضرت في طاعق تماماً السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياf القضا »^(١) . ووصلت رسالة لويس إلى الصالح أبوب وهو مريض ، فاغر ورقت عيناه بالدموع ورد على لويس ليهندد بغروره ويزكره بما فعله المسلمون بالصلبيين ، وينذره بأنه سيئدم حيث لا ينفع الندم^(٢) .

والواقع أن التحذير الذي أرسله الأمبراطور فردرريك الثاني فأدا الصالح أبوب ، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن ثبتت التجارب اختيار الصلبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح إلى الأمير شفر الدين يوسف - صديق الامبراطور فردرريك القديم - بالوقوف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط لمنع الصلبيين من النزول على ذلك البر^(٣) . أما دمياط ذاتها فقد شُحنت بالآلات عظيمة وذخائر وأفراة . وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة^(٤) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحر كه الصلبيون ج ٢ ص ١٠٥٨ - ١٠٥٩ .

(٢) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٣٥ .

(٣) المقرizi نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ؛ ابن واصل : مخرج السكريوب ج ٢ ورقة ٣٥٥ - ٣٥٦ (مخطوط) .

(٤) أبو الفدا : المختصر سنة ٦٤٧ هـ .

وعندما وجد لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين بحيث يتعذر عليه النزول على براها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الأمير شفر الدين تصدت للصلبيين وقاومتهم ، إلا أنها لم تنجح في مهمتها واستطاع الصليبيون النزول على الشاطئ ، مما جعل الأمير شفر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط^(١) . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط ، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين ، بعد أن أشعلوا النار في سوتها ؛ بل إن عرب كانوا الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ولو الأدبار وتركوا أبواب دمياط مفتوحة ، وفاثم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية التي عليها الصليبيون^(٢) .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع ، فتمكناها الفرنج بغير قتال ، في ٦ يونيو سنة ١٢٤٩ م (٥٦٤٧) ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ولا أحد يحميها شكوا أن يكون في الأمر خدعة ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة ، فدخلوا المدينة بغير كلفه ، واستولوا على ما فيها من مون وآلات وأسلحة وأموال « صفوآ عفوآ »^(٣) .

على أن الصليبيين لم يحاولوا في حملتهم هذه سنة ١٢٤٩ م (٥٦٤٧) أن يستفيدوا من الأخطاء التي وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩ م (٥٦١٦) . ذلك أنه كان من المفترض أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لحاولة القضاء على الجيش الأيوبي ، ولكن الصليبيين

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٦ .

أضاعوا الوقت في دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو - نوفمبر ١٢٤٩ = ٥٦٤٧) وربما أراد لويس بذلك أن ينظر انحسار فيضان النيل الذي كان سبباً في فشل حملة حنادي برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة^(١). ومما تذكر الأعذار التي حاول بعض المؤرخين انتجاها لتبرير تباطؤ لويس التاسع في دمياط ، فالمهم أن ذلك التباطؤ أعطى السلطان الصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه .

وكان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقاباً شديداً لفرارهم من دمياط ، كما وبغ الأمير نغر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين ، ولكن المرض اشتد على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث استمر – وهو على فراش الموت – في تنظيم شئون الدفاع^(٢) . ثم إن المسلمين انهزوا فرصة انتقال الجيش الصليبي مرة أخرى إلى الضفة الغربية للنيل ، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتواترة حتى أسروا كثيراً من الصليبيين وأرسلوهم إلى القاهرة^(٣) .

وأخيراً وصلت الإمدادات إلى لويس التاسع صحبة أخيه في أكتوبر سنة ١٢٤٩ (٥٦٤٧) ، فقرر الصليبيون الزحف على القاهرة . ولم يكدر لويس التاسع يشرع في الحركة على رأس جيشه ، حتى توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩ م (١٥ شعبان ٥٦٤٧) .

ولا شك في أن وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة جامت خسارة كبيرة لعدم وجود من يحل محله بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة خطر الغزو الصليبي .

Runciman : op. cit., III, p. 263. (١)

(٢) الميني : عقد الجان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٣٧ .

موقعة المنصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وهو شاب مستتر عديم الخبرة ، كان عند وفاة أبيه ينوب عنه في حصن كيما وديار بكر .^(١) وإلى أن يأتي توران شاه إلى مصر ، قامت زوج أبيه – شجر الدر أرملة الصالح أيوب – بدور بارز حفظه لها التاريخ ، وأخافت خبر موته زوجها ، وأرسلت إلى توران شاه تستدعيه على عجل من كيما ، في الوقت الذي استمرت الاستعدادات المدفعية عن البلاد تسير في جراها الطبيعي .^(٢)

ولتكن حادث على الرغم من كل هذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان ، لا إلى المصريين فحسب ، بل إلى الصليبيين أيضاً . لذلك رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئة التي أمست فيها البلاد ، وليتمكن من إزالة ضربته بال المسلمين قبل وصول توران شاه .^(٣)

وعندما تحرك الجيش الصليبي من دمياط في ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧) ، اختار لويس طريق الدلتا الكبير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بجذاء النيل جنوباً في المنطقة التي أطلق عليها الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » ، وهي عبارة عن مثلث تحدى من الشمال الشرقي ببحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي فرع أشئوم طناح المعروف اليوم باسم البحر الصغير . وفي أثناء زحف الصليبيون جنوباً تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا في النهاية عند نقطة تفرع بحر أشئوم من فرع دمياط ، وهي النقطة التي تمثل رأس المثلث ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصورة . ولم يلبث أن استطاع الصليبيون عبور بحر أشئوم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة

(١) أبو المحاسن : التجوم ج ٦ من ٣٦٤ .

(٢) ابن داصل : مفرج السكريobi ج ٢ ورقة ٣٦٢ - ٣٦٣ (مخطوط)

(٣) العيني : عقد الجحان حوادث سنة ٦٤٧ .

سلبون، في الوقت الذي قُتل الأمير نصر الدين قائد الجيش الأيوبي، مما جعل موقف المسلمين يتراجع حتى «كادت تسكون المزينة بالسلكية»^(١).

ولم ينقد الوقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين. ذلك أن فريقاً منهم تسرع في شن هجوم على المسلمين في المنصورة، دون أن يستمع إلى أوامر الملك الخاصة بالتريث والانتظار.^(٢) وهكذا اندفع فرسان الصليبيين داخل المنصورة، وأوغلوها في طرقاتها، في الوقت الذي وجد المسلمون قوة جديدة في المماليك البحرية وزعيمهم يبرس البندقداري الصالحي. الواقع إن الوقف كان خطيراً، حتى أطلق المؤرخ ابن واصل على ذلك اليوم يوم «النكبة».^(٣) ولكن المماليك البحرية أنقذوا الوقف، فانقضوا على الصليبيين في دروب المنصورة وأوسعوهم قتلاً، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين، وفرارهم منهزمين.^(٤) وكان عدد ضحايا الصليبيين في المنصورة بضعة آلاف، مما جعل أحد المؤرخين الأوروبيين يعتبرها «مقبرة الجيش الصليبي»، في حين وصفها المقريزى بأنها كانت «أول ابتداء النصر على الفرنج».^(٥)

ويبدو أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين فاشتدت هجماتهم بعد ذلك على الصليبيين، في الوقت الذي تمالك لويس التاسع شجاعته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة بعد أن قلت المؤمن وتناقص عدد الفرسان بسبب كثرة ضحاياهم في المنصورة، هذا كله فضلاً عن انتشار الأمراض والحييات في معسكر الصليبيين لتزييد الطين بلة.^(٦)

(١) ابن واصل : مخرج السكريوب ج ٢ ورقة ٣٩٦ (مخطوط).

(٢) Matthieu Paris, VII, pp. 118-119.

(٣) ابن واصل : مخرج السكريوب ج ١ من ٣٥٩ (مخطوط).

(٤) العينى : عقد الجان حوارات سنة ٦٤٧ هـ.

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥١؛ Grousset : op. cit., III, p. 465

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المعركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٧٠

توران شاه والصلبيون :

وفي تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة في نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧ هـ) بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق أثناء طريقه إلى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، وآتى الناس بطلعته^(١) ، وعندئذ أدرك لويس استحالة الزحف على القاهرة ، وببدأ يفكير جدياً في العودة إلى دمياط ليستغل هذه المدينة الكبيرة في مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين إلى دمياط لم يكن عندئذ بالملمة السهلة ، وهذا هو السر في تردد لويس في اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر أبريل .

وفي تلك الأثناء أزداد موقف الصليبيين سوءاً بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وفرض عليهم أن يتذروا مصيرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت كانت الغلبة في النيل – بين دمياط والمنصورة – للسفن الصليبية التي نجحت في إمداد الصليبيين بكل ما احتاجوا إليه من إمدادات وقوة . ولكن السلطان توران شاه بني عدة سفن وحملت أجزاؤها على الجبال إلى شمالي المعسكر الصليبي حيث ركبت وأبرأت في الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تثبت هذه السفن الإسلامية أن انقضت على المركب الصليبي ، وأخذتها أخذوا بيلا ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدهم في دمياط^(٢) . وتفيض المراجع العربية المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التي نشبّت عندئذ بين السفن الإسلامية والسفن الصليبية ، وكيف أن هذه المعارك انتهت كلها بالاستيلاء على عشرات من السفن الصليبية وبضعة آلاف من رجالهم ، فضلاً عن كميات ضخمة من المؤن والعدد^(٣) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥١ - ٣٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٤٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) عن تفاصيل هذه المعارك انظر (الميني) عقد الجان حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، وابن واصل.

مفرج السكري ورقة ٣٧١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٤ .

ومن الواضح أن هذه الصعاب التي أحاطت بلويس التاسع جعلته - قبل أن يشرع في التراجع إلى دمياط - يحاول فتح باب المفاوضات مع المسلمين، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين . وقد أراد لويس بهذا العرض أن يضرب عصفورين بحجر فيسترد بيت المقدس في الوقت الذي يضمن لجيشه انسحاباً آمناً وخرجاً سليماً من مصر . ولكن عرض لويس التاسع جاء بعد فوات الاوان ، ولو أنه تقدم بطلبه هذا قبل عدة أشهر لسكان من الممكن أن يتقبله المسلمون ، أما وقد قدم لويس عرضه للسلبي بعد أن ساء موقفه وحلت بجيشه هزيمة المنصورة ، فإن توران شاه كان لا يسعه سوى أن يرفض طلب الملك الفرنسي^(١) .

وفي ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ م (٥٦٤ھ) بدأ الصليبيون يتراجون نحو دمياط بذلاء الضفة الشرقية للنيل ، في حين حمل المرضى والجرحى في السفن . والواقع إن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف في الحروب ، وإنما هي عملية « هروب إلى دمياط » ، كما أن أسماؤها ابن واصل^(٢) ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجون في سهولة ، وإنما تعقبوهم وأزلوا بهم كثيراً من الخسائر ومع ذلك فقد أظهر لويس التاسع كثيراً من الكفاءة في تنظيم رجاله ، حتى وصل الصليبيون إلى شرم الشيخ ، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط . ولم تسد مقدمة الجيش الصليبي تصل إلى فارسكور ، حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه ، في الوقت الذي « أخذ المسلمون بهم يختطفونهم طول الليل قتلاً وأسرّاً »^(٣) . وعندما أدرك المسلمون سوء موقف الصليبيين ، اختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور . وكان المرض قد أشتد بلويس التاسع فلم يعد يقوى على القتال ، وقاده أحد

Grousset : op. cit., III, p. 419. (١)

(٢) ابن واصل : مفرج السكريون ج ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط)

(٣) العيني : عقد الجماعة حرثادث سنة ٦٤٨ھ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ من ٣٦٤

رجاله ليستريح في منية أبي عبد الله، وهي إحدى قرى شرماساح . وفي موقعة فارسكور حلت المهزيمة ساحقة بالصلبيين ، ووقع الجيش الصليبي بأجمعه تقرباً بين أسرى وقتل ، وكان من جملة الأسرى لويس النايس نفسه الذي سبق مكبلًا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن في دار ابن لقمان^(١) .

نهاية الدولة الأيوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيراً - وهم في نشوة نصرهم - بأمر دمياط، إذا باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمراً مفروغاً منه ، ولذلك ركزوا طلياتهم في الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وهذا أجاب لويس بأنه لسلطان له على الصلبيين ومتلكاتهم بالشام ، ورفض أن يعترف المسلمين بأى حق في الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن اغناط توران شاه لوقف الملك لويس ، فضمم على غزو الشام وطالب بـبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسي ، على أن يكون تسلیم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسي نفسه^(٢) .

وقد وافق لويس على هذه الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه تقضى بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح^(٣) .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل في المحرم سنة ٥٦٤ھ / ١٢٥٠ م قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصلبيين . ولعل أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير في تاريخ مصر والشرق الأدنى . هو سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشام ، على النحو الذي سنراه في الباب التالي .

(١) المقرئي : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٧ .

Grousset : op. cit., III, p. 484. (٢)

(٣) جوزيف نسيم يوسف : لويس النايس من ٦١

الفصل الثامن

احوال مصر والشام في العصر الأيوبي

الحياة الدينية :

كان أهم ما اتصف به الحياة الدينية في العصر الأيوبي هو القضاء على آثار المذهب الشيعي وتدعم المذهب السنى في أنحاء البلاد . والمعروف أن المذهب الشيعي كان قد وجد له سندآ قويا في البوهيميين بالشرق وفي العبيديين أو الفاطميين في الغرب . ولكن السلاجقة الذين حلو محل البوهيميين في السيطرة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع في المشرق ، ولجأ الوزير السلاجقى نظام الملك فى تدعيم المذهب السنى إلى إنشاء المدارس، وأشهرها المدرسة النظامية فى بغداد . ومن المعروف أن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود كانوا من أتباع السلاجقة ، وكانا يدينان بالمذهب السنى ، لذلك لم تكتم نور الدين محمود السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين فى القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد للخطيبة العباسى السنى فى بغداد .

وقد حذا صلاح الدين فى مصر حذو نور الدين فى الشام فى القضاء على المذهب الشيعى ، فاتجأ إلى العنف والقتل ، كما جأ إلى أساليب السياسة وإنشاء المدارس . ولم يستسلم الشيعة فى مصر لتلك السياسة ، لأنهم أدركوا أن الأمر بالنسبة لهم يعني الحياة أو الموت ، فقاموا بالثورات وأشهرها ثورة عمارة البينى ، كما سبق أن ذكرنا . وإذا كانت بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى مصر إلى عصر المماليك وما بعد عصر المماليك ، فإن هذه البقايا صارت ضعيفة لا تقوى على الظهور إلا لاختفى بعد قليل .

وَيَمْهُة ظَاهِرَة دِينِيَّة أَخْذَت تَزْدَاد وَضُوحاً فِي الْعَصْر الْأَيُوبِي ، هِي ظَاهِرَة التَّصُوف وَالاَكْثَار مِنْ بَنَاء مَنَازل لِلصَّوْفِيَّة عُرِفت بِاسْمِ الْخَانقَاتِ . وَيَفْهَمُ مَا كَتَبَهُ الْمُقرِيزِيُّ أَنْ صَلَاحَ الدِّين اَنْشَأَ أَوْلَى خَانقَاهَ بِمَصْر وَهِيَ خَانقَاهُ سَعِيدُ السَّعَادِ (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) وَولَى عَلَيْهَا شِيخًا عَرَفَ بِشِيخِ الشِّيُوخِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهَا الْأَقْفَافُ لِلِلْخَانقَاقِ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْفَقَرَاء (الصَّوْفِيَّة) ، كَمَا خَصَصَ لَهُمْ فِي كُلِّ يَوْم طَعَامًا وَلَحْمًا وَخَبْرًا وَبَنِي لَهُمْ حَمَامًا بِجَهَارِهِمْ .^(١) كَذَلِكَ أَمْدَنَ الْمُقرِيزِيُّ بِصُورَةٍ عَنْ حَيَاةِ أَوْلَىكَ الصَّوْفِيَّة ، فَقَالَ إِنَّ النَّاسَ اعْتَادُوا أَنْ يَأْتُوا آَيُومَ الْجَمْعَةِ لِمَشَاهِدَةِ صَوْفِيَّةٍ خَانقَاهُ سَعِيدُ السَّعَادِ إِذْنَمَا يَتَوَجَّهُونَ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى جَامِعِ الْحَاكِمِ لِاصْلَاهِ الْجَمْعَةِ ، فَسَكَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَى الْجَامِعِ فِي مَوْكِبِ جَمِيلٍ يَقُولُونَ فِرِيزَةَ الْصَّلَاةِ فِي مَوْضِعِ أَعْدَاهُمْ وَيَدْعُونَ لِلْسُّلْطَانِ صَلَاحَ الدِّينِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ بِنَظَامٍ إِلَى الْخَانقَاهِ .

وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا أَنَّ التَّصُوفَ لَيْسَ مُجْرِدَ ظَاهِرَة دِينِيَّة ، وَإِنَّمَا كَانَ أَيْضًا ظَاهِرَة اِجْتِمَاعِيَّة خَطِيرَة . وَلَمْ يَلْبِسْ أَنْ وَفَدَ عَلَى مَصْرُ فِي الْعَصْرِيْنِ الْأَيُوبِيِّيْنِ وَالْمَهَارَكِيِّيْنِ كَثِيرًا مِنْ زُعمَاء الْمَنْصُوفَةِ وَمَشَايِخِهِمْ — وَبِخَاصَّةٍ مِنَ الْمَغْرِبِ — الَّذِينَ أَشَاعُوا بِمَصْرِ حَيَاةَ الزَّهَدِ وَالتَّقْشِفِ مَا تَرَكَ أُرْأَآ خَطِيرًا فِي الْجَمْعَمِ الْمَصْرِيِّ .

الْحَيَاةُ الْعُلْمِيَّةُ وَالْفَكْرِيَّةُ :

اشْتَهِرَ سَلاطِينُ الْأَيُوبِيِّينَ بِحُبِّهِمُ الْعِلْمِ وَالْعِلَّمَاءِ ، فَسَكَانُ صَلَاحِ الدِّينِ يَجْمِعُ حَوْلَهِ رِجَالُ الْعِلْمِ وَيَحْضُرُ مَجَالِسُهُمْ لِيَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَيَشَارِكُهُمْ فِي أَبحَاثِهِمْ^(٢) . أَمَّا الْعَزِيزُ عُثْمَانُ الذِّي خَلَفَ أَبَاهُ صَلَاحَ الدِّينِ فِي السُّلْطَانَةِ فَقَدْ قَالَ عَنْهُ

(١) الْمُقرِيزِيُّ : الْمَوَاعِظُ وَالْأَعْتَارُ ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) الْسَّبِيِّكِيُّ : طَبِيبَاتُ الشَّافِعِيَّةِ الْكَبِيرَى ج ٤ ص ٣٢٩ .

ابن خلukan أنه سمع الحديث من الحافظ السلفي والفقير أبي طاهر بن عوف الذهري، وسمع ببصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم^(١). ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بنى أیوب، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقرىزى «وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنه شغف بسماع الحديث النبوى . . . وكان يناظر العلماء وعنه مسائل غريبة من فقه ونحو يتحسن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت بيته عندة بالقلعة جماعة من أهل العلم . . . فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه . . .»^(٢).

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بنى أیوب أنفسهم أعلام في مختلف ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء ، وهو إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماده ، المتوفى سنة ٥٧٣٢ هـ (١٢٣١ م) وهو صاحب كتاب «المختصر في أخبار البشر» . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاده صاحب بعلبك المتوفى سنة ٥٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) وكان شاعراً أدبياً . والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٥٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وكان مشتغل بتحصيل الكتب النفيضة ويعين الأدباء . والملك المؤيد الأيوبي صاحب الدين المتوفى سنة ٥٧٢١ هـ (١٢٢١ م) وكان من أهل العلم واشتملت خزاناته على مائة ألف مجلد . والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وكان راغباً في الأدب وأهله حتى شرط لسكنى من يحفظ المفصل للزنخشري مائة دينار وخلعه . . .^(٣).

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أیوب للعلم في عنائهم بالمكتبات ،

(١) ابن خلukan : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) المقرىزى : السلوك ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٠ .

وأهمها المكتبة التي عني بها السلطان السكامل بالقلعة ، وكانت في الأصل تمؤلف مكتبة القاضي الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، حتى أمر السلطان السكامل بوضع يد عليها ونقلها إلى القلعة ليصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد ، وقد تم نقلها إلى القلعة سنة ٥٦٢٦ (١٢٢٩م) .

وإذا كانت هذه هي رغبة سلاطين بنى أيووب في العلم ، فإننا لا نعجب لـ^{كثرة} ما أرسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة في ذلك العصر .

والواقع أن الأيوبيين عندما دخلوا نظام المدارس في مصر لم يكونوا ^{هميتكمبيين} وإنما كانوا حاكين لما شاهدوه وسمعوا به في الدولة العباسية ، قبل حضورهم إلى مصر . ذلك أنه من أبرز سمات الحياة العلمية في العصر العباسي الثاني ظاهرة انتشار المدارس ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المدرسة السلجوقية في بغداد^(١) . ولم تلبث الحركة المدرسية أن انطلقت في الإسلام منذ سنة ٥٤٥ (١٠٦٧م) ، إذ صارت المدرسة مكاناً للدرس والتحصيل فضلاً عن كونها قلعة للنشر المذاهب السننية ، وشن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع^(٢) . وكان من الطبيعي أن يحاكي الآتابكة في العراق والشام سادتهم سلاطين السلجوقية في إنشاء المدارس ، ومن ذلك على سبيل المثال المدرسة الآتابكية التي أنشأها سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكي بـالموصل قرب منتصف القرن الخامس للمigration (الثانية عشر الميلاد) ، ومدرسة الجامع النورى التي أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في جامعه بـالموصل^(٣) . وهكذا كان طبيعياً أن يحاكي صلاح الدين سيده نور الدين في إنشاء المدارس .

(١) ابن خلگان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلاجوقى ص ٢٢٢ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ ، العمري : منية الأدباء ص ٢٠٥ .

و منها يقال من أن صلاح الدين إنما قصد بإنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعي ونشر تعاليم المذهب السنى ، فإن التوسع فى إنشاء المدارس فى حد ذاته جاء مظمراً قوياً لرقى الحياة الفكرية فى عصر الأيوبيين . وقد بدأ صلاح الدين بإنشاء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، إذ زرой ابن الأثير أنه كانت ببصـر دار تسمى دار المعونة يجحبـس فيها من يراد جبسـه ، فقدمـها صلاح الدين وبنـاها مدرسة للشـافعـية سنة ٥٦٦^(١) . وقد عرفـت هذه المدرسة باسم الناصرـية . أما المدرسة الثانية فكانت للـمالـكـية ، وقد عرفـت باسم المدرسة القـمـحـية نسبة إلى القـمـحـ الذى كانت تحـصل عليهـ من الـوقـفـ الذى وـقـفـهـ عـلـيـهاـ صـلاـحـ الـدـيـنـ^(٢) . ولم تـبـثـ أـنـ سـقطـتـ الـخـلـاـةـ الـفـاطـمـيـةـ ، فـأـنـشـأـ صـلاـحـ الـدـيـنـ ثـلـاثـ مـدـارـسـ أـخـرىـ ، وبـذـالـكـ صـارـ عـدـ المـدـارـسـ الـتـىـ بـنـاـهاـ بـالـقـاهـرـةـ خـمـسـ ، خـلـافـ مـاـ أـقـامـهـ مـنـ مـدـارـسـ فـيـ دـمـشـقـ وـالـقـدـسـ .

وقد حـاكـىـ سـلاـطـينـ الـأـيـوبـيـيـنـ — وـمـنـ بـعـدـهـ سـلاـطـينـ الـمـهـاـيلـكـ — صـلاـحـ الـدـيـنـ فـيـ بـنـاءـ الـمـدـارـسـ . وـلـاـ يـخـفـ عـلـيـهـ أـنـ الـمـدـارـسـ كـانـتـ تـدـرـسـ فـيـهاـ الـعـلـومـ الـدـيـنـيـةـ ، لـذـلـكـ قـصـدـ الـسـلاـطـينـ بـتـأـسـيـسـهـاـ التـقـرـبـ إـلـىـ اللهـ وـكـسـبـ الـثـوابـ . وـمـنـ أـهـمـ هـذـهـ الـمـدـارـسـ الـمـدـرـسـةـ الـسـكـاـمـلـيـةـ الـتـىـ أـنـشـأـهـاـ السـلـطـانـ السـكـاـمـلـ سـنةـ ٥٦٢١ـ (١٢٢٤ـ مـ)ـ وـالـمـدـرـسـةـ الصـالـحـيـةـ الـتـىـ بـنـاـهـاـ الصـالـحـ نـجـمـ الـدـيـنـ أـيـوبـ سـنةـ ٥٦٣٩ـ (١٢٤١ـ مـ)^(٣) . وـكـانـتـ هـذـهـ الـمـدـرـسـةـ الـأـخـرـيـةـ أـوـلـ مـدـرـسـةـ تـجـمـعـ بـيـنـ مـذاـبـ الـسـنـةـ الـأـرـبـعـةـ .

وـكـانـتـ الـمـدـارـسـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ أـشـبـهـ بـجـامـعـاتـ ، فـهـىـ مـعـاهـدـ للـتـعـلـيمـ الـعـالـىـ ، وـلـكـلـ مـدـرـسـةـ مـذـهـبـاـ الـذـىـ تـبـعـهـ ، وـإـنـ كـانـ بـعـضـهـاـ يـشـمـلـ أـرـبعـ كـلـيـاتـ

(١) ابن الأثير : السـكـاـمـلـ حـوـادـثـ سـنةـ ٥٦٦ـ .

(٢) المقـرـيزـيـ المـوـاعـظـيـ جـ ٤ـ صـ ١٩٣ـ .

(٣) أحمد شلبـيـ : تـارـيـخـ التـرـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ صـ ١٠٢ـ — ١٠٣ـ .

للمذاهب الأربعه . وإذا كان المفروض في المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه و حدیث و تفسیر وغيرها ؛ فإن الوضع لم يثبت أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو و الفلسفة و العلوم الطبيعية فضلاً عن العلوم الدينية .

وكان يقوم بالتدريس في المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علماً ، وأبعدهم صيتاً لأنّه على أساس مكانته وشهرته توقف سمعة المدرسة وأهميتها . ويساعد المدرس عادة معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع إليه الطلاب لشرح ما قد يكون قد صعب عليهم فهمه . ومنذ العهد الأيوبي أصبح منصب المعيد مرموقاً ، وقل إن خلت منه مدرسة من المدارس التي أنشئت في ذلك العصر ، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية كأعين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين ل بكل واحد من المدرسين الأربعه في مدرسته^(١) . واعتمد التدريس عادة في ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه .

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالي لا بد لها من مكتبات ضخمة يرجع إليها المدرسوون والطلاب ، ويعتمدون عليها في التحصيل والاستزادة . لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمسكبات ، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته في دمشق كتاباً كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يتبع الأيوبيون سياسة نور الدين في العناية

(١) السيوطي : حسن الحاضرة ج ٢ ص ١٥٧ ، المقرئي : المواقع ص ٣٧٤ ، ٤٠٦ .
أحمد شاهي تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٥ .

(٢) النديمي : الدارس فيها في دمشق من مدارس ج ١ ص ٦٠٨ .

بالمكتبات مثلما أقتفوا أثره في بناء المدارس^(١). هذا مع ملاحظة أن المكتبات في ذلك العصر لم تكن قاصرة على المدارس فحسب ، بل وجدت بالجوانب مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة .

وكان لـ كل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم ، وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الأمين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون .

وبالإضافة إلى المدارس التي كانت تمثل نوعا من التعليم العالي الجامعي ، وجدت في العصر الأيوبي كنائيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عددا من هذه الكنائيب لتعليم «أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من « ما أثره السكريمة المعرفية عن اعتناقه بأمر المسلمين عامه »^(٢) .

ولما كانت المنشآت التعليمية السابقة من مدارس وكنائيب في حاجة إلى ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين وال المتعلمين فيها مستوىً كريما من العيش يجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم بنفس راضية مطمئنة ؛ فقد لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التي أوφقوها عليها . ولم تكن جميع هذه الأوقاف أراضي زراعية ، وإنما يروى المقريزى أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التي بناها بجوار مقام الإمام الشافعى حاما بجوارها ، وفرنا وحوانى ، فضلا عن الجزيرة التي كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة^(٣) . أما المدرسة القميجية التي أنشأها صلاح الدين للهالكية فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة إلى القممح الذى كانت

(١) أحد شهبي : تاريخ التربية الإسلامية من ١٣٠ وما يليها .

(٢) رحلة ابن جبير (طبعة بيروت) . ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : الموعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٢٥ .

تغله الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالقديوم على تلك المدرسة . أما المكاتب فكانت تخصص لها أيضاً أوقاف الإنفاق على موذبيها وتلاميذها ، كما كانت تتحرى عليهم الجرأة السكافية لهم ^(١) .

ومن الواضح أن المستوى المعيشى لمدرسى المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ومقدار ما يغله ذلك الوقف . ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، إذ أن إنتاج الأرض يرتبط بحالة الفيضان وما قد يكون من آفات تصيب النبات ، فإن رجال العلم في تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا إلى أن الأوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وإنما تعرضت أحياناً لزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركه — ابن الظاهر بيبرس — أضاف إلى الأوقاف التي أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية ^(٢) .

وقد نشطت الحياة الأدبية في عصر الأيوبيين ، وإن كانت الأحداث التي ألمت بالعالم الإسلامي في الشرق الأدنى — وخاصة ما أصاب المسلمين على أيدي الصليبيين — قد صبغت الأدب بصبغة خاصة ، فسكنست سوق الشعر وأتجهت القراء إلى الأدعية ومدح النبي (ص) وكذلك المعانى الصوفية ^(٣) . ومن أشهر شعراء مصر في العصر الأيوبي ابن سنان الملك المصري المتوفى سنة ٥٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ، وقد استكثر من المنشقات وأجاد فيها ^(٤) ؛ وكالدين ابن النيبة المصري المتوفى سنة ٥٦١٩ هـ (١٢٢٢ م) ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٥٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) ^(٥) ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٥٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وقد اتصف شعره ببساطة وأوضحة من التصوف ، وجمال الدين

(١) رحلة ابن جبير (بيروت) ص ٢٧ .

(٢) أحد أجد بدرى : الحياة العقلية في عصر المزروع الصليبي من ٤٩ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢ — ١٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٥٦ .

(٥) الشيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٧ .

بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ^(١).

أما النثر في ذلك العصر فاتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن في البديع والجناس والبسجع ، والمبالغة في التفميق ، كما يبدو ذلك بوضوح في كتابة عماد الدين الأصفهانى وخاصة كتابه الفتح القسى الذى أرخ فيه لاستيلاه صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر في ذلك العصر القاضي الفاصل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) ، وكان وزير صلاح الدين ، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل ^(٢).

وشهد العصر الأيوبي كذلك نشاطاً في علوم اللغة ، وخاصة النحو والصرف . واشتهر من علماء اللغة عندئذ أبو محمد بن برى المترف سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبو الفتح البسطى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) وابن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ^(٣).

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطاً كبيراً في العصر الأيوبي ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات في تاريخ الدولة الإسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظام وتدوين مآثرهم ، في حين عنى القسم الأكبر من المؤرخين بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصلبيين . ومن مؤرخي ذلك العصر أبو علي الجوانى المصرى المتوفى سنة ٥٨٨ هـ (١١٦٣ م) وله شجرة رسول الله في النسب النبوى ، والملك المعظم عيسى الأيوبي المتوفى

(١) ابن خلـكـان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) جرجق زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٥٥ - ٥٦ .

سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، وبهاء الدين ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة بالنوادر السلطانية وقد توفي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وشهاب الدين أبو شامة المنوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الأزدي صاحب كتاب الدول المقطعة وقد توفي سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وجمال الدين القبطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) صاحب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، هذا بالإضافة إلى أبي صالح الأرمنى وابن عساكر الدمشقى وغيرهما كثيرون .

الزراعة والإقطاع :

اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية — طوال تاريخها — على الزراعة بوجه خاص، فالزراعة اشتغلت غالبية أهلها وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانها . والمعروف أن مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة إلا في القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة في العصور الوسطى ومن جملتها العصر الأيوبى على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبدى البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فإذا جاء مستوى الفيضان طبيعياً تسكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعياً في مقداره وأثنائه . أما إذا جاء الفيضان منخفضاً فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال ، مما يتربّ عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة في البلاد .

وعلى ذلك يُسْكَن أن نفس ماحدث بمصر في تلك العصور من أزمات اقتصادية في ضوء انخفاض الفيضان . ومن أمثلة ذلك ماحدث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) في عهد السلطان العادل الأيوبى ، إذ يروى أبو الحasan أنه ، كان هبوط النيل .. واشتد الغلام والوباء بمصر ، فهرب الناس إلى المغرب .

والحجاج والبيزنطيين والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل همزة^(١). ثم يسرد أبوالمحاسن نصا عن الوضع في مصر أثناء تلك الأزمة، وكيف كان الناس يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع ، فندفع الرجل ولده وتساعده أمه على طبخه وشيء !! ومهما يكن في هذه الأوصاف من مبالغات فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تمر به من ظروف اقتصادية عصبية عند انتفاض الفيضان.

ولا ينتظر في مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى. وإذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حيناً وترحمه أحياناً ، فإن الحكام كانوا لا يرحمونه في الغالب ، فأقللوا عليه الالتزامات والرسوم ، ولم يتهاونوا في جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال . ومن الضرائب التي فرضت على الفلاحين في ذلك العصر الخراج وشد الأحباس فضلاً عن الزكاة^(٢).

ومن الثابت في تطور النظم الإقطاعية في الشرق والغرب في العصور الوسطى أن الإقطاع اتخذ طابعاً حربياً في بعض الدول التي غلب عليها الجو الحربي . ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجذدون أنفسهم في حاجة إلى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول ، مما يتطلب أموالاً ونفقات لا تتحملها مواردهم ، فيعمدون إلى توزيع الأراضي في صورة إقطاعات على الأمراء والأجناد مقابل ما يقدونه من خدمة عسكرية للحكام . وهذا المبدأ الذي يفسر المؤرخون في صوره تطور النظام الإقطاعي في الغرب الأوروبي منذ أيام شارل مارتل ، ينطبق أيضاً على النظم الإقتصادية التي عرفت على أيام السلجوقيين والأيوبيين . وهكذا عرفت مصر زمن الأيوبيين الإقطاع الحربي الذي كان معروفاً عند السلجوقية . ولم يكن هذا الإقطاع

(١) أبوالمحاسن : النجوم ج ٦ من ١٧٣ .

(٢) ابن ماتي : قوانين الدراوين ص ٣٠٨ - ٣١٥ .

وراثياً، إنما صار المقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدي الخدمة العسكرية المنفقة عليها في شرط عقد الإقطاع.

ولم يكفل صلاح الدين يوطد أقدامه في مصر حتى أعاد النظر في توزيع الإقطاع، فقام سنة ٥٧٧ هـ ثم سنة ٥٨١ (١١٨١ م، ١١٨٥ م) بإقطاعي البلاد والتوفيق بها على الأجناد^(١). وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبناءه وأهل بيته، جعل ذلك التقسيم على أساس إقطاعية؛ وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده دون غيرهم هم أصحاب الإقطاعات الكبرى في مصر^(٢).

وهكذا حتى نهاية العصر الآيوبي، فنجد أن النظام الإقطاعي قد استقر في مصر، فأقطع الصالح بن الدين أيوب أهل بيته إقطاعات وافرة كما اختص الخوارزمية بإقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حرية. ولم ينس الصالح أيوب ماليسك الأتراك الذين ساندوه وناصروه فنحوهم الإقطاعات الوافرة^(٣).

وكان على المقطعين أن يؤديوا خدمات إقطاعية، منها ما هو مالي مثل ضرائب الزكاة والجواز وغيرها، ومنها ما هو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شؤون الأمن في الإقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور. وهذا كله فضلاً عن الواجبات الحربية – التي هي الأساس في فكرة الإقطاع – فكان على المقطع أن يقتني العدد المقرر عليه من الجنود ويخصص جزءاً من إقطاعه لـ كل منهم أو يمنح كل جندي من تبعه معيناً يناسبه^(٤).

وكان من المنتظر أن يؤدي انتشار النظام الإقطاعي إلى سوء

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢

(٢) حسين بن محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الآيوبيين ص ٢٩ – ٣٠

(٣) ابن واصل: مفرج الكنروب ص ٣٢٢، ٣٥٨، المقريزى نهاية الارب ج ٢٧ ص ٩٠

(٤) حسين بن محمد ربيع: النظم المالية ص ٣٤

حال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شيء ، بعيد الأرض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هي طبقة كبار الأمراء الإقطاعيين .

ولتكن النظم التي وضعتها الدولة الأيوبية حرصت على أن تخفي الفلاحين من عسف السادة الإقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالإقطاع في ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الأسر بالمعروف ، واتباع العدل ، والمحافظة على الإقطاع وعمارته وحسن إدارته ، والإهتمام بالقضاء وعدم أخذ الرشوة من الناس ، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له ... (١) ويدوأن القمود التي وضعتها الدولة الأيوبية على السادة الإقطاعيين ، وخاصة ما يتعلق بتحديد الإيجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي ، حيث الفلاح من العصف من ناحية كما حدث من نفوذ وثروة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى (٢) .

ولا أدل على عنابة الأيوبيين بشئون الزراعة وأهميتها لحياة مصر وشعبها من عنائهم الفائقة بعبارة القنطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد إلى الأمير قراقوش الأسدى بذلك (٣) . وكانت الجسور في ذلك العصر على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ولذا تعهدت الحكومة بإقامتها والإنفاق عليها ؛ وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص أهالى تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين بإقامتها والإنفاق عليها (٤) .

الصناعة والتجارة :

وإلى جانب الزراعة ازدهرت في مصر عدة صناعات أهمها صناعة

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ج ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٥ .
Roliak : The Ayybid Feudalism, p. 430. (٢)

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ص ١٥١ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠١ .

النسيج التي اشتهر بها المصريون طوال العصور الوسطى . وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة في غرب أوروبا في تلك العصور مثل قاش الفستيان Fustian الذي نسب إلى الفسطاط ، ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات في مصر في ذلك العصر تونس ودمياط والبنصا وأخيم ، وفيها جيعا صنعت أنفر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية . وبالإضافة إلى صناعة المنسوجات ، اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان وغيرها ، واستخدمت بعض هذه الزيوت في صناعة الصابون ، وهي الصناعة التي اشتهرت بها فقط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت في مصر ، مثل صناعة السكر من القصب ، إذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر ليست لك بعضها داخل البلاد ويصدرباقي إلى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوية سياسة الإحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشغلي بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في كافة أنحاء البلاد^(١) .

كذلك فرضت على الصناع والإنتاج الصناعي بعض الضرائب مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجراة الصناع الذين يعملون في خزان السلاح^(٢) .

أما التجارة فقد نشطت في الجانب الخارجي على عصر الدولة الأيوية . ذلك أن قيام نور الدين بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجاري بين الجانبيين . حقيقة إن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبلك بالأردن ، مكنته في أول الأمر من اعتراض طريق

(١) المقريزى : المخطoj ١ ص ١٠٢

(٢) ابن عاتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥

القوافل المتنقلة بين مصر والشام والجaz ، ولكن نور الدين محمود ، ومن بعده صلاح الدين ، لم يسكننا عن ذلك التهديد حتى انتهى الأمر باستيلاه المسلمين على حصن الشوبك والذكرك جميعا ، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهاامة التي تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية .

ونبه ملاحظة أخرى هامة ، هي أن كثيرا من الناس يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداء ظلل مستحاكا بين المسلمين والصلبيين في الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الحقيقة - كما سبق أن رأينا - أن الحروب الصليبية كانت تشتعل حينا وتختمد نارها أحيانا . وفي الفرات التي كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصلبيين . وقد ذكر ابن جبير في رحلته أنه « من أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبعين يدخل إلى بلاد المسلمين » ، ثم شرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق في قافلة إسلامية للتجار متوجهة إلى مدينة عكا الصليبية ؛ حتى وصلت القافلة عكا عن طريق بانياس . ثلما وصلت القافلة الإسلامية إلى عكا « وهي قاعدة مدن الإفرنج بالشام » ، نزلت في خان معد خصيصا لنزل القوافل الإسلامية^(١) .

ثم إنه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت إلى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، وأن القوى الإيطالية - مثل بيزا والبنديقية وجنو - رأت في تلك الحروب فرصة لتدعم نشاطها التجارى مع البلدان العربية . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الأيوبي بالذات ، وقصد التجار الإيطاليون نجوى دمياط والإسكندرية لشراء الكثير من حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك في إحدى رسائله فقال

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١ - ٢٧٦ (طبعة بيروت)

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة (البياشقة) والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزوة لاتطاق ضرورة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفادا يحتكمون على الإسلام في الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكماء المرهوبة . وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلادنا آلة قتاله وجهاه ، ويقترب إلينا . بأهداء طرائف أعماله^(١) »

ولم تفلح المراسيم التي أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوروبيين من التعامل التجارى مع المسلمين في الشرق الأدنى ، إذ أدى حرص المدن الإيطالية التجارية على مواصلة نشاطها التجارى إلى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التي اتبعها العادل والكامل إلى اتجاه كثير من التجار الأوروبيين بسفنهم نحو شواطئ مصر . ولم تلبث الإسكندرية — بصفة خاصة — أن شهدت نشاطاً تجارياً واسعاً نتيجة المامتيزات التي منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الإيطالية ، حتى أن وجد بميناء الإسكندرية في شتاء سنة ١١٨٧ - ١١٨٨ م (٥٨٣ھ) سبع وثلاثون سفينة إيطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات^(٢) .

أما عن التجارة الداخلية فكانت لا تقل نشاطاً في العصر الأيوبي ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف مدن مصر في ذلك العصر — مثل منفلوط وأبي تيج وغيرها — بأن « فيها الأسواق وسائر ما يحتاج إليه من المرافق »^(٣) . وتشهد كتب الحسبة من ذلك العصر على مدى النشاط التجارى الداخلى في العصر الأيوبي ، وعلى ما كان هناك من إشراف دقيق على الأسواق والباعة^(٤) .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤٣ (طبعة النيل)
Heyd : Hist. du Commerce, Tome 2, pp. 391-399. (٢)

(٣) رحلة ابن جبير من ٣٥

(٤) عبد الرحمن الشيزري : كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة

الحياة الاجتماعية :

جاءت الدولة الأيوبيّة من الناحيَة الزُّمنيَّة بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الإجتماعية ذِيَّهما بالإسراف والمباهلة في إحياء الحفلات، هما الدولة الفاطميَّة والدولة المملوكيَّة . ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الأيوبيَّة في وقت كان الصليبيُّون بالشام أشد ما يكونون قوَّة وعنهما ، حتَّى هدد خطرهم باطلاع البلدان العربيَّة ليس في الشام فحسب ، بل أيضًا في مصر والمحجَّز . لذلك لم تسكن هناك فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة إجتماعية متوفَّة ، إذ غلبت فكرة الحرب على المسلمين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالاً للتوسيع في الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحياناً في العصر الأيوبي لحياة الترف ، فإنَّ المال لم يتواتر عند ذلك لأنَّ حراسة القواقل وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجنيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربيَّة ، كلَّ ذلك كان كفيلاً بأنْ يستنفَد كل درهم في خزانة سلاطين بني أيوب . وحسبنا أنَّ أول ما فكر فيه المُعزُّ لدين الله الفاطميَّ عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعنابية بأسوأها ومنظَّتها ، ورعاية الحفلات الدينية والمباهلة في إحيائها ، في حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبي في الدور الأول من أدوار سلطنته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة ، وتحصين الشغور .

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الأيوبي وصفاً يصور روح العصر فقال عنه أنَّ «حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاً عظيماً ، بحيث ما كان له حدوث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاته ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويبحث عليه . لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ،

وقنع من الدنيا بالسكنون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنته ويسراه .

وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وعن سلاطين المماليك أن كلامهم مات وترك في خزانة أكواام المال وعديد التحف ، إذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحدا من الذهب .. لقد استنفذ الجهد كل دينار في خزانته^(١) .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في مصر على زمن الأيوبيين حسارت مجدية كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، إذ أن الأيوبيين — يوصفهم مسلمين — حافظوا على إحياء الأعياد الدينية ، بل وغير الدينية ، ولكن في غير إسراف ويدون تهتك .

فالمقريزى عندما يشير إلى بعض الاحتفالات في العصر الأيوبي لا يتعرض لأن لأن الإباحية والمنكرات التي انتقدتها في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في العصرين الفاطمى والممالىك^(٢) . ذلك أن الأيوبيين اقتدوا في الحفلات وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، في حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى . من ذلك مثلاً أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الأسواق ، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ويصنعون فيه الحلوي ويقطخون الحبوب^(٣) . وهكذا شهدت مصر في العصر الأيوبي اهتماماً باحياء الأعياد وبالحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد ، فنسمع عن الأسمطة السلطانية في العصر الأيوبي ونسمع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ وما بعدها

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ١٣٦٥ص ٤ ، ج ٤ من ٩٦٣

(٣) عبد الطيف حزة : الحركة الفكريّة في مصر ص ٥٩

أن أول من ركب بشعار السلطنة في مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولكننا لا نسمع عن الإسراف والبالغة التي اتصف بها الحفلات والمواكب الفاطمية والمالوكية .

ومع ذلك فإننا نقرأ عن بعض خلفاء صلاح الدين أنهم أسرفو أحياناً في إقامة بعض الأسمطة وإحياء بعض الحفلات . ومن ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الأسمطة الكبيرة لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر^(١) . أما السلطان الكامل فقد أقام سماطاً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق في ذلك السماط أموالاً باهظة^(٢) . وتكرر ذلك في عهد السلطان العادل الصغير الذي أقام سماطاً في الميدان الأسود تحت القلعة ، ذبح لأجله ألف رأس من الغنم فضلاً عن البقر والجاموس والإبل والخيول^(٣) . ولكن هذا الإسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة الشطر الأول من تاريخها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادي — الذي زار القاهرة في العصر الأيوبي — أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقي في ذلك العصر ، فوصف البغدادي حمامات القاهرة ، وقال أنه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة وإن حكاماً ، لا امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجري فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب المستحدين^(٤) .

كذلك أفضى ابن جبير في وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراض الذين يغدوون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٢) التوپرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

(٣) المرجع السابق ورقة ٦٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٤) البغدادى : كتاب الإفادة والاعتبار ص ٢١٣

السلطان «بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتلقون أحوالهم ...».

أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرایات من الخير وغيره أثناء مرورهم بمصر في طريقهم إلى الحج ^(١).

ولم تسكن مدن الصعيد أقل رقياً في مستوىها عن مدن الوجه البحري والقاهرة، إذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد — مثل قنا وقطط — أنها كانت «متازة ، حسنة ونظافة بنيان وأتقان وصنع». كذلك امتدح ابن جبير تحشيم نساء الصعيد «وصون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا تظهر في زقاق من أزقتها المرأة البدة» ^(٢).

الادارة ونظم الحكم:

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية ووفاة نور الدين هو سيد البلاد وحاكمها الأوحد.

ومن الثابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب «سلطان» رسميأً ، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذي تمثلت به خلفاؤه من الأيوبيين والمالويك الذين تعاقبوا في حكم مصر . ولما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر المجاهد في الشام ، فإنه صار عليه أن يترك شخصاً يعتمد عليه في حكم مصر وإدارة شئونها أثناء غيابه . لذلك استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة ، وهو الشخص الذي ينوب عن السلطان أثناء غيابه وقد استمرت هذه الوظيفة قائمة بعد ذلك في عصرى الأيوبيين والمالويك .

(١) رحلة ابن جبير ص ١٥ - ١٦

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان في العصر الأيوبي أضعف من أهمية الوزير . فالوزارة التي كان لها شأن كبير في العصر الفاطمي ، حتى أصبح للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة ، وزارة تفويض ووزارة تنفيذ ، إذا بهذه الوظيفة تتحصل في العصرين الأيوبي والهادىكي بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من سلطات . وقد أصبح الوزير في العصر الأيوبي « وزير تنفيذ » لا غير . وإذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضي الفاضل ووثق فيه وعده إليه بكثير من الأمور ، فإننا نسمع أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنو أحياناً عن وظيفة الوزير . من ذلك أن السلطان العادل الأول أو السكير استوزر الصاحب صفي الدين بن شكر ، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة وترك المنصب حالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات^(١) .

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل ، إذ أعاد ابن شكر إلى الوزارة فلما بعنه ابن شكر « وأحدث حوادث كثيرة وحصل مالاً جماً » عزله^(٢) السلطان الكامل وأحاط بجميع موجوده . . . ولم يستوزر بعد ابن شكر أحد^(٣) .

وبالإضافة إلى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامة في الدولة الأيوية ، بعضها يختص بالباطن والبعض الآخر يختص بالدوافين . فن وظائف الباطن وظيفة الحاجب الذي يقوم بإدخال الناس على السلطان ، ووظيفة الاستدار الذي ينظر في إدارة البيوت السلطانية ، ووظيفة الدوادر الذي يقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية ، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية . . .

(١) المقرنی : المواقع ج ٤ ص ٣٦٣

(٢) المقرنی : السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٢٠

اما عن الدواوين والوظائف الإدارية فقد حدثنا عنها بأسباب ابن ماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) وكان نصراً نيا وأسلم ، وتولى نظارة الدواوين المصرية . وقد ألف كتاباً شهيراً اسمه قوانين الدواوين ، يتناول نظام حكومة مصر وقوانينها في عصر الدولة الأيوبية . ويفهم منه أنه كان بمصر عدد كبير من الدواوين مثل ديوان الإندا ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش . ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر أو رئيس ، وميزانية خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن ماتى صاحب كتاب قوانين الدواوين ناظراً لديوان بيت المال في أوائل العصر الأيوبى (١) .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الوظائف بعضها ذو صبغة إدارية مثل والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضي القضاة والمحاسب . وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على أن يكون قاضي القضاة شافعياً ؛ وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضياً للقضاء من كل مذهب فأصبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربع .

المالية العامة :

أدى انتقال النظم المالية في الدولة الأيوبية من الاقتصاد النقدي إلى الاقتصاد الإقطاعي إلى ضعف ثم زوال ديوان المال ، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر في جميع شئون المالية من إيرادات ومصروفات ، لهذا سمي ديوان النظر (٢) .

(١) ابن ماتى : قوانين الدواوين — القاهرة ١٩٤٣

(٢) حسين محمد ربيع : النظم المالية في مصر ، ص ٤٠

أما عن الإيرادات فقد تنوّعت مواردها ، ومعظمها كان قدّيماً وجده صلاح الدين الأيوبى بمصر ، فأبقاءه على حاله . ومن الواضح أن المورد الأول لإيرادات الدولة الأيوبية كان الإقطاع الحربي ، وهذا يرتبط بالخروج لأنّه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الأرض التي يقوم بفلحها ، ليقوم المقطوع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزانة الدولة . وقد أدخل صلاح الدين ما يسمى بالبدل في جميع الخراج ، بمعنى أن يودى الخراج عيناً فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلاً من القمح مثلاً ، وحدّدت نسبة البدل بحيث يُودى المزارع أربعين شعير بدلاً من أربب واحد قبح أو يُودى أربب ونصف فول بدلاً من أربب القمح وهكذا^(١) . وارتبط بالمال الخراجي أيضاً الخراج والمعادن . أما الخراج فيقصد به أشجار السنط التي وجدت بكثرة في بعض أنحاء البلاد مثل البهنسا والأشتوان وأخيم وقوص ، وكانت هذه الغابات تعتبر ملكاً للسلطان ويدفع أهالي تلك الجهات رسوماً مقابل انتفاعهم بأنفسها^(٢) . وأما المعادن فأهلها الذهب والزمرد والنطرون والشب وقد احتكرها السلطان فلاتباع إلا في المتجر السلطاني بالاسكندرية ولا يجوز لأحد الرعايا المتأجرة فيها^(٣) .

وبالإضافة إلى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غدت إيرادات الدولة ، منها الجوالى وهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة – أى اليهود والنصارى القادرين على حمل السلاح . وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) مائة وثلاثين ألف دينار^(٤) . ومنها أموال المواريث المشربية وهم الذين يموتون دون وريث ، ومنها متحصلات ديوان الأحباس

(١) القلقشندي : صبح الاعيّج ج ٣ ص ٤٥٤ - ٤٥٥

(٢) النابلسي : لبع القوانين المفيه في دواوين الديار المصرية ، من ٤٨

(٣) ابن ماتى : قوانين الدواوين ، ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤

(٤) المقريزى : المراعظ ج ١ ص ١٧

الم الخاصة والعامة أى الأوقاف، وهي على أنواع كثيرة مثل الدور والخوانق والطواحين والأراضي إلخ وقفها المسلمين في عصور سابقة . ومنها الأموال المحلالية وهي الإيجارات الشهرية المتحصلة من الجمادات السكنية الخاصة بالسلطانين الأيوبيين ومن قبلهم من خلفاء الفاطميين ، ومنها متحصل دار الضرب وهي الرسوم التي تجبيها الدولة من أصحاب الأموال الذين يرغبون سك ما لديهم من ذهب أو فضة في صورة عملة رسمية^(١) . هذا كله بالإضافة إلى المكسوس وهي الضرائب التجارية . ذلك أن صلاح الدين ألغى معظم المكسوس الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وكان لا يزال نائباً عن نور الدين في مصر ، وبلغ عددها ٨٨ مكساً جملة حصيلتها مائة ألف دينار في السنة . ثم أعاد صلاح الدين بعضها مثل مكس تجارة السكارام وهي الضريبة المفروضة على التوابع الواردة إلى البلاد ، ومكس الخنس وهي الضريبة المفروضة على ما يحمله التجار الأوربيون والمسيحيون من بضائع ..

أما أبواب مصر وفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض الدواوين التي اختصت بمصر وفات . ومن هذه الدواوين ديوان الخاص السلطاني ، ويقوم بالإتفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع الإيرادات الخاصة بالسلطان ، ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ السلطاني والأسطنة والخيول السلطانية والمواكب السلطانية في الأعياد وغيرها ، فضلاً عن المدايا والمنح والهبات التي كانت تخرج باسم السلطان . أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الأقطاعات ، ومنه يتم الإنفاق على الجنود وشئون التعبئة والأسلحة والمؤن والخاميات والمحصون والتحصينات والمواقام والمدن العسكرية – مثل العادلة والمنصورية والصالحية – أما ديوان الأسطول فكان ينفق على دور الصناعة ، وكذلك قام ديوان الأحباس بالإتفاق على المؤسسات الخيرية كالخانقاوات والمارستانات والمدارس ونحوها^(٢) .

(١) ابن ماتي : قوانين الدواوين من ٤٤٣ — ٣٤٣

(٢) حسين بن محمد ربيع : النظم المالية من ٥٨ وما بعدها

وقد واجهت البلاد في بداية الدولة الأيوبية صائفة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرار الأوضاع في أواخر العصر الفاطمي. ولكن صلاح الدين واجه الموقف في حزم بسلك عملية ذهبية جديدة كاملة العيار حازت ثقة المتعاملين^(١) على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التي شنها صلاح الدين ضد الصليبيين ألمحاته سنة ٥٨٣هـ (١١٨٨م) إلى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس، فضاق الناس بهذه الدرهم الرديئة؛ مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوساً نحاسية. وبالجملة فقد ظلت أحوال النقود مضطربة أيام الأيوبيين مما أثر تأثيراً سلبياً في النشاط الاقتصادي داخل البلاد^(٢).

الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الأيوبية جامت وليدة أحداث الحروب الصليبية، وثيرة مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة. وكانت الدولة الأيوبية هي التي عاصرت أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفاً، لذلك من الطبيعي أن يكون الاهتمام بالجيش في أيام تلك الدولة فائقاً لأنه الأداة الكبرى للجهاد. وقد أقيم سنة ٥٧٧هـ (١١٧١م) – أي في الوقت الذي كان صلاح الدين نائباً في مصر عن سيده نور الدين محمود – عرضأعسكرياً في القاهرة شمده رسلاً بين نظيريه الصليبيين، لحضر ذلك العرض ١٤ ألف فارس كل منهم مزود بمتاعه من الخيول ونحوها، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب، هذا عدا الجنود المشاة والعربان الملحقين بالجيش^(٣). ولما كان الفارس الواحد من الطواشية يتتقاضى مرتبًا يتراوح بين ٧٠٠،

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٥ .

(٢)

De Bollard : Evolution Monetaire de l'Egypte Medievale, p. 450.

(٣) المقريзи : المواقع والاعتبار، ج ١ ص ٧٦ .

١٢٠٠ دينار ، فإن معنى هذا أن الاحتفاظ بذلك الجيش من شأنه أن يشغل كاهل صلاح الدين. لذلك لما صلاح الدين إلى تعميم نظام الإقطاع الحربي، يعني أن ينحضر أمراء الأجناد بما يوزع عليهم من أقطاعات بالإتفاق على كثائهم التي تدخل ضمن الجيش العام زمن الحرب .

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم الجيش الأيوبي عدة مرات ، ففي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) بلغت عدة الجيش الأيوبي في مصر ٨٢٤٠ فارساً منهم ١١١ أميراً و ٦٩٧٦ فارساً من الطواشة و ١١٥٣ قراغلامية أي جندية عاديأ . ووصلت النفقة على هؤلاء ٣٦٧٠٦٠٠ دينار^(١) . على أن الجيش الأيوبي لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبي ، فانخفض ذلك كلما بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحي ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، ثم ازداد الجيش وارتفاع نفقاته أيام السلطان السكامل عندما هددت مصر الجملة الصليبية الخامسة .

وبالإضافة إلى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقاً مساعدة من التركان والأكراد والعرب ، وهؤلاء كانوا بمتابة جند غير نظاميين ، يعملون مقابل ما يتلقاونه من أجور ، وإن كانوا لم يقولوا — في حالات كثيرة — عن الجند النظاميين حماسة ورغبة في الجهاد^(٢) .

أما عن تنظيم الجيش فكان ينقسم إلى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين ٧٠ ، ٢٠٠ جندية . وعلى رأس كل طلب أمير (أي ضابط) وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزبد والنفقات على الجندي ، على أن يستحضر كل جندى ما يلزم من كميات المؤن . ويذكر العميد السكاكي أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة

(١) المرجع السابق ، السلوك ، ج ١ ص ٧٥

(٢) وأبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦

٥٧٣ (١١٧٧ م) نودي بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤنة في أرض العدو . فأقيم لذلك سوق للعساكر ، وأقبل الجندي على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الإقامات الإقطاعية المعتادة^(١) .

هذا عن الجيش ، أما الأسطول المصري ، فكان في حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية ، بسبب التخلل الذي أصاب جميع أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمي من ناحية ، فضلاً عن فقدان جزيرتي قبرس وكريت ، وكانتا بثابة القواعد الامامية للأساطيل الإسلامية في شرق حوض البحر المتوسط وخاصة في حلبة الصراع بين المسلمين والروم . ثم كان وصول الصليبيين إلى الشام في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد واستيلاؤهم على معظم الموانئ الكبرى في بلاد الشام ، في وقت كانت وحدة النضال تجعل مصر والشام متهمتين لبعضهما البعض . وقد لمس صلاح الدين بنفسه في الدور الأول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الأسطول المصري إلى تمسكين عموري الأول ملك بيت المقدس من القيام بهجومه على الجريمة التي أوصلته إلى قلب البلاد ، في الوقت الذي اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيحية في حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — في طعن صلاح الدين في الدور الأول من تاريخه بمصر .

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالأسطول اهتماماً بالغًا ، فعهد إلى ديوان الأسطول بالإشراف والإتفاق عليه ، وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة فضلاً عن حصيلة النطرون^(٢) . وقام ديوان الأسطول بالإتفاق على المشغلين بالأسطول ،

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) حسين بن محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .

فضلاً عن النفقه على دور الصناعة — حيث كانت تصنع السفن ، وهى ثلاثة في مصر والاسكندرية ودمياط^(١) .

وبفضل هذه الإمكانيات ، غدا الأسطول الصلاحي منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشوانى وهى المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التي تحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلاً وتصلح في حالات الهجوم والدفاع^(٢) ، وعشرون طرادة وهى سفن سريعة الحركة تحمل الخيل ، ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر^(٣) ، وقسم صلاح الدين هذا الأسطول إلى قسمين ، الأول يتألف من ثلاثة سفينتين مهمتها حماية شواطئ مصر والدفاع عنها ، والثانى يتألف من ثلاثة سفينتين مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانئهم بالشام^(٤) .

ولم يلبث أن قام هذا الأسطول بواجبه على أتم وجه ، فأقلق بال الصليبيين بالشام ، وهاجم مواطنهم السكري مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التي تحمل لهم الإمدادات من الغرب . وعندما أقدم أرنات صاحب حصن الكرك الصليبي على إزالة أسطول في البحر الأحمر — قرب أيله — سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) وشرع في مهاجمة الموانئ المصرية — مثل عيداب — في طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين أوامره إلى أخيه العادل بمصر فأعاد أسطولاً قوياً في البحر الأحمر . وكانت السفن تصنع في دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجبال إلى شاطئ البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيتها . وخرج ذلك الأسطول تحت قيادة الحاجب حسام

(١) ابن عاتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية ص ٣٥٢ .

(٣) ابن عاتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ ، أبو بهامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢ .

الدين لوثقى — متولى الأسطول بديار مصر عندئذ — « فظفر به راكب الفرنج فرقها وأسر من فيها »^(١) وهكذا أثبت الأسطول المصرى وجوده في البحرين المتوسط والأحمر. وازداد دور هذا الأسطول بروزاني الأحداث التي أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، إذ قام الأسطول بدور فعال في مساعدة صلاح الدين في الاستيلاء على بعض الموانى المأمة بالشام مثل عكا.

على أنه يبدو أن مهمة خلفاء صلاح الدين فترت عن الإهتمام بالأسطول ، فضعف شأنه وأثره . وفي ذلك يقول المقريزى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إستمر الحال في الأسطول قليلا ثم قل الإهتمام به ، وصار لا يذكر في أمره إلا عند الحاجة إليه ، فإذا دعت الضرورة إلى تجميذه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرق ، وقيدوا في السلسل نهاراً ، وسجنو في الليل حتى لا يهربوا . ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبر ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطول غضب غضبا شديداً ، بعد ما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ويتبرك الناس بدعائهم »^(٢) .

ولم يكن ذلك إلا في أوآخر الدولة الأيوبية بعد أن دهمت مصر جلتان صليبيتان — الجملة الخامسة سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) والجملة السابعة سنة ١٢٤٩ م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى أيوب أهمية الأسطول في حماية البلاد . وظهر ذلك في الوجبة الشهيرة التي كتبها الصالح نجم الدين أيوب لإبنه تورانشاه والتي جاء فيها « فالإسطول أحد جناحي الإسلام ، فنبغي

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٣ من ٧٨٨ .

(٢) المقريزى : المواقف ج ٢ من ١٩٤ .

أن يكونوا شباءاً ، ورجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ، جاءوا من كل ذيق عميق ...^(١).

الفنون :

وأصل التطور الفنى تقدمه في العصر الأيوبي ، على الرغم مما أحاط بذلك الدولة من ظروف حرية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو حماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من الخطر الصليبي . ففي فن العمارة ازدهر في العصر الأيوبي عنصران من عناصر العمارة الإسلامية ، أولهما المدارس التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي ؛ وثانيةها تطور بناء الأسوار والستوكات والقلاع بتأثير ما عرفة المسلمون عند الصليبيين بالشام^(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين عند بداية دولته في مصر كان يحشى خطاً داخلياً من جانب شيعة الفاطميين وخطراً خارجياً من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) . ويرجع الفضل إلى الباحثة على بك بهجت في الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم وأصل التحقيق بعده الاستاذ حسن الهواري حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١٣٠ متراً . وقد أشرف على بناء هذا السور أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين — وهو مهندس القلعة أيضاً — وكان هذا السور هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عبد صلاح الدين ، وقد بني الأول جوهر الصقلى وبني الثاني بدر الجمالى . وكان هذان السوران الأولان من الآلين ، في حين كان السور الثالث الذى بناه صلاح الدين من الحجارة^(٣) .

(١) التوييري : نهاية الارب ب ٢٨ ورقة ٩٢

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام من ٤٨ - ٦٩

(٣) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وتلارع إسلامية معاصرة ، ص ٩٧ وما بعدها

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشهابية تقترب من شكل المستطيل وطا أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبي جدار سميك ذو أبراج ، وفي وسط الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجنوبي . والجزء الشهابى من القلعة كان الحصن نفسه ، أما الجزء الجنوبي فسكان يضم الملاحق والقصور السلطانية وما يتبعها من استنباطات وغيرها . ويغلب على الظن أن الجزء الشهابى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، في حين أن الجزء الجنوبي الذى يشمل الملاحق تم على عهد السلطان السكامل الأيوبي^(١) . وقد سار العمل في بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة تشهد على مهارة قراقوش وحزمته ، وجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . ويقال إنه عمل في القلعة والسور آلاف من أسرى الصليبيين . وفي الجهة الجنوبي من القلعة نحت قرافقش بئراً في الصخر أطلق عليه اسم بئر يوسف ، نسبة إلى صلاح الدين يوسف وعرف هذا البئر باسم الحلوون ، وبهأاف من طابقين عمق الأول خمسين متراً والأخر أربعين ، ولكل طابق منها ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب . وقيل أن ماء البئر كان عذباً في أول الأمر حتى أراد قرافقش توسيعها فاتصلت بعين مالحة فأسدت ماء البئر ، الأمر الذي جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل في إمدادها بالماء^(٢) .

وتحت قلاع أخرى بناها صلاح الدين في مختلف أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وقلعة فرعون في جزيرة فرعون في خليج العقبة والغرض منها منع اختصار الصليبي من الإمتداد إلى البحر الأحمر ، وخاصة بعد أن قام أرнат صاحب السكرنك بحملته الشهيره التي استهدفت الحجاز سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) .

(١) نظير حسان سعداوي : التاريخ العربي المصري من ١٠٢ — ١٠١

(٢) القلعة الشهابي : صحیح الاعشی ج ٣ من ٣٣٠ — ٣٣٢

هذا عن العوائـر الحـرية فـي العـصـر الـأـيـوبـي ، أـمـا عـنـ العـوـائـرـ المـدـنـيـة ، فـأـهـمـ مـاـ بـقـىـ مـنـهـاـ الـيـوـمـ قـبـةـ الـإـمـامـ الشـافـعـيـ الـتـىـ أـنـشـأـهـاـ سـنـةـ ٦٠٨ـ هـ (١٢١١ـ مـ) السـلـطـانـ السـكـالـيـ ، وـتـمـتـازـ بـهـاـ فـيـهـاـ نـقـوـشـ وـزـخـارـفـ ، مـعـ مـلـاحـظـةـ أـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـمـرـاءـ قـامـ بـتـجـيـيدـهـاـ فـيـ الـعـصـورـ التـالـيـةـ . وـمـنـ مـدـارـسـ الـعـصـرـ الـأـيـوبـيـ تـوـجـدـ مـدـرـسـةـ الصـالـحـيـةـ الـتـىـ أـنـشـأـهـاـ الصـالـحـ نـجـمـ الدـينـ أـيـوبـ سـنـةـ ٦٤٠ـ هـ (١٢٤٢ـ مـ) وـقـدـ تـعـرـضـتـ لـلـخـرـابـ عـلـىـ مـرـعـورـ ، فـلـمـ يـقـيـ مـنـهـاـ الـيـوـمـ إـلـاـ مـدـخـلـهـ وـوـاجـهـهـ غـنـيـةـ بـالـنـقـوـشـ وـالـكـتـابـاتـ التـارـيـخـيـةـ .^{١١}

أـمـاـ عـنـ فـنـ الـجـفـرـ ، فـقـدـ اـحـفـظـ الـحـفـرـ عـلـىـ الـخـشـبـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـيـوبـيـ بـالـاسـالـيـبـ الـفـنـيـةـ الـتـىـ كـانـتـ مـتـبـعـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـفـاطـمـيـ ، غـيـرـ أـنـ الـزـخـارـفـ الـنبـاتـيـةـ أـصـبـحـتـ أـكـثـرـ إـتـقـانـاـ ، كـاـحـ حلـ خـطـ النـسـخـ مـعـلـ الخـطـ السـكـوـفـ . وـمـنـ بـدـائـعـ أـمـثـلـةـ الـحـفـرـ عـلـىـ الـخـشـبـ الـأـيـوبـيـ تـابـوتـ الـأـمـرـيـةـ الـعـادـلـيـةـ بـضـرـبـ الـإـمـامـ الـشـافـعـيـ ، فـيـ حـيـنـ أـنـ تـابـوتـ هـذـاـ الـإـمـامـ نـفـسـهـ يـعـتـبرـ أـعـظـمـ الـمـنـتـجـاتـ الـخـشـيـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـيـوبـيـ (٢) . وـيـنـافـ غـطـاءـ التـابـوتـ وـجـوـانـبـهـ مـنـ حـشـوـاتـ ذاتـ زـخـارـفـ نـبـاتـيـةـ دـقـيقـةـ بـجـمـعـةـ فـيـ أـطـبـاقـ نـجـمـيـةـ وـأـشـكـالـ مـسـدـسـةـ . وـتـابـوتـ غـنـيـ بـالـنـقـوـشـ الـمـكـتـوـبـةـ بـخـطـ النـسـخـ وـخـطـ السـكـوـفـ ، مـنـهـاـ نقـشـ باـسـمـ النـجـارـ الـذـىـ صـنـعـهـ وـهـوـ عـبـيدـ النـجـارـ الـمـعـرـوفـ بـاـبـنـ مـعـالـيـ ، وـتـارـيخـ صـنـاعـتـهـ وـهـوـ سـنـةـ ٥٧٤ـ هـ (١١٧٨ـ مـ) . وـمـنـ أـعـظـمـ الـتـحـفـ الـخـشـيـةـ كـذـالـكـ تـابـوتـ الـذـىـ نـقـلـ مـنـ الـمـشـدـدـ الـحسـيـنـيـ بـالـقـاهـرـةـ إـلـىـ دـارـ الـأـثـارـ الـعـرـيـةـ ، وـهـوـ مـصـنـوـعـ مـنـ خـشـبـ السـاجـ الـهـنـدـيـ وـتـنـقـسـمـ جـوـانـبـهـ إـلـىـ مـنـاطـقـ مـسـتـطـيلـةـ تـحـبـسـ إـلـاـتـارـاتـ عـلـيـهـاـ كـنـابـاتـ بـخـطـ النـسـخـ الـأـيـوبـيـ وـبـخـطـ السـكـوـفـ . وـجـيـعـ هـذـهـ الـكـتـابـاتـ عـبـارـةـ عـنـ آـيـاتـ مـنـ

(١) ذـكـيـ حـمـدـ حـسـنـ : فـنـونـ إـلـاسـلامـ ؛ شـ ٧٠

(٢) دـيمـانـدـ : الـفـنـونـ إـلـاسـلامـيـةـ ، صـ ١٢٢

القرآن الكريم . وكذلك يوجد في دار الآثار العربية ثلاثة جوانب من تابوت خشبي جميل خاص بالأمير حصن بن شعلب المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) في حين أن الجانب الرابع من هذا التابوت محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن ^(١) .

أما النحت في الحجر والجص فقد ظلت الأساليب الفاطمية فيه سائدة في العصر الأيوبي . ومن أبدع أمثلة الحفر في الجص في العصر الأيوبي الجزء الأسفل من المنارة الأيوبية فوق الباب الأخضر بالمشهد الحسيني بالقاهرة ^(٢) أما النحت في الحجر فمن أمثلته في العصر الأيوبي واجهة قبة أبي منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسخ على أرضية نباتية وإفريز من زخارف هندسية ونباتية .

أما الحفر على العاج زمن الأيوبيين ، فقد ظلت متقدمة فيه أساليب الفاطميين ، وإن كانت الزخرفة اقتصرت على الأشكال النباتية والهندسية . ولم تصلنا أمثلة كثيرة من تحف عاجية ترجع إلى ذلك العصر .

وأما عن صناعة الخزف فقد أخذت تصميمل في مصر منذ نهاية القرن السادس الهجري ، وإن كانت قد أزدهرت بعد ذلك في الشام في القرنين التاليين . وقد جرى الخزافون المصريون والسوريون في العصر الأيوبي على استخدام الأشكال الزخرفية والأساليب الفنية التي عرفها العصر الفاطمي ، ويتبين ذلك في الأواني المدهونة بطلاء واحد تقليداً للخزف الصيني . هذا في حين أخذ يختفي الخزف ذي البريق المعدني من مصر ^(٣) .

(١) زكي محمد حسن : أطليس الفنون الزخرفية من ١٢٣ - ١٢٥ ، فنون الإسلام من ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٨٥

(٣) ديماند : الفنون الإسلامية من ٢١٨

وعلى العكس ازدهرت صناعة الزجاج في العصر الأيوبي ، حتى أن الباحثين يتخذون نهاية القرن الثاني عشر للميلاد بداية العصر الذهبي لهذه الصناعة في العالم الإسلامي . وبلغت هذه الصناعة أجل صورها في تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . هذا مع ملاحظة أن فضل التقدم بهذه الصناعة في ذلك العصر إنما يرجع إلى الصناع السوريين — وخاصة في حلب ودمشق — وإن كانت مصر قد ساهمت بتصيب وافر في إنتاج الزجاج المطل ، مثلها ساهمت العراق وإيران^(١) .

أما عن التحف المعدنية ، فالمعروف أن كثيراً من أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وقد اشتغل هؤلاء الفنانون للأمراء الأيوبيين في دمشق وحلب والقاهرة ، ونقلوا معهم الأساليب الفنية ، التي ألقواها في بلاد الجزيرة^(٢) . ومن القطع المعدنية التي ترجع إلى الأيوبيين بعض أواني ذات موضوعات زخرفية مسيحية تحمل أسماء بعض سلاطين بنى أيوب ، الأمر الذي يرجع إلى تسامح هؤلاء المسلمين . ويوجد في متحف اللوفر إناءان من النحاس المكفت بالفضة قوام زخرفةهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليها كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف .

أما في المنسوجات فقد ورث العصر الأيوبي عن العصر الفاطمي أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وإن كانت أقمشة العصر الأيوبي أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمي . كذلك يلاحظ أن نسج السكتان أخذ يضمحل منذ عصر الأيوبيين لزداد العناية بنسج الحرير ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨

(٢) زكي محمد حسن : قنوز الإسلام ص ٥٤٩ — ٥٥٠

وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ومصنوعة بخرازة متناثرة وعلوها
كتابات نسخية وكوفية ، ويذكر إرجاع هذه المجموعة إلى القرن
الثاني عشر للميلاد^(١) .

* * *

وبعد ، فإنه يتضح من العرض السابق أن عجلة الفن لم تتوقف
في عصر الأيوبيين ، وأن صليل السيف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم
الحضاري . وفي الوقت الذي كان بنو أیوب يخوضون أضخم معركة
للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم السكرى في القرن السابع للميلاد ،
إذا بالمدارس تفتح ، والمسكبات تنشأ ، والخeson والقلاع تبني ، والصناعات
والحرف والفنون توافق تقدماً في إقامة أعظم بناء حضاري شهدته
العصور الوسطى ، وهو بناء الحضارة الإسلامية .

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ، من ٤٥٧

الباب الثاني

دولة المماليك

الفصل الأول

قيام دولة المماليك البحرية

رأينا في الباب السابق كيف انقسمت الدولة الايوية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) فصارت مصر ودمشق وحاب والكرك وبصرى وبعلبك وجبل عامل وسقاه . . . وغيرها ، مراكن لامارات يحكمها بعض أبناء البيت الايوبي الذين تاقبوا بالملوك . كذلك رأينا كيف دب الشقاقي بين ملوك بنى آيوب ، وأدى التزاع إلى قيام حروب فيما بينهم وبين بعض ؛ فضلاً عن المنازعات التي ظلت قائمة بين ملوك بنى آيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الادنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسبعينجوار وكيفا وآمد وخربت ، فضلاً عن بنى سكاكان في خلاط^(١)

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمت العلاقات بين حكام المسلمين في الشرق الادنى — وخاصة في مصر والشام — حرص كل حاكم أو ملك على تسوين عصبية لنفسه يعتمد عليها في الاحتفاظ بامارته أو في صد عدو اذ سجين انه . ولم يجد أمراء المسلمين في ذلك العصر — سواء كانوا آيوبيين أو غير

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر المماليكى في مصر والشام : ص ٣ .

أيوبين – وسيلة لتحقيق هدفهم إلا عن طريق الإكثار من شراء المالك
 – أو الرقيق الأبيض – فاشتروا منهم أعداداً كبيرة وعنوا بتدريبهم
 وقلشاً لهم ليكونوا لهم عدة وسندآ . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من
 القرن السادس الهجري والنصف الأول من القرن السابع (القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) إزدياد نفوذ المالك في مختلف الإمارات
 والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر . وسرعان ما غزا لاولئك
 المالك كلية مسموعة في الأحداث والخلافات التي تعرضت لها المنطقة
 مما يدل على ازدياد سلطتهم . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه عندما توفي
 الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ١١٩٨ م (٥٥٩٥) وتطلع العادل
 أخوه صلاح الدين للاستيلاء على مصر ، خشي المالك الأسدية والصالحية
 في مصر سطوة العادل ، فدخلوا فوراً ، واستدعوا الملك الأفضل من
 حوران وسلموه مقاييس الامور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ م (٥٥٩٥)^(١) .

ومرة أخرى نسمع أن المالك هم الذين دبروا مؤامرة لعزل العادل
 الثاني وإخلال الصالح نجم الدين أيوب محله في السلطنة سنة ١٢٣٩ م
 (٦٣٧)^(٢) .

والواقع إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في
 تكوين فرقه جديدة من المالك قدر ما أن تهضي بدور خطير في التاريخ ،
 هي فرقه المالك البحريه . ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحسن بفضل
 المالك عليه في الوصول إلى دست السلطنة من ناحية ، كما أحسن بحاجته
 إلى جيش قوى من المالك يسانده ، بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى
 من الجند المرتزقة من ناحية أخرى ؛ فدفعه كل ذلك إلى تكوين تلك الفرقه

(١) المقريزى : السلوك ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

الجديدة . وف ذلك يقول ابن أبيك عن الصالح نجم الدين أبوب أنه اشتري من المالك الترك مالم يشتري أحد من المالك شله من قبله حتى عاد أكثر جيشه مالك ، وذلك لكثره ما جرب من غدر الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش ^(١) .

أما عن السبب في تسمية هذه الفرقه بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أبوب جزيرة الروضه في بحر النيل مركزاً لهم . وكان معظم هؤلاء المالك من الأتراك ، مجلوبيين من بلاد القفقاقي - شمال البحر الأسود - ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون على أن الأتراك القفقاقي امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس ، فضلاً عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة ، والظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بصر في أواخر العصر الأيوبي من جهة أخرى ، تسكن المالك من الاستئثار بحكم مصر ، كاسنة فصل فيما بعد . ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات إلى السلطة ، وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلث (٦٤٨ - ٥٧٨٤ = ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التي واجهت المسلمين في مصر والشام عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبيين والمغول ، أو داخلية في صورة مؤامرات أو أزمات إقتصادية . وعندما دالت دولة المالك البحرية حل محلها دولة أخرى من المالك أيضاً ، هم المالك الجراكسة أو البرجية (٥٩٢٢ - ٥٧٨٤ = ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) وبذلك تكون مصر قد استمرت تحت حكم سلاطين المالك أكثر من قرنين ونصف قرن ، أي حتى غزا السلطان سليم العثماني البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك المدة ، ظل المالك يمثلون أورستقراطية حاكمة

(١) ابن أبيكشند ، كنز الدرر و جامع اللوز ، ج ٧ ورقة ٣٠٠ .

بوصفهم الجهاز الحربي الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها . وإذا كان المالك البحري الأول معظمهم من الأتراك الفجاق، فإنه ليس معنى ذلك أن جميع المالك فى مصر والشام طوال ذلك العصر كانوا يتبعون إلى ذلك العنصر وحده . ذلك أنه بدأت تصل إلى مصر منذ عهد بيبرس دعوات من المالك من أصل مغولى، وهؤلاء ارتفوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه (٦٩٤ - ٧٩٦ = ١٢٩٤ - ١٢٩٦ م) كان مغولى الأصل . وفي ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض العادات المغولية فى مصر على عصر سلاطين المالك مثلأكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات وصناعة بعض أنواع المخور من لبن الخيل بالذات .

وعندما وجد تجار الرقيق أن سلاطين المالك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة، نشطوا فى جلب المالك، وأسمائهم فى هذه التجارة أيضاً بعض التجار الأوروبيين -- وخاصة المدن الإيطالية -- الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المالك إلى مصر . وهكذا نجد أصول المالك فى مصر وقد أخذت تنوعاً واسعاً واصحاً منذ القرن الثامن الهجرى آى الرابع عشر للميلاد ، إذ وجد منهم الأتراك والشركس والمغول والصقالبة واليونانيين والاسبان والألمان ... وغيرهم . وقد أنتسب هؤلاء المالك غالباً إلى أسرائهم آى ساداتهم الذين اشتراهم بالمال من التجار ، وأشاروا على تربتهم . فالمالك الظاهرية بيبرس نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، والمالك الأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا . وأحياناً نسب المملوك إلى تاجره الذى جلبه كمالك العثمانية ، أو إلى قيمته التى اشتري بها إذا كانت كبيرة تستحق الفخر لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة في ذلك المملوك ، مثل قلاون الائفى الذى اشتري بألف دينار .

هذه الكلمة عامة وجزء عن أصل المالك الذين حكموا مصر في فترة من

أهم فرات تاریخها في العصور الوسطى ، وبقى أن نعرف كيف تمکن هؤلاء الملاليك من أن يحلوا محل سادتهم الأيوبيين في حكم مصر .

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر في الحكم .

الواقع إن انتصار الملاليك البحريية على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور (١٢٥٠ م = ٦٤٧ هـ) أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم لاحساسهم بأنهم أصحاب فضل في إنقاذ مصر من خطر ضياع . وكان ذلك في الوقت الذي وصل إلى مصر توران شاه ابن الصالح نجم الدين أيووب وصاحب الحق الشرعي في حكم البلاد ، كما ذكرنا في الباب السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان سلطاناً جديداً يريد أن يحسن إسطوطنه وخطوره منصبه ، ويباشر سلطاته على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه في الملاليك البحريية حجر عثرة تعرض سلطاته المطلقة ، مما أدى إلى سوء العلاقات بين الطرفين من أول الأمر .

وخير ما يوضح لنا رغبة السلطان المعظم توران شاه في ذلك الدور الأول من حكمه في الاستئثار بالنفوذ والسلطان ، ما يرويه المقريزي من أنه لم يكدر يطمئن إلى هيبة الصليبيين في المنصورة وفارسكور حتى «أخذ في إبعاد رجال الدولة » ، فتخلص من كل من تخلى منافسهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغيث عمر الأيوبي الذي أخرجه توران شاه من قلعة الجبل إلى الشوباك حيث اعتقل . وكذلك أخرج الملك السعيد شرف الدين حسن الأيوبي من مصر إلى دمشق حيث اعتقل أيضاً . أما كبار موظفي الدولة الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الأمير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضاً وأحل محلهم غيرهم^(١) بل إن توران شاه لم يحفظ الجبل

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٨ .

لزوج أبيه شجر الدر ، التي حفظت له عرشه وملكته بعد وفاته أبيه ، فأرسل إليها — وكانت قد خرجت إلى بيت المقدس — يهددها ويطالعها بمال أبيه . وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه « لما بدا منه من الموج والخفة ، فكانت بتهم الماليك البحريـة بما فعلته في حقه من تميـد الدولة وضـبط الأمـور حتى حضر وـتـسلـمـ المـلـكـةـ ، وما جـازـاـهـ بـهـ مـنـ التـهـيدـ وـالـمـطـالـبـ بما ليسـعـنـدهـ(١) » .

ولم يكن الماليك في مصر في حاجة إلى مزيد من النجـرـيـضـ ضدـ تورـانـ شـاهـ . وتروى المراجع أن الفارس أقطـائـ الـذـىـ أـرسـلـتـهـ شـجـرـ الدرـ لـاستـدـاعـ تورـانـ شـاهـ منـ حـصـنـ كـيفـاـ ، كانـ قدـ حـصـلـ منـ تورـانـ شـاهـ — عـقـبـ البـشـارـةـ — عـلـىـ وـعـدـ مـنـهـ بـأـنـ يـؤـمـرـهـ ، وـلـكـنـ تورـانـ شـاهـ عـادـ فـتـكـرـ وـامـتنـعـ عـنـ الـوـفـاءـ بـوـعـدـهـ . فـتـكـرـ لـهـ أـقطـائـ وـكـتمـ الشـرـ ، فـحـرـكـ كـتابـ شـجـرـ الدرـ مـنـهـ سـاكـنـهـ ثمـ إنـ المـالـيـكـ اـشـتـدـ اـسـتـيـأـوـهـ مـنـ تورـانـ شـاهـ عـنـدـمـاـ وـجـدـواـهـ اـحـتـيجـ بـعـنـهـ ، وـأـنـصـرـفـ إـلـىـ الـفـسـادـ وـعـبـتـ بـهـمـ وـيـنـخـطاـيـاـ أـبـيهـ . وـأـخـيرـ آـدـرـكـ الـبـحـرـيـةـ سـوـهـ مـاـ يـضـمـرـهـ هـلـمـ تورـانـ شـاهـ مـنـ سـوـهـ عـنـدـمـاـ رـأـوـهـ وـهـوـ سـكـرـانـ بـالـلـيـلـ يـجـمـعـ الشـمـوـعـ بـيـنـ يـدـيـهـ وـيـضـرـبـ رـؤـوسـهـاـ بـالـسـيـفـ وـاحـدـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ حـتـىـ تـقـطـعـ وـيـقـولـ « هـكـذـاـ أـفـعـلـ بـالـبـحـرـيـةـ »ـ وـيـسـمـيـ كـلـ وـاحـدـ مـنـ زـعـمـاءـ الـبـحـرـيـةـ بـاسـمـهـ(٢)ـ .

وهـكـذـاـ لمـ يـقـعـ أـمـامـ الـبـحـرـيـةـ إـلـاـ أـنـ يـقـتـلـواـ تورـانـ شـاهـ قـبـلـ أـنـ يـقـتـلـهـ هوـ ، فـأـسـتـقـرـ رـأـيـهـ عـلـىـ تـقـيـيـدـ خـطـمـهـ عـنـدـ نـزـولـهـ فـفـارـسـكـورـ . وـلـمـ يـكـدـ يـمـدـ السـاطـ عـقـبـ وـصـوـلـ الـمـعـظـمـ تورـانـ شـاهـ إـلـىـ فـارـسـكـورـ وـيـجـلسـ السـلـطـانـ عـلـىـ عـادـتـهـ ، حـتـىـ تـقـدـمـ إـلـيـهـ وـاحـدـ مـنـ الـبـحـرـيـةـ — هوـ يـبـرـسـ الـبـنـدـقـدـارـيـ — وـضـرـيـهـ بـالـسـيـفـ فـأـطـلـارـ أـصـابـعـ يـدـهـ ، وـعـنـدـهـ أـسـعـ تورـانـ شـاهـ بـالـفـرـارـ

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٠ ; المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٩-٣٥٨ .

إلى برج خشبي قد نصب له في فارشكور، وهو يصبح « من جرحني » فقالوا له « الحشيشية »، ولكنه قال « لا والله إلا البحريه » والله لا أبغيت منهم بقية ». وهذا رأى البحريه أن يسرعوا في العمل فقال بعضهم لبعض، « تموه وإلا أبادكم »، فبادروه بالهجوم على البرج ». ولكن توران شاه احتتمى بأعلى البرج وأغاث بابه، والدم يسيل من يده، فأضرم البحريه النار في البرج، حتى اضطرب توران شاه إلى الفرار منه وألقى نفسه في ماء النيل والبحريه تلاحظه بالشاحب، حتى غرق، فات جريحاً حريقاً غريقاً ..^(١). وبقتل توران شاه هـ ٦٤٨ (١٢٥٠ م) انقضت دولته حتى أيوب من أرض مصر، بعد أن حكمو البلاد إحدى وثمانين سنة ..^(٢).

سلطنة شجر الدر :

يبدو أن قتله تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم مصب السلطنة، فأجهزوا على تولية شجر الدر ذلك المصب. ولاشك في أن شجر الدر تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ولذلك يعزبها المقريزى « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »،^(٣) وقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت « خيرة دينه رئبة حظيمه في النقوس ».

ولتكن قيام امرأة في حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها ». وقد أحست شجر الدر نفسها بما لوضعها من حرج نكانت لا توقيع باسمها على المناشير، وإنما جعل توقيعها « والدة خليل » . كذلك نقش اسمها على السكة (النقوش) فصيغه المستعصمية الصالحية، ملوك المسلمين، والدة الملك المنصور خليل .. أما الخطيباء في المساجد، فكانوا يقولون في الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة

(١) ابن واصل : مهرج السكر و ب ج ٢ ص ٢٧١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

الصالحية ، ملحة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » . ويفهم من هذا كله أن شجر الدر تحرجت - أن تذكر اسمها صراحة في المناسبات الرسمية ، فضلاً عن أنها أرادت أن تضفي على حكمها صبغة شرعية ، فهي حينها تتمسح بالخلافة العباسية وتتمسك بلقب « المستعصمية » إشارة إلى صلتها بالخلفية العباسى المستعصم^(١) ، وأحياناً تتمسّك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » إشارة إلى صلتها بالبيت الأيوبي والملك الصالح نجم الدين أيوب بوجه خاص ٠

جلاء الفرنسيين عن دمياط :

وكان أولى المشاكل التي واجهت السلطانة شجر الدر هي أنها قامت في السلطنة ، والفرنسيون مازالوا في البلاد . حقيقة إن لويس التاسع كان أسيراً في المتصورة ، ولكن دمياط نفسها ظلت قاعدة بحرية في قبضة الفرنسيين . وما دام الأمر كذلك فإن خطر الصليبيين على مصر يأججها مازال يباقيا ، لأن الفرصة قائمة أمام الغرب الأوروبي لإزالة حملة جديدة في دمياط . لذلك كان على شجر الدر أن تفسّر في وسيلة لاسترداد دمياط أولاً قبل القيام بأية خطوة أخرى في الداخل أو الخارج .

وكان أن ندب الأمير حسام الدين محمد لما وضأه لويس التاسع ، بفرت مفاوضات طويلة^(٢) . وبعد مخاورات ومراجعات ، ثم الإتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدماً ، وأن يخلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الإتفاق أرسل لويس

(١) كانت شجر الدر باردة الخالية المستعصم العباسى قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب . (Lane-Poole : A hist. of Egypt, p. 526).

(٢) ابن واحد : مفرج السكري ج ٢ ورقة ٣٧٣ .

الناسع إلى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسلیم المدينة لل المسلمين ، ولكنهم تمنعوا
كثيراً حتى وافقوا أخيراً على ذلك . وفي الوقت نفسه قامت زوجة لويس -
و كانت بدمياط - بجمع نصف الفدية المتفق عليها ، فأفرج عن زوجها .
أما بقية الأمرى - و عددهم أكثر من إثنى عشر ألف أسير - فقد ظلوا
في الأسر لحين دفع باقى الفداء المطلوب منه^(١) .

موقف بنى أیوب من السلطنة المماليکية :

ذكرنا أن مقتل توران شاه وقيام شجرة الدر في الحكم يعنيان نهاية
حكم الأيوبيين وبداية حكم المماليك في مصر . وقد جرت العادة أن يكون
سلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هميته على بقية الملوك والأمراء في بلاد
الشام . ولذلك بادرت شجرة الدر عقب سلطنتها إلى إرسال الخطيب أصيل
الدين محمد لاستخلاف أمراء الشام على الولاية للسلطانة الجديدة^(٢) . ولكن
لم يكن متضراً من أمراء الأيوبيين أن يرتكبوا الخضوع لحكامهم ، لاسيما
 وأن بنى أیوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر
والشام بوصفهم سلاطنة صلاح الدين .

وكان أن بدأت تشتعل نار الثورة في الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة
في مصر ، فأبى ملوك بنى أیوب أن يعترفوا بما تم في مصر من قيام المماليك في
الحكم وإعلان شجرة الدر سلطانة . وكان معظم توران شاه - وهو في طريقه
من كييف إلى مصر - قد عين الأمير جمال الدين بن يغمور نائباً للسلطانة في دمشق ،
فامتنع ذلك الأمير عن الخلاف لشجرة الدر^(٣) . كذلك وجد بدمشق عندئذ

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج السكريون ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

فتحة من المهايلك - أطلق عليهم اسم القيمورية^(١) ، فامتنعوا أيضاً عن الاعتراف بالولاية للنظام الجديد . وهكذا اختلت أوضاع الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان على مال مدينة غزرة واتجه نحو الصبيحة فملأكمها^(٢) ؛ وثار الطواشى بدر الدين أواد الصالحي - نائب الكرك والشوبك - واتجه إلى الشوبك حيث أخرج الملك المغيث عمر الأيوبي من الحبس ، وملأكمه الكرك والشوبك وأعماها ، وخلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنها^(٣) .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى آيوب يتكتلون بالشام الوقوف في وجه المهايلك في مصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملأكمها الأيوبيين . وكان أن كتب الأمراء القيمورية من دمشق إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب يعرفوه بالامتناع عن الخافش اشجار الدر ، ويطلبون منه الحضور إلى دمشق لتسليمها إليه . وقد استجاب الناصر يوسف لتلك الدعوة واتسلم دمشق في سهولة ، فقلع على الأمراء القيمورية وعلى جمال الدين بن يغمور^(٤) . وأخيراً أدرك المهايلك في مصر أن الأمر ليس بالسهولة التي توقعوها ، وأن موقف الأيوبيين في الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي أخذ الخليفة العباسي المستعصم بالله يعيّب على أهل مصر أنهم اختاروا امرأة لتحكمهم فأرسل إليهم يقول « إن كانت الزوجة قد عدّت عنديكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجالاً »^(٥) . ولمواجهة هذه المشاكل مجتمعة ، وجد أمراء المهايلك بصر أنه من المصلحة أن تتزوج شجر الدر

(١) نسبة إلى قلعة قيمير قرب الموصل

(٢) العقفي: عقد الجوانج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣١٨ .

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ من ٣٦٦ .

(٤) المقريزى: نهاية الأدب ج ٢٧ ورقة ٩٧ ؛ ابن أبيك: كنز الدرر ج ٧ ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٥) المقريزى: السلوك ج ١ من ٣٦٧ .

من الأمير عز الدين أبيك - اتابك العسكر - على أن ترك له السلطنة .
وكان أن تهمت هذه الخطوة (٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م) ، فخلعت شجر الدر
نفسها من علامة مصر ، وتنازلت عن الحكم لابيك ، بعد أن ظلت في السلطنة
ثمانين يوماً برهنت فيها على « حسن سيرها وغیر عقلها وجودة تدبيرها »^(١)

السلطان المعز أبيك التركانى :

أول المعز أبيك السلطنة سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م ليجد نفسه أمام
مشاكل كثيرة خطيرة ، أولها تهديد الأيوبيين بغزو مصر ذاتها . وقد جلب
المماليل إلى العوبية يتحمّلون بها على تخديربني أیوب ، ذأتوه بطفل صغير
من أبناء البيت الأيوبي اسمه الأشرف موسى وعمره ست سنوات ، وأقاموه
سلطاناً ليسكون شريكاً للمعز أبيك في الحكم . وبذلك صارت المراسيم تخرج
باسم المماليك الشرقيين الأشرف والمعز ، إلا أن الأشرف ليس له سوى
الاسم في الشركة لاغير ، وبهجم الأهور بيد المعز أبيك^(٢) .

غير أن هذه الخديعة لم تجذب على الأيوبيين في الشام ، فجمعوا قواهم بزعامة
الناصر يوسف الأيوبي وزحفوا على مصر يريدون حرب المماليل والقضاء
عليهم . وكانت القوة الرئيسية من المماليل التي خرجت للقاء الجيش الأيوبي
تتألف من البحريية . وفي سنة ٦٤٨ هـ (٢ فبراير سنة ١٢٥١ م) دارت
موقعة فاصلة بين الطرفين قرب العباسة بالشرقية ، انهزم فيها الأيوبيون
وفر الناصر يوسف ورجاله عاصدين إلى الشام^(٣) . ولا شك في أن هذه
الموقعة كان لها أثراًها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليل الناشئة ، الأمر
الذى شجع المعز أبيك بعد ذلك بشهر على إرسال جيش بقيادة فارس الدين

(١) أبو المحاسن : النجوم الراحلة ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج السكري ج ٢ ورقة ٤٣٢؛ ابن أبيك : كنز الدرر ج ٨ ورقة ١٧ .

أقطاى - زعيم البحريّة - فاستولى على غزة .

وفي تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبيّة السابعة قد أقام بالشام عقب إطلاق سراحه من دار بن لقمان ؛ وظل يرقب الموقف بين الأيوبيين والمالويك دون أن يجاهر بالانضمام إلى جهة معينة حتى يرى ما تفسّر عنه الأحداث . فلما انجلّ الموقف بانتصار المالويك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر المالويك بتجدد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والأيوبيين . وفي سنة ٦٥٢ هـ = ١٢٥٢ م وافق المالويك في الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين في مصر وعلى إفهام لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية . بل أكثر من هذا تشير بعض المراجع إلى أن المالويك في مصر وعدوا لويس التاسع بإعطائه بيت المقدس إذا هو أيدّهم ضد الأيوبيين في الشام^(١) .

على أنه لم يقدر للعداء بين المالويك في مصر والأيوبيين في الشام أن يستمر ويزداد عنفاً ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الآدنى بأوخر العوّاقب ، وتطلب منهم أن يتحدوا لمواجهةه ؛ هو خطر المغول . وكان الخليفة العباسى في بغداد أشد إحساساً بخطر المغول ، بحكم تطرف بلاده في الشرق وقربها من دولة هولاكو في فارس ، لذلك بادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول إلى الناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق «يأمره بصالحة الملك المعز (أيلك) وأن يهتفقا على حرب التشار»^(٢) . ويبدو أن موجة الرعب التي أثارتها أخبار المغول ووحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان فسهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح في أبريل سنة ٦٥٣ هـ = ١٢٥١ م بين المالويك في مصر والأيوبيين في الشام بشرط أن يكون للمالويك مصر حتى

(١) المبنى : عقد الجان ج ١٨ درقة ٣١٤ .

Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 502.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

ـ هـر الـارـون وـلـأـيـوـيـنـ ماـورـاءـ ذـلـكـ مـنـ بـلـادـ الشـامـ ؛ـ بـعـنـىـ أـنـ تـسـتـولـىـ سـلـطـةـ
ـ الـمـالـيـكـ عـلـىـ غـزـةـ وـالـقـدـسـ وـنـابـلـسـ وـالـسـاحـلـ كـلـهـ ،ـ نـضـلاـ عـنـ مـصـرـ (١ـ).

مقتل السلطان المعز أبيك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الايوبيين العدائى بالشام هو المشكلة الوحيدة التي واجهت المعز أبيك ، وإنما وجدت مشاكل داخلية أفلقتها وهددت سلطاته في الفترة القصيرة التي تولى الحكم فيها . وأولى هذه المشاكل جات من ناحية الماليك البحريه الذين ازداد نفوذهم ازدياداً خطيراً عقب واقعة المنصورة من ناحية ، ثم عقب الانتصار على الناصر يوسف الايوبي عند العباسة من ناحية أخرى . فجميع هذه الانتصارات كان الفضل فيها لقوة الماليك البحريه ، الامر الذي جعلهم يشعرون بنفوذهم وسطوتهم ويتمادون في عليهم وإفسادهم . ويدو أن ازدياد نفوذ البحريه في ذلك الدور لم يهدد نفوذ أبيك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم . ففي حوادث سنة ٥٦٤٨ (١٢٥٠م) يقول المقريزي « وفيها كثُر ضرر الماليك البحريه بـصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الاموال ، وسبوا الحرمين وبالغوا في الفساد حتى لو ملك الفرج ما فعلوا افعلم » (٢ـ) . وقد أدرك أبيك مدى خطورة ازدياد نفوذ البحريه ، فأقطع زعيهم الفارس أقطاى شعر الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يفلح في الحد من شرهم ، فكثُر تردهم وطغيانهم (٣ـ) . ثم يعود المقريزي فيشير في حوادث سنة ٥٦٥١ (١٢٥٣م) إلى ازدياد خطر البحريه فيقول « وفيها قويت البحريه — وكثيرهم فارس الدين أقطاى — على المعز وكثير تعنتهم واستطاعتهم وتوتهم على الملك المعز (أبيك) وهو ما بقتله (٤ـ) » .

(١) المقريزي : السلوكي ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٢) المقريزي : السلوكي ج ١ ص ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق عن ٣٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

وعندما أحس أبيك بنبأ البحريّة ، استدرج زعيمهم أقطاى إلى القلعة وقتلها ،
وعندئذ تجمّع تحت أسوار القلعة نحو سبعيناتيّة فارس من البحريّة ، فألقى
لهم أبيك رأس أقطاى . وعندئذ خاف البحريّة على أنفسهم وفرّوا إلى الشام
وعلى رأسهم الامير ركن الدين يبرس البندقداري وسيف الدين قلاون ،
حيث دخلوا في خدمته بني أيوب بالشام^(١) .

أما المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت المعز أبيك والتي أودت به في
نهاية الامر فكان سببها شجر الدر . ذلك أنه يبدو من تاريخ هذه المرأة أنها
كانت من ذلك النوع من النساء الذي يميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان .
وقد سبق أن ذاقت شجر الدر طعم السلطان وحكمت مصر حكماً انتقامياً
مدة ثمانين يوماً ، مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة
من كل نفوذ وسلطان . ويبدو أن شجر الدر لم تكن تتنازل عن السلطان
لزوجها أبيك ، حتى عادت وعزّ عليها ذلك ، وشعرت بالندم ، فأخذت تفكّر
في وسيلة أو أخرى للتخلص من أبيك . ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن
شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أبيك سيطرة تامة بحيث صارف جميع
أحواله «ليس له معها كلام»^(٢) . ثم إنها لم تكتف بالاستبداد بأمور المملكة
بل منعت أبيك من الاجتماع بأم ابنه على « وألزمته بطلاقها » . وعندما
وجدت شجر الدر أن تحقيق نفوذها المطلق يتطلّب الخلاص من أبيك
نهائياً ، اتصلت بالناصر يوسف الأيوبي في الشام ، وبعثت إليه بهدية
« وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز (أبيك) والزواج به وتوريكه مصر »
ولتكن الناصر يوسف خشى أن يكون هذا خديعة ، فلم يجدها بشيء^(٣) .

وكانت أبناء مؤامرات شجر الدر تصل أولاً بأول إلى أبيك ، فرأى

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) المقريزي : السلوكي ج ١ ص ٤٠٢ .

أن يختاط لنفسه ، وعزم على إنزالها من القلعة . وهكذا أُمِيَ الزوجان — أَيْلَكْ وشجر الدر — يتربص كل منها للآخر . وجاءت الإشاعات إلى شعر الدر بأن زوجها أَيْلَكْ يريد الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، فتخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو اعدامها لانه سُمِّ من حسنه واستطاعتْها ، فعاجلته وعزمت على الفتوك به ، وإقامة غيره في الملك^(١) .

وكان أن نفذت شجر الدر مؤامرته في سرعة ، ففرضت جماعة من الخدم على قتلها بالخمام ، وأُسْبِمت هي في قديس المؤمرة فأخذت دتصربه بالقبقاب وهو يستغيث ويصرخ إليها إلى أن مات .. ولكن هاليلك المعن أَيْلَكْ لم يغفر لها شجر الدر فعلتها فقتلواها بعد قليل ، وبذلك خلا المسرح (سنة ٦٥٥ = ١٢٥٧ م) من أَيْلَكْ وشجر الدر جميعاً^(٢) .

(١) أبو المحسن : النجوم ج ٦ ص ٣٤٥ .

(٢) المقرئي : السلوك ج ١ ص ٤٠٣—٤٠٤ ، أبو المحسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٦—٣٧٧ .

الفصل الثاني

قطن والمغول

سلطنة على بن أبيك :

أحدث موت أبيك وشجر الدر فراغاً ضخماً في صفو المماليك، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة حول الحكم، وبخاصة من زعماء المماليك. والمعروف أن المماليك لم يتوهوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الحكم، وإنما اعتنقوا مبدأ الحكم الأقوى. وكانت التباينية التي تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم هي أن يسرع الأمراء إلى تنصيب ابن السلطان المتوفى مكان أبيه، حتى تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع، وعندئذ لا يجد أقوى الأمراء صعوبة في خالع ذلك الإبن وإحلال نفسه محله.

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسهم لا يستطيعون الإجماع على أحد هم ليتولى منصب السلطنة، قرروا أن يختار على بن أبيك، فأعلن سلطاناً عقب مقتل أبيه وقبل مقتل شجر الدر ٦٥٥هـ (١٢٥٧ م). وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور، وكان في الخامسة عشرة من عمره فاختير أحد الأمراء — وهو سيف الدين قطن — أتابكاً له.

ويبدو أن الأمراء البحرينية الذين كانوا بالشام أدركوا عندئذ أن فرضتهم قد حانت للعودة إلى مصر، فاتصلوا بالملك المغيث عمر الایوبى صاحب الكرك وزينوا له غزو مصر. وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية، وخرجت الجملة قاصدة غزو مصر عن طريق الشرقية، ولكن قطن استطاع صدهم وأنزل الهزيمة بهم عند الصالحة.^(١)

(١) المقريزى : المسالك ج ١ ص ٤٠٢ .

وفي الوقت الذي كان السلطان المنصور على يقضى وقته في اللعب وركوب الخيل بالقلعة ، إذا بالأخبار تصل إلى مصر بأن المغول استولوا على بغداد سنة ١٢٥٨ م (صفر ٦٥٦ هـ) وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، وحرقوا الجامع والمساجد ، وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات . . . (١) وبدلًا من أن يتذرع الناصر يوسف الأيوبي بذلك الحظر الذي أصبح على أبواب الشام ، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب مساعدته في الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن استجاب هولاكو لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد المغول لبلاد الشام عقد مجلس بالقلعة للتشاور في الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصة قد حانت ، فأخذ ينكر على الملك المنصور على بن أبيك سلوكه وقال « لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير الملوك » ، ثم انهز قطز فرصة خروج الأمراء للصيد (٦٥٧ هـ ١٢٥٩ م) ، وقبض على المنصور على وأخيه وأمهما ؛ وبذلك انتهى حكم المنصور على ، بعد أن حكم ستين وثمانية أشهر وثلاثة أيام

سلطنة سيف الدين قطز :

رأينا كيف انهز قطز فرصة غيبة الأمراء في الصيد ليعزل المنصور على من السلطة . فلما عاد الأمراء انكروا عليه عمله ، نفاف غضبهم واعتذر لهم بأنه ما فعل ذلك إلا خوفاً من المغول من ناحية والملك الناصر من ناحية أخرى . وأنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالامر لكم أقيموا في السلطة من شئتم .

(١) أبو المحاسن: التجorum الزاهرة ج ٢ ص ٥٠

وهكذا أخذ قطري يرضى الأمراء حتى تتمكن ، وعندئذ قبض على زمام الأمور بيد من حديد ، فاعتقد من توه خطره من الأمراء ، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذي هدد الشام ومصر في ذلك الوقت ، وهو خطر المغول .

ذلك أن المغول لم يلبثوا أن زحفوا من العراق على الشام ، فانتقلوا في سرعة مذهلة من ديار بكر إلى آمد يريدون حلب . ولم يوفق المسلمون في الدفاع عن حلب فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا « وفعلنوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلمهم »^(١) .

وهنا أفاق الناصر يوسف لحقيقة خطر المغول ، فأرسل إلى قريبه المغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطري صاحب مصر يطلب منهما النجد السريعة . على أنه يبدو أن كثيراً من الأمراء بالشام خافوا عاقبة مقاومة المغول ونادوا بأنه لا فائدة من تلك المقاومة ، فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يواظم من شأنه ولا ينكح وأيد بمبدأ الاستسلام له ، ولكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري — أحد أمراء المماليك البحرينية بالشام — لم يعجبه ذلك القول ، فقام وبشه وضربه ، وقال له « أتمن سبب هلاك المسلمين ! » ، ولم يرض بيبرس ومن معه من البحرينية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام ، فساروا إلى غزة ، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطري يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول . وفي الحال استجاب قطري للدعوة ، فأرسل إلى بيبرس يطلب منه القـدوم ، واستقبله بدار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها^(٢) .

موقع عين جالوت :

اضطررت أحوال الشام نتيجة لغزو المغول : إذ لم يرض على استقبلا

(١) أبو المحاسن : النجوم الرازية ج ٧ س ٧٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج السكري و ج ٢ من ٣٦٤ .

هولاً كُو على حلب ستة عشر يوماً حتى أخذف الزحف على دمشق ، فدخلتها المغول ونهبوا ، ثم ساروا إلى بعلبك واتجهت طائفتهم منهم إلى غزة ، وخربوا بانياس « واسعوا البلاد حرباً وملاوها قتلاً ونهبا »^(١)

ولم يلبث أن وصل إلى قطر بمصر خطاب تهديد من هولاً كُو ، يطلب منه التسليم ويقول له « يعلم الملك المظفر قطر وسائر أمراء دولته وأهل عائلته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطه على من حل به غضبه ... فاتعظوا بغيركم ... فنجن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكي ... »^(٢) ولكن قطر لم يجبن أمام ذلك التهديد ، فقتل رسول المغول وعلق رؤسهم على باب زويلة ، فكانت أول من علق على باب زويلة ، من رهوة المغول . ولما وجد قطر أن بعض الأمراء متذدون في الخروج لحرب المغول صاح فيهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغراة كارهون ؟ أنا متوجه فن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حرم المسلمين في ركاب المتأخرین »^(٣)

وفي الوقت الذي أخذ قطر بعد العدة لقاء المغول ، اختار أن يوفد بيرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار المغول . وكان المغول قد وصلوا إلى غزة ، فلما وصل بيرس انسحبوا من غزة فاحتلها الماليك . وبعد قليل وصل قطر ومعه بقية الجيش ، فزحف الماليك عن طريق الساحل قاصدين بحيرة طبرية . ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من الماليك إلى الشام أزعج الصليبيين في عكا ، نفروا إلى السلطان قطر وعرضوا عليه المساعدة ، ولكنه شكرهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وهدم

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٨ ص ٦٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٩ .

إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول .^(١)

وفي تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد إلى حاضرة المغول في آسيا وترك كتبغا ناما عنده في الشام . وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصري إلى الشام قر رأيه على منازلة المسلمين ، فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسان في فلسطين . وفي موقعه عين جالوت التي دارت بين المسلمين والمغول سنة ٦٥٨ھ (١٢٦٠م) تفوق المغول في أول الأمر ، ولسكن قطز ثبات في القتال ، ويقال أنه ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح «وا إسلاماه» ، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعهم بها ، فقتل كتبغا وكثير من رجاله وولي من نجا من المغول الأدبار .

ولا شك في أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة في تاريخ الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن المغول كانوا بوصولهم إلى عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط في حركتهم ، وأنه كان لابد من أن ينتهي أمر تلك الحركة إلى التوقف عند نقطة معينة ، فالذى يعنيها هو أن موقعة عين جالوت أنقذت مصر والشام من خطر المغول وجعلت دولة مغول فارس تقف عند حدود العراق . وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام ، فإن تهديدهم بعد عين جالوت لم يتخد شكل غزوات كاسحة كما كان الحال من قبل ، وإنما اتخذ صفة إغارات متقطعة تنتهي بالانسحاب السريع . عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية من مصر .

أما عن الموقف في بلاد الشام عقب عين جالوت ، فينبع في قيام السلطان قطز بحركة تطهير سريعة للبلاد ، فاسترد دمشق من المغول ، في حين فام الأمير بيبرس بطاردة المغول حتى حلب^(٢) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨١—٨٢ .

نهاية قطر :

وفي الفترة القصيرة التي قضتها قطر ببلاد الشام بعد عين جالوت ، يمكن من أن يسيطر سلطنة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة إلى بحراها الطبيعي هناك . وإذا كان قطر قد سمح لبعض أمراء بنى أيوب بأن يعودوا إلى ولاياتهم في حمص وحماة ، فإن هؤلاء اعترفوا بالتبغية لسلطنة المماليك في مصر وتعهدوا بدفع الجزية للسلطان قطر والدعاء له على المأمور . أما في مصر فقد كان لانتصار قطر في عين جالوت أجل الواقع ، فدقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزيارات بالقاهرة ، وأخذت البلاد تستعد لاستقبال قطر عند عودته . ولكن شاعت الظروف ألا يعود قطر مرة أخرى إلى القاهرة ، وأن يقتل غدرًا وهو في طريق عودته إليها . ذلك أن قطر كان قد وعد بيرس بإعطائه ولاية حلب تقديراً لجهوده وبلاه في حرب المغول ، ولكن لم يك得 يتم طرد المغول من الشام واسترداد حلب حتى تشكّر قطر لوعده وأعطي حلب للأمير علاء الدين بن بدر الدين لوان^(١) . ولاشك في أن قطر أظهر فقر نظر واضح وعدم مرونة خطيرة بهصره هذا ، لأنه نسي أن الأمير ركن الدين بيرس غداً ذا مكانة كبيرة من الأهمية والقوة بعد أحداث المغول بحيث صار خطراً على سلطان قطر في مصر . ولو كان قطر على شيء من الحكمة لألقى حلب للأمير بيرس وألهاه بها عن منافسته في مصر ، وبذلك يتمكن قطر من مباشرة سلطانه في مصر دون منافس أو حاقد .

ومهما يكن من أمر فإن قطر بلغه تشكّر الأمير بيرس له وتغييره عليه ، خفافه السلطان وأضمر له السوء . وهكذا احترس كل منهما من الآخر .

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

على قول المقريزى^(١) ، واتجه الإثنان في ووكب واحد إلى مصر . ويقال إن بيرس حدث جماعة من الأمراء في قتل السلطان المظفر قطز فأقروه وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم . وعندما أقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد - صيد الأرانب - دشارت أرنب وجمعت ، وعندئذ نسى قطز أن يحترز على نفسه وتعقب الأرانب حتى ابتعد عن رفاته . وكان أن استغل الشامرون الفرصة ، فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم ، وعندئذ تقدم بيرس ليطلب من السلطان طلباً فأجابه قطز إلى طلبه^(٢) . واستطاع بيرس أن يسبك الحيلة فتظاهر برغبته في تقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله ، ولكن لم يكدر قطز يمد يده حتى قبض عليها بيرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، في حين هو عليه بقية الأمراء بسوفهم حتى اجهزوا عليه^(٣) . وعلى هذا الوجه انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (أكتوبر ١٢٦٠ م) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ من ٤٣٥ .

(٢) ذكرت بعض المراجع أن بيرس طلب من السلطان امرأة من سب التمار فأنعم بها عليه (المقريزى السلوك ج ١ من ٤٣٥) .

وذكرت مراجع أخرى أن بيرس شفع عند السلطان في إنسان فاجابه : أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨٣ — ٨٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث

بيرس و تأسيس دولة البحريّة

سلطنة بيرس :

من الأمور المألوفة في عصر الملاليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل في دست السلطنة ، مadam القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ماضمن له التفوق على زملائه من الأمراء . وفي الوقت الذي كان قطز مازال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وبایع الأمير بيرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء قرب الصالحية^(١) . ويروى المقريزى أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بذلك إلى الدهليين الساطانى بالصالحية — وأيدىهم شخصية بالدماء — فقا لهم هناك الأمير أقطاي المستعرب وسألهم : «من قتلهم منكم؟» ، فقال بيرس «أنا قلتله» ؛ فرد عليه أقطاي «يا خوند ! اجلس في مرتبة السلطنة مكانه ! » . وبعد أن بايع أقطاي وبقية الأمراء بيرس بإسلامه قال له أقطاي «لا تم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل» ، فركب بيرس وصحبه الأمراء قاصدين القاهرة^(٢) .

وكان القاهرة قد تزينت لاستقبال الملك المظفر قطن ، والناس في فرح وسرور بالغ لما ححدث من انكسار المغول ونجاة مصر من شرهم ، فإذا بالمنادى يطوف في شوارع القاهرة يصيح «ترجموا على الملك المظفر ،

(١) ابن شاكر الكتبي : ميون التوارييخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ .

(٢) المقريزى : السلاوك ج ١ من ٤٣٦—٤٣٧ .

وادعوا اسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ١ . ولا يخفى علينا ما أصاب الناس من غم عند سماع الخبر ، لأن بشري الانتصار على المغول في عين جالوت جاءتهم مقرونه باسم قطر . هذا إلى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحريه وعسفهم ، خافوا من عودة دولة المماليك البحريه وسوء عملكم وجورهم ^(١) .

أما بيبرس الذي تلقب أول الأمر بلقب الملك القاهر ، فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عن الدين أيدمز ؛ وكان قد خرج للقاء قطر ولكن بيبرس أعلم بما حدث فلم يجد نائب السلطنة وغيره من أمراء القلعة غضاضة فأن يخلفوا للسلطان الجديد (٦٥٨ هـ = أكتوبر ١٢٢٠ م) . وبعد ذلك أشار الوزير زين الدين بن يعقوب على بيبرس بأن يغير لقب القاهر إلى الظاهر ، لأن اللقب الأول « ما تلقب به أحد فأشد » . فوافق بيبرس ، وغدا لقبه السلطان الظاهر بيبرس ^(٢) . ولم يكد يستقر بيبرس في السلطنة حتى أخذ يتقارب من الخاصة والعامة ، نفف عن الأهالي عباء الضرائب ، وألغى الأموال التي كان قطر قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول ، كما عفا « عن جميع الحبوس من أصحاب الجرائم » وأفرج عنهم ^(٣) .

ثم أن بيبرس أرسل « إلى الأقطار » بسلطنته ، ليعرف الحكام التابعين للسلطنة المملوکية بسيادة بيبرس . على أن الأمور لم تم لبيبرس في سهولة ، إذا امتنع بعض الأمراء عن الاعتراف لبيبرس بالولاية ما هدد سلطنته في ذلك الدور الأول من حكمه .

وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي كان قطر

(١) المقرنی : للسلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) أبو العدا : المختصر في أخبار البهتان ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٠٣ .

قد ولاد على دمشق ، فلما علم بمقتل قطر ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حماد ومحسن الدخول في طاعته ولكنهما امتنعا . ولم يتوان بيبرس في القضاء على هذه الثورة التي هددت نفوذه في الشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علام الدين البندقداري ، نجحت في القبض على الأمير علام الدين سنجر وإحضاره إلى القاهرة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١ م) ^(١) .

وقد ولى الظاهر بيبرس علام الدين البندقداري على دمشق وكفه بالقبض على بعض الأمراء الذين تخوف منهم بيبرس . وكان أن فر أحد أمرائه أبا وانه وهو شمس الدين آقوش البرلى – إلى حلب واستولى عليها بمساعدة أخواه ، ثم عزم السير إلى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر أرسل حملة قبضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه حتى قبض عليه بيبرس فيما بعد .

ومع ذلك فإن بيبرس ظل يخشى قيام ثورة في الشام ، لاسيما من جانببني أيوب . ويبدو أن بيبرس كان يخشى بالذات ثورة المغيث عمر الأيوبي صاحب الكرك ، فتحايل بيبرس حتى استحضره لمقابله في بيسان وعندئذ قبض عليه رعم الأمان المعطى له واعتقله بالقلعة حتى قُتل بعد ذلك ^(٢) .

ولم تسكن جميع الثورات التي واجهت بيبرس في مسهيل حكمه في بلاد الشام ، وإنما قامت ثورة شيعية في القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على ماف دكان السيوفين من أسلحة ، وشقووا القاهرة وهم يصيرون « يآل على » . ولكن جنده بيبرس أحاطوا بهم وقضوا على

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٤٤٤ - ٤٥١ .

(٢) مفضل ابن أبي النسائل: النهج السديد ص ١٠٧ - ٢٠٨ .

حركتهم في سهولة فهدا الفتنة بعد قليل^(١).

إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التي اعترضت طريق يبرس في بداية حكمه جعلته يشعر بأنه في حاجة إلى دعامة كبرى يسند إليها سلطانه؛ بعد أن نظر إليه المعاصرون من زاوية أنه أغتصب منصب السلطة من قطر قاهر المغول. هذا إلى أنه لا يخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الأولى التي ولوا فيها حكم البلاد أنهم انزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بني آيوب؛ بدليل تحايلهم على الموقف بمحاولة إشراك بعض أبناء البيت الآيوب بمعهم في الحكم كما سبق أن رأينا. فإذا أضفنا إلى هذا كله تجربة المعاصرين المماليك بسبب أسلفهم غير الحر؛ أدركنا في النهاية السر في تحمّس السلطان الظاهر يبرس لإحياء الخلافة العباسية في مصر ليتخذ منها سندًا يسند إليه حكم المماليك.

والواقع إن سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلق موقفًا غريباً في العالم الإسلامي لم يعتاده المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام. وفي وسط ذلك الفراغ الكبير الذي أحسن به المسلمون، حاول بعض حكام الولايات الإسلامية إحياء الخلافة في بلده ليكتسب تشريفاً عظيماً من ناحية يجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الإسلامي من ناحية أخرى. ولكن الظاهر يبرس كان أسرع هؤلاء جميعاً إلى اتخاذ تلك الخطوة، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسى إلى دمشق، حتى أرسل يستدعيه فوراً مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته.^(٢)

(١) المقرئي : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) التویری : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٨ (محضوظ)

وقد وصل ذلك الأمير العباسى فعلاً إلى مصر - وهو أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسى - فاستقبله يبرس بالحفاوة والإكرام ، ثم عقد السلطان مجلساً بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا بآيات صحة نسب ذلك الإمام . وبعد أن شهد الشهود بذلك بايع السلطان الظاهر الخليفة الجديد - الذى لقب بالمستنصر بالله - وقبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . أما الخليفة فقد قام بتقليد الظاهر يبرس السلطة وتم ذلك في حفل كبير عقد بعد أيام بجهة المطيرية ، وبذلك تم لبيرس ما أراد وأصبح يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية الكبرى في العالم الإسلامي ، وهي الخلافة^(١).

ولكن يبدو أن بعض الناس فشلوا في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله ، وذلك على الرغم من الاختيارات التي قام بها الظاهر يبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود . ويبدو هذا التشكيك واضحاً في الطريقة التي أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفة الجديد ، وهي طريقة لا تخفي من الغموض الواضح . مثال ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا في حادث سنة ٦٥٩ هـ وفي هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر^(٢) ويكرر أبو الفدا أسلوبه في الإشارة إلى الخليفة الجديد فيقول «وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود» . أما مفضل بن أبي القضايل فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم «المستنصر بالله الأسود» .^(٣) ولعله من الواضح أن هذا الأسلوب ليس الأسلوب الذي تعودناه من المؤرخين المعاصرين ، في كلامهم عن الخلافة وشخص الخليفة .

أما السلطان الظاهر يبرس ، فإنه بعد أن حقق غرضه وحصل على

(١) المقريزى : السلوكي ج ١ من ٤٥٣—٤٥٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٤ .

(٣) مفضل ابن أبي القضايل : النهج الصدید ص ١٠٥ .

تقليد بالسلطنة من الخليفة العباسية ليضفي على نفسه وعلى ملوكه صبغة شرعية ؛ عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكاً في المالك . ذلك أن النقود حارت تضرب باسم السلطان والخليفة معاً ، كما صار يدعى لل الخليفة على منابر الجمعة يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغب عن بيبرس أنه إذا حدث حدام بيته وبين الخليفة ، فإن الرأي العام في العالم الإسلامي سيقف إلى جانب الخليفة بوصفها السلطة الشرعية الأولى في حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . لذلك بدأ بيبرس يفكك بسرعة في التخلص من الخليفة المستنصر بعد أن قضى وطره من الخليفة وحصل منها على ما كان يطمع فيه من تفويض بالسلطنة . وكان أن أدعى بيبرس أنه يرغب في إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين في بغداد ، فخرج معه إلى دمشق ، وهناك ترك بيبرس الخليفة يخترق الصحراء ومعه جماعة من الأعراب والترك قاصداً العراق .^(١) ومن الواضح أنه لو كان بيبرس جاداً في استرداد بغداد من المغول وإعادة الخليفة العباسية إلى قاعدتها الأولى؛ لمشي بنفسه صحبة الخليفة المستنصر إلى العراق ، ولأعاده الأمر عاده وجمع جيشاً كبيراً جديراً بمنازلة المغول . وأسكن بيبرس – وهو خير من يعرف قوة المغول – ترك الخليفة يذهب لحرب المغول في بضع عشرات أو مئات من الرجال ، مما أدى إلى مقتل الخليفة ومعظم رجاله على أيدي المغول قرب هيت .^(٢) ولا عبرة هنا بما يرددده بعض المؤرخين عن حزن بيبرس على الخليفة وعن أسفه لما أنفقه من أموال على تلك الحلة ؛ إذ يكفي دليل على إهمال بيبرس في حق الخليفة المستنصر أنه لم يواقه في مشروعيه لاسترداد بغداد ، وهو المشروع الذي ابتكره بيبرس نفسه ودفع إليه الخليفة الجديد دفعاً .

على أن مشكلة الخليفة لم تنته عند ذلك الحد ؛ إذ أحس بيبرس عقب

(١) السيوطي : تاريخ الحنفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) السيوطي : تاريخ الحنفاء ص ٣١٨ ابن شاكر الكتبي : عيون التوارييخ ج ٢٠ . ورقة ٤٣٠ .

مقتل الخليفة المستنصر أنه بدأ السير في طريق فعلاً ولا بد له من أن يمضي في الطريق . وما دام بيبرس قد أخذ على عاتقه مهمة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، فإنه أصبح ملتزماً أدبياً أمام الرأي العام الإسلامي – وبخاصة داخل دولته – بالاستمرار في مشروعه . لذلك لم يجد بيبرس مفرًا من استدعاء أمير جديد من بنى العباسي – هو الأمير أبو العباس أحمد – وبايعه بالخلافة ، كما حصل على تقليم منه بالسلطنة سنة ٦٦٣ هـ (١) . وفي تلك المرة حرص بيبرس على الحد من نفوذ الخليفة العباسى الجديد – الذى لقب بالحاكم بأمر الله – بحيث لم يتراكه فرصه للظهور وتأكد نفوذه على حساب السلطنة . كذلك استحضر بيبرس بعض أفراد آخرين من بنى العباس للتلوين بهم في وجه الخليفة الحاكم إذا حدثته نفسه بالخروج عن النطاق الذى رسّمه له السلطان . (٢)

وقد حاكي سلاطين المماليك في مصر الظاهر بيبرس في الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين في القاهرة ، فأصبح الوضع طوال العصر المماليكى أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عدداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيها عدا ذلك يستبدل السلطان بكلة شتون الحكم ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهشّهم بالشهر والاعياد (٣) . وقد عبر المقريزى تعبيراً صادقاً عن الخلافة العباسية في وضعها الجديد بعد إحيائها بالقاهرة ، فقال إن خلافة الخليفة العباسى « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » . (٤)

بيبرس والصلبيون:

على أن إحياء الخلافة العباسية بمحض ، وتحت المماليك بمعظمها ، وحصو لهم

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨

(٢) التوبيرى : نهاية الاربعين ٢٨ ص ١٢٩ .

(٣) القلقشندي : صحيح الاعшинى ج ٣٤ ص ٢٧٥ .

(٤) المقريزى : الموعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

على تقليد منها بحكم البلاد والعباد؛ كان لا يكفي وحده لتبرير اغتصاب المماليك حقوق بني آيوب في السلطة. وقد أحس المماليك من أول الأمر أنهم مجرحون، وأن الأهالى قالوا عن السلطان أبيك أنه «ملك وقد مسه الرق»، ووصفوا المماليك بأنهم «عبيد خوارج».^(١)

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سندًا ومبررا لقيامهم في الحكم في نجاحهم في إزالة الهزيمة بلويس الناصع وجيشه في المقصورة ثم في فارسكور؛ الأمر الذى تطلب من سلاطين المماليك جهداً متواصلاً في صد الأخطار الكبرى التي هددت المسلمين عندئذ في الشرق الأدنى، وذلك لتبرير حكمهم وضرورة بقائهم في الحكم أمام رعاياهم. وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين في الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر الصليبي وخطر المغول. وفي كلتا الحالتين أبدى بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك بطولة نادرة وشجاعة كبيرة في حماية الشام ومصر من تلك الأخطار.

وتبدو مهارة بيبرس السياسية في أنه حرص أثناء حربه ضد الصليبيين والمغول على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لـكل من الصليبيين والمغول؛ فالفالـف الـإمـپـاطـورـ الـبـيزـنـطـيـ مـيخـائـيلـ بـالـيـلـوـجـسـ وـعـقـدـ معـهـ حـلـفـاـ دـفـاعـيـاـ (٥٦٠ = ١٢٦٢ مـ) لـعلـمهـ أـنـ الـإـمـپـاطـورـ الـبـيزـنـطـيـ كـانـ دـائـمـاـ العـدـوـ الـلـدـودـ لـالـصـلـيـبـيـيـنـ بـالـشـامـ. (٢) كذلك حالف بيبرس مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين وهم الذين اعتنقوا الإسلام واستدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنين. (٣)

وهكذا دخل بيبرس المعركة ضد خصومه من الصليبيين والمغول وبجانبه

(١) المقريزى : البيان والاعراب ص ٩ ، القلقشندى : صبح الاعمى ج ١ ص ٣٦٣ ، ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ .
Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

حلفاء طيبون يشدون أزره ، إن لم يطمع في مساعدتهم فهو على الأقل يطمئن إلى حيادهم .

أما عن حروب بيبرس ضد الصليبيين فـ كانت طويلاً عنيفة ، أمّا زالت دائمة برجحان كفة بيبرس وانتصاره على خصمه . ذلك أنه لم تنتقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ هـ (١٢٧١ م) و ٦٦٩ هـ (١٢٧٣ م) دون أن يوجه بيبرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفي كل مرة كان بيبرس يحرز نصراً على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحًا لمدة عشر سنوات، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل .^(١)

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصلبيين سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) عندما هاجمت جيوش بيبرس الناصرة ، كما هاجم بيبرس بنفسه مدينة عكا ولستهلم يفلح في الاستيلاء عليها .^(٢) على أن الحرب الشاملة التي شنها بيبرس على الصليبيين لم تبدأ إلا في عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) عندما استولى بيبرس على قيسارية ويافا وعثيث وأرسوف . وفي العام التالي استولى بيبرس على صفد ثم على هوذين وتبين ومرينة الرملة .^(٣)

ولم يغفر بيبرس لملوك أرمينية الصغرى في قيليقية أو لإمارتى انطاكية وطرابلس تحالفها مع المغول ضد المسلمين؛ فأخذ يهدى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) للقيام بعمل حرب ضد هذه القوى الصليبية ، وأرسل جيشاً تحت قيادة الأمير قلاون استولى على بعض القلاع الواقعة شمال طرابلس لتحقيق ذلك الغرض .^(٤) وفي صيف سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) وجه السلطان بيبرس

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 432.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ سنه ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

(٣) العينى : عقد الجان سنه ٦٦٤ هـ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٠ Stevenson : The Crusaders, p. 339. (٤)

حملة كبيرة ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيئوم الأول في زيارة لمغول فارس، ونجح المماليك في إزالة هزيمة كبيرة بالأ Armen قرب درباسك (٢٤ أغسطس).

وقد دمرت جيوش بيرس في تلك الغزوـة مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أذنه وطروسـوس والمصيصة، كما أشعلوا النار في عاصمتها سيس، وقتل أحد أبناء الملك هيئوم الأول في الحرب في حين أسر ابن الثاني؛ وبعد ذلك عاد المماليك إلى الشام محـملين بالغنـائم ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن^(١).

وأخيرـاً توج بيرس جـوده ضد الصـليبيـين بالاستـيلـام على أنـطاـكـية فـي ما يـوـنـة ١٣٦٨ مـ. وكانت خـسـارـة الصـليـبيـين بـسـقـوـطـ أنـطاـكـيةـ ضـخـمةـ؛ لأنـهاـ كانتـ كـبـرـىـ إـمـارـاتـهـمـ بـالـشـامـ. وـثـانـىـ إـمـارـةـ أـسـسـوـهـاـ بـعـدـ الرـهـاـ؛ لـذـلـكـ جـاهـ سـقـوـطـهـاـ لـيـذـانـاـ بـأـنـيـارـ الـبـنـاءـ الـصـلـيـبيـ بـالـشـامـ، بـحـيثـ لـمـ يـقـ بـلـصـليـبيـيـنـ بـعـدـ ذـلـكـ منـ المـدـنـ السـكـبـرـىـ سـوـىـ عـكـاـ وـطـرـابـلسـ.

ثم إن حركة العـجـهـادـ التيـ قـامـ بـهـاـ بـيـرسـ ضدـ القـوـىـ الصـلـيـبيـةـ فـيـ الشـرـقـ الأـدـنـىـ لمـ تـقـتـصـ عـلـىـ أـرـمـينـيـةـ الصـغـرـىـ وـالـصـلـيـبيـيـنـ بـالـشـامـ، وـإـنـماـ امـتدـتـ إـلـىـ جـوزـيـرـةـ قـبـرـسـ. وـكـانـتـ هـذـهـ الـجـزـيـرـةـ قـدـ حـكـمـتـهـ أـسـرـةـ صـلـيـبيـةــ هـىـ أـسـرـةـ لـوـزـجـانــ. مـنـذـ أـوـاـخـرـ الـقـرـنـ الثـانـىـ عـشـرـ، مـاـ مـكـنـهـاـ مـنـ الـقـيـامـ بـدـورـ بـارـزـ نـشـيطـ فـيـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبيـةـ أـوـاـخـرـ الـعـصـورـ الـوـسـطـىـ.

ولـمـ يـسـطـعـ السـلـطـانـ الـظـاهـرـ بـيـرسـ أـنـ يـغـفـرـ مـلـكـ قـبـرـسـ تـهـديـهـ لـسـفـنـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ شـرـقـ حـوـضـ الـبـحـرـ الـمـتوـسـطـ، أـوـ مـسـاعـدـهـ لـصـلـيـبيـيـنـ ضـدـ الـمـسـلـمـيـنـ

(١) أبو الحسن : النجوم الراهرة ج ٧ ص ١٤٠ ، المقريزي السلوك ج ١ ص ٥٥٢ .
وسعيد عبد الفتاح عاشور : سلطنة المماليك وملكة أرمينية الصغرى ،
(بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨) .

بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٥٦٦٨ م (١٢٧٠ م) لغزو قبرس^(١)، ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الإسلامية قرب شاطئ قبرس فتحطمت بعضها ، وعاد البعض الآخر دون نتيجة^(٢).

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حرباً عنيفة لا هوادة فيها ولا رحمة ، فاستولى سنة ٥٦٦٩ م (١٢٧١ م) على صافيتا وحصن الأكراد وحصن عكا والقررين ، وأخذ يستعد لهاجحة طرابلس ذاتها ، لولا وصول الأمير أدوارد الانجليزي إلى بلاد الشام ومعه بعض مئات من المغاربة ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صلبيّة كبيرة^(٣).

وتجدر بالذكر أن حرص بيبرس على تفليق أظافر الصليبيين بالشام دفعه إلى القضاء على نفوذ الباطنية الشيشية . وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير في تاريخ الحروب الصليبية ، وأسممت بفسطط وافر في احتلال بلاد الشام في ذلك العصر . ثم أنهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد من المسلمين ، وإنما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزاً للتبغية . لذلك سعى بيبرس للقضاء على نفوذ الباطنية في بلاد الشام قضاء تاماً ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعراوي ، واستولى على حصونهم حصناً بعد آخر حتى استولى عليها جميعاً وأراح البلاد من شرهم^(٤).

بيبرس ومغول فارس :

وفي الوقت الذي قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم

(١) سعيد عاشور : قبرس والطروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨.

(٢) اليعيني : عقد الجمان حوادث سنة ٥٦٦٩ م.

Stevenson : The Crusaders in the East, p. 343. (٣)

(٤) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ب الشام؛ حارب أيضاً مغول فارس ودفع شرهم عن بلاد الشام ولم يسمح لهم مطلقاً بالتقدم غرباً خارج حدودهم في العراق.

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب في كثير من الحالات الفصل بين حروبه ضد المغول وحروبه ضد الصليبيين، بسبب ما كان هناك من تناقض قوى بين المغول والصليبيين ضد المسلمين في مصر والشام. لذلك كثيراً ما كان يحدث أن يحارب بيبرس المغول والصليبيين في وقت واحد، ويخرج لحرب أحد الخصميين فيحارب الآخر.

والواقع أن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت، إذ ظل مغول فارس يت Higginsون الفرصة للثأر، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشهالية بالعراق والشام. وإذا كان هولاكو - خان مغول فارس - قد توفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) فإن ابنه وخليفته أباغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية وسياسته الودية تجاه الصليبيين في الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى. ولكن بيبرس وقف دائمًا بالمرصاد لمغول فارس وحال بينهم وبين ما يشتهرون. من ذلك أن بيبرس لم يكن يسمع سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) باغارة المغول على البيرة - وهي قلعة هامة على الفرات - حتى أرسل حملة سريعة لردهم، فقر المغول هاربين تاركين خلفهم أبو الحم وعددهم^(١).

ومن الواضح أن موجة المغول الكاسحة كانت قد انكسرت حدتها عندئذ، وأصبح مغول فارس أنفسهم في حالة من الإجهاد والمشاع كل الداخلية لا تتمكنهم من القيام بمحاولات كبيرة لغزو الشام في النصف الأخير من القرن الثالث عشر. لذلك فكر أباغا في طلب الصلح من بيبرس، ولجا

(١) بيبرس الدوادار : زينة الفكرة ج ٩ ورقة ٩٠.

في طلبه إلى مزيج من الترغيب والتهديد ، إذا قال ، فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منها ، فالمصلحة أن يجعل يبنينا صلحاء^(١) . ولكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول أمر لا يرضى عنه أى مسلم عندئذ ، بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وفعلوا بال المسلمين في العراق ما يتنافى مع قواعد الإنسانية والرحمة . لذلك رفض بيبرس طلب أبغا للصلح وأعلن أنه لن يكتفى عن المغول حتى يسترد جميع البلاد التي اغتصبواها من المسلمين^(٢) .

ولما يئس أبغا من الصلح أرسل رجاله للإغارة على بلاد الشام سنة ٥٦٦٨ (١٢٦٩م) فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين عندما رأوا الجيوش التي أرسلها السلطان لمنازلتهم . ثم عاد المغول مرة أخرى لمهاجمة عين تاب وعمق الحارم سنة ٥٦٦٩ (١٢٧١م) ، ولكن إغاراتهم كانت محدودة الأثر والأهمية . وفي ذلك الوقت حاول الأمير ادوارد الانجليزي أن يستغل المغول في مهاجمة المسلمين بالشام ، وأرسل فعلاً سفارية إلى أبغا للذك الغرض ولكن أبغا لم يقدم للصلبيين أكثر من بضعة وعود ، بل إنه أرسل بعض الرسل للسلطان بيبرس لتجديده السلام في الصلح . وفي ذلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل المغول في دمشق وأرسل معهم بعض المهدايا لآبغا^(٣) . ومع ذلك فإن بيبرس لم يوافق على مبدأ الصلح مع المغول بما جعلهم يجددون هجوماتهم على البيره ٦٧٠ - ٦٧١ (١٢٧٢ - ١٢٧٣م) .

وعندما وجد بيبرس أن المغول تحالفوا مع سلاجقة الروم بأسيا الصغرى ضده ، أعد حلة كبيرة سنة ٥٦٧٤ (١٢٧٦م) لغزو سلاجقة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ ورقة ٥٤٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٢ .

الروم . وفي موقعه ابلى سلطان حلت الهزيمة ساحقة بالغول وحلقاً لهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البروانى زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من رجاله ومن المغول ^(١) وبعد ذلك دخل بيبرس قيصرية ودعى له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ثم قفل راجعاً إلى بلاد الشام . ويقال أن أبغى عندما سمع بما فعله بيبرس بـ رجاله في أبلى سلطان أسرع إلى هناك سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) فاشتد حنقه عندما وجد آلاف من رجاله المغول صرعى فحين لم ير أحداً من السلاجقة ، ولذلك أمر بقتل مائة ألف من المسلمين السلاجقة ، كما قتل البروانى نفسه . ^(٢) ولم يلبث أن شغل أبغى باضطراب أحوال دولته ، مما صرّفه عن القيام بعمل انتقامى ضد دولة المماليك .

أبناء بيبرس :

لم يلبث أن توفي الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) بعد أن قام بجهود كبيرة في تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول . والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبياً التي قضتها فى الحكم مكتنفة من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التي أضفت على دولة المماليك الناشئة قدرًا من القيمة كانت أحوج ما تكون إليها .

ثم إن حروب بيبرس الطويلة ضد المغول والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبيّة ، فأرسل حملة كبيرة إلى مملكة النوبة المسيحية سنة ١٢٧٦ نجحت في اخضاعها و أجبار ملوكها على دفع الجزية ^(٣) هذا بالإضافة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٨ .

(٢) رشيد الدين المهدى : جامع التواریخ ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ ، أبو الفدا : المختصر ، سعادات سنة ٦٧٥ هـ .

(٣) مفضل ابن أبي القاسم : النهج السديد من ٢٣٤ - ٢٣٨ .

إلى ما قام به ببرس من تأكيد نفوذه على بلاد الحجاز ، وما قام به في مصر من تحصين المغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم إدارية ، بحيث أنه يمكن القول بأن دولة المماليك انتخذت في عهد ببرس طابعها الخاص المميز الذي ظلت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر^(١) . وكان ببرس بوصفه أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوه فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر سعيد بركة . وقد ظن ببرس أن تولية ابنه عهد السلطنة في حياته وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يجعل الأمور تستتب على الوجه الذي يريد بعد وفاته . وفعلاً أقسم الأمراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة هـ ٦٦٠ (١٢٦٢ م) وجعل ابنه نائباً عنه في مصر أثناء انشغاله بحرب الصليبيين والمنفول بعد ذلك . وفي سنة هـ ٦٦٢ (١٢٦٤ م) أقام ببرس احتفالاً كبيراً قرئ فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء^(٢) ومع ذلك فإن ببرس لم يطمئن تماماً إلى ما سيفعله الأمراء بابنه ، فحرص وهو على فراش الموت أن يوصي الملك السعيد بأن يأخذ حذر من كبار الأمراء ، فهو لقاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فلنبلغك عنه ما يشوش عليك مسلكه وتحقق ذلك عنه فأضرب عنقه في وقته ولا تعقله ، ولا تستشر أحداً في هذا ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك !^(٣)

ولم تكدر تضي على وفاة ببرس فترة قصيرة حتى تتحقق ظنه . ذلك أن

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكي في مصر والقاهرة ٤١ وما بعدها .

والظاهر ببرس : ص ٢٨ وما بعدها

(٢) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٤٦٨—٤٦٩ ، ٥١٥ ، النويري : نهاية الارب ج ٢٨ ورقة ١٩٠ .

(٣) ابن واحد : مخرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٤٠

أكابر الامراء ظاهروا في عمرة الاسعى التي صحبت وفاة السلطان باختراهم للعمد ، ونودى بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن امراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة في الحكم ظلوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبي » وأخذوا يسبون له المتابعة في مصر والشام جميعا .

وكان أن اتهم الامراء السلطان السعيد بركة بدنس السسم للأمير بدر الدين بييليك نائب السلطنة . وهكذا اضطررت أمور الملك السعيد ، وتعاقب بعض الامراء في نيابة السلطنة ، وكلما توالي واحد منهم ذلك المنصب لجأت بطاعة السلطان الى تخويفه منه فيبعده .^(١) ويروى المقريزى ان الملك السعيد قرب إليه صغار الامراء ، فتفجرت منه قلوب كبار الامراء ، « فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون انهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من اقدارهم ويقدم عليهم المماليك الاصغر»^(٢) .

وفي سنة ٦٧٧ هـ ١٢٧٨ م خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن امراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يستمع لهم ويسترضيهم ليعودوا ولكنهم قالوا « لا سبيل الى مراجعته وقد اندصع القلوب وجرت بهذه الخطوب »^(٣) وعندما علم بركة أن هؤلاء الامراء ينونون السير الى مصر لخليعه ، اسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا في صعوبة بالغة . على أن الامراء أسرعوا الى حصاره بالقلعة ، وشددوا عليه الحصار حتى ساء موقفه واضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء ٦٧٨ هـ ١٢٧٩ م^(٤) .

(١) المقريزى : ج ١ من ٦٤٣ - ٦٤٤

(٢) المرجع السابق من ٦٤٥

(٣) يبرس الدوادار : زبدة الفسكترة ج ٩ ورقة ٦٨

(٤) ابن ايس : بداعم الهرورج ١ من ١١٤ المقريزى : السلوى ج ١ من ٦٥٥

لم يعد للسلطان بركة الخلوع مقام في مصر ، فخرج إلى السكرك ولما
ينقض على قيامه في منصب السلطنه عامان . وقد عرضت السلطنة عندئذ
على أقوى الأمراء - وهو الأمير قلاون الافى - ولكنـه كان يدرك أن
الأمور لم تنتهي بعد نضجاً كافياً ، فظاهر بالزهد وقال ، « أنا لم أخلع
الملك السعيد شرعاً إلى السلطنة وحرضاً على الملكة ولكن حفظاً
للنظام ... والأولى ألا يخرج الامر من ذرية الملك الظاهر ^(١) ، وهكذا
اختير ابن الثاني ببرس - وهو الأمير بدر الدين سلامش - سلطاناً
٦٧٨ (١٢٧٩ م) في حين أصبح الأمير قلاون أتابكاً للسلطان الجديد
أى وصياعليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون غرضه لأن السلطان
كان في السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصيته للاستئثار بالسلطة
والخلاص من المماليك الظاهرية . وعندما اطمأن قلاون تماماً إلى أن
الامور غدت هريرة لاعتلامه منصب السلطنة أعلن أنه « لا فائدة منبقاء
ذلك الصبي الصغير ، لانتشار السمعة في البلاد ، وامتنان الحرمه في
أنفس الحواضر والبواضد » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ (١٢٧٩ م) قبل أن يمضى
عليه في السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الأمير سيف الدين قلاون ^(٢) .

(١) المقريزي الساروك ج ١ ص ٦٥٧ ، ببرس الدوادار : زينة الفسكترة ج ٩ ورقه ٧٤

(٢) أبو الحامن : النجوم الظاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ - ٢٨٩ ابن ابياس : بدائع الزهور

ج ١ ص ١١٤ .

الفصل الرابع

أسرة قلاون

تتمتع أسرة قلاون بأهمية خاصة في تاريخ المالكين . فمَنْ أَنْتَ مالكِ
لَمْ يُؤْمِنْ بِمَنْدَأْ وراثةَ الْمَلْكِ - كَمَا سَبَقَ أَنْ أَشَرْنَا - إِلَّا أَنْ بَيْتَ قلاون
شَذَّ عَنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَحْفَظَ بِمَنْصَبِ السُّلْطَانِيَّةِ فِي ذُرِيَّةِ المنصور
سِيفِ الدِّينِ قلاون مَدَّةً أَرْبَتْ عَنْ قَرْنِ ٦٧٨ - ١٢٧٩ ، (٥٧٨٤) -
(١٣٨٢) مَا يَعْتَبِرُ مُثْلًا فَرِيدًا فِي دُولَةِ المَالِكِيَّةِ . هَذَا إِلَى أَنَّ الْعَصْرَ الَّذِي
حَكَمَ فِيهِ أَسْرَةُ قلاون يَمْثُلُ عَصْرَ الْازْدَهَارِ فِي الدُّولَةِ المَالِكِيَّةِ ، إِذَا
ظَهَرَتْ حُضَارَتُهَا ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ اَنْتَهَى الدُورُ التَّأْسِيَّيُّ الَّذِي نَهَضَ
بِهِ السُّلْطَانُ الظَّاهِرُ بِيَسِّرٍ ، وَبَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ المَالِكِيَّةُ قَدْرَتَهُمْ عَلَى الْحُكْمِ
وَعَلَى مَوْاجِهَةِ الْأَخْطَارِ الْكَبِيرِ الَّتِي هَدَدَتْ مَصْرَ وَالشَّامَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ .
وَلَيْسَ هَنَاكَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْفَضْلَ يَرْجِعُ إِلَى السُّلْطَانِ المنصورِ قلاون فِي
إِرْسَاءِ هِيَةِ بَيْتِهِ فِي النُّفُوسِ ، وَفِي إِحْاطَةِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَسْرَتِهِ بِهَالَةِ الْمَجْدِ
وَالْعَظَمَةِ ، جَعَلَتِ الْمُعاصرِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِأَبْنَائِهِ وَأَحْفَادِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَيَرَوْنَ
فِي بَيْتِ قلاون رِمْزاً لِلْقُوَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْاسْتِقْرَارِ فِي الدِّاخِلِ وَالْآمِنِ
فِي الْخَارِجِ .

الأمير سيف الدين قلاون :

وكان الأمير سيف الدين قلاون أحد المالكين البحريين ، اشتراه الأمير
علاء الدين أقسنقر - أحد مالكه العادل أبي بكر الأيوبي - بألف دينار؛
وهو ميلع ضخم يدل على ما فيه من موهبة وغالي في قيمته لحسنها وصدوره

نعرف بالآلاف^(١). ولما مات الأمير علاء الدين ، انتقل قلاون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأصبح لقبه «الآلاف العلائى الصالحي النجمي أبو الناصر محمد» وسرعان ما أخذ نجم الأمير قلاون يرتقى بسرعة في الأحداث التي صاحبت قيام دولة المماليك ، إذ كان أحد زعماء البحريية البارزين، فما جر من مصر فراراً صحبة من فر من المماليك البحريية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي في عهد أيوب ، ثم عاد إليها عندما حركت أحداث المغول المماليك نحو الوحدة . وهلذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الأمير قلاون في صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس وأعتمد عليه في كثير من أعماله البحريية والسلبية^(٢) .

على أنه لا يخفى علينا أن مجتمع المماليك قام إلى حد كبير على أساس الشك والتخيّل ، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساوين ، والأمراء اعتقدوا أنه لا فضل لأحد هم على آخر . لذلك يبدو أن قلاون أحسن بشعور الغيرة عندهما وجد أحد زملائه وهو بيبرس يتولى منصب السلطنة ؛ وإن كان لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . يدل على ذلك ما يقوله المقريزى من أن كبار الأمراء كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك^(٣) ، وفي الوقت نفسه لا بد وأن يكون بيبرس – وهو الرجل الذي يعرف جيداً روح المماليك – قد أحسن بازدياد نفوذ الأمير قلاون وعظم مكانته ، وأن هذا النفوذ وثقل المكانة تهدد مشروعات بيبرس من المقابلة بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد . لذلك لجأ بيبرس إلى حيلة قوية ظهرت ضمن بقاء العرش من بعده لأنباءه ، وهي أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون

(١) أبو الحسان : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٤٧

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ من ٢٢٨

(٣) المقريزى : السارك ج ١ ص ٦٤٥

ابنة الأمير قلاون سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) وبذلك ظن يبرس أن قلاون لن يطبع في انتزاع الملك من زوج إبنته^(١).

ولكن أطهاع أمراء الهايلك في الملك كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يهدى يبرس يوم حتى أخذ قلاون يفكر في الملك ، وإن كان حريصاً على عدم كشف مطامعه . ولم يكن قلاون في تفسيره هذا غادرآ أو مغتصباً أو معتمداً على مالزوج ابنته من حقوقه ، وإنما كان - وفق العقلية المماليكية - مطالبًا بحق طال السكوت عليه ، ويكتفى إنه رضى بالظاهر يبرس سلطاناً وهو زميله ، فلا داعي بعد ذلك للخضوع لأنباء الظاهر وهم في نظره صبيان صغار .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر جعله ينفذ أطهاعه بطريقه تدريجية بطيئة، ذلك أنه لم يعترض سبيل الملك السعيد بركة عندما تولى السلطنة بعد أبيه ، وإنما تركه يضى في غيره دون أن يحاول اصلاحه أو نصحه . وعندما استدحر صار الأمر على السلطان بركة في القلعة سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وأرسل الأخير إلى حمية الأمير قلاون يطلب مساعدته ، أرسل الأمير قلاون إلى زوج ابنته ينصحه بترك السلطنة^(٢) . وكان في وسع قلاون أن يعتلي العرش بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة ، ولكننه أمعن في التظاهر بالزهد ، فوافق على أن يتولى الحكم أخوه بركة خان وهو الأمير بدر الدين سلا مش ابن السلطان الظاهر يبرس ، في حين قفع الأمير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابكًا للسلطان الجديد .

وهكذا أخذ قلاون - وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم - يتصرف في حكمه بالغة دون أن يستثير حقد بقية الأمراء . ومن الواضح أنه كان

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ١٥٥

(٢) أبو الحasan : النجوم ج ٧ ص ٤٧٩

السلطان الفعلى الحاكم للبلاد في عهد سلامش ، لأن الأخير كان طفلًا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الأولى والأخيرة في شئون الحكم للأذى بالك سيف الدين قلاون .

وبحسب الأمير قلاون في ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا إلى جنب مع اسم العادل سلامش في خطبة الجمعة .^(١)

ولم يضع الأمير قلاون تلك المدة القصيرة التي قضتها في الوصاية على السلطان الصغير سدي ، وإنما أخذ يمكن لنفسه في مختلف أنحاء الدولة ، فقبض على نسبة كبيرة من المماليك الظاهريـة . وهم مماليك الظاهر بيبرس الخالصين له ولأبناءه — وعزل كثيـراً من الولاية والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد برـكة قد عينوـهم بالولايات ، وأحل محلـهم جمـاعة من انصارـه . كذلك تخـالـص قلاـون من بعض الأمـراء المناصـين له أو الذين توـهمـواـ فـسـطـمـ لهمـ في منـصبـ السـلطـانـ ، وأرسـلـ الأمـيرـ شـمسـ الدينـ سنـقرـ إلى دـمـشـقـ ليـكونـ نـائـبـ السـلطـانـ بالـشـامـ . أما زـملـاؤـهـ منـ المـمـالـكـ الـبـحـرـيـةـ الصـالـحـيـةـ فقدـ أـحـسـنـ إـلـيـهمـ وأـعـدـقـ عـاـيـهمـ الـاقـطـاعـاتـ لـيـسـتـمـيلـهـ إـلـىـ جـانـبـهـ^(٢)

وأخـيرـاً أـدرـكـ قـلاـونـ أنـ جـمـيعـ الـأـمـورـ بـاتـتـ مـعـدـةـ لـتـولـيهـ منـصبـ السـلطـانـ ، فـدـعـاـ الـأـمـراءـ وـتـهـدـيـتـ مـعـهـمـ فـصـغـرـ سـنـ الـعـادـلـ ، وـقـالـ لـهـمـ «ـقـدـ عـلـمـتـ أـنـ الـمـمـلـكـةـ لـاـ تـقـومـ إـلـاـ بـرـجـلـ كـاـمـلـ»؛ فـاستـفـرـ الرـأـيـ عـلـىـ خـلـعـ سـلامـشـ وـتـوـلـيـةـ الـأـمـيرـ سـيفـ الدـيـنـ قـلاـونـ مـنـصـبـ السـلطـانـ سـنةـ ٥٦٧٨ـ (١٢٧٩ـ مـ) وـهـكـذـاـ لـمـ يـقـ سـلامـشـ فـيـ السـلطـانـ أـكـثـرـ مـنـ ثـلـاثـةـ شـهـورـ ، وـأـرـسـلـهـ مـعـ أـخـيهـ

(١) أبو المحسـنـ : المـهـلـ الصـافـيـ جـ ٣ـ وـرـقـةـ ٣٧ـ

(٢) بيـبرـسـ الـهـوـادـارـ : زـيـدةـ الـفـسـكـرـةـ جـ ٩ـ وـرـقـةـ ٧٤ـ

حضر إلى قلعة السكرك؛ منفي أبناء سلاطين المعزولين في عصر المماليك^(١).

سلطنة المنصور قلاون (٦٧٨ - ٦٨٩، ٥ - ٦٧٩ - ١٢٩٠ م)

أجمع المؤرخون على وصف السلطان المنصور قلاون بأطيب الصفات وأحلاها. فيبرس الدوادار قال عنه أنه «كان حليماً، عفيفاً في سفك الدماء، مقتصداً في العقاب، كارها الأذى»^(٢)، وابن فضل الله العمري وصفه بأنه «كان رجلاً مهيباً شجاعاً»^(٣). وفي ضوء هذه الصفات الطيبة فسر المؤرخون بقاء الحكم في بيته مدة طويلة لأن الله أكرمه في ذريته وجازاه بالحسنى على طيب أفعاله.

ولم يسكن قلاون يعتلي العرش حتى أخذ يتقارب إلى الناس بطيب أفعاله. وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال^(٤)، فإن الأموال التي جمعها قلاون استغلها في إقامة كثير من المنشآت الحيوية التي خلدت ذكره والتي كان أشهرها المدرسة والبيمارستان، وهي أمور لم يسبقهها إلى ذلك فيها أحد قد يها ولا حدثها، شرقاً ولا غرباً. ^(٥) هذا عدا القلاع التي جددها بالشام، والمحروب التي قام بها ضد الصليبيين والمغول بما تطلب مزيداً من المال.

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التي تعرّض لها معظم سلاطين المماليك في بداية حكمهم، «فلم يملع ريقه» - على قول

(١) المقرizi: السلوكي ج ١ ص ٦٥٨ ابن ایاس: بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ Wiet: L'Egypte Arabe, p. 54.

(٢) بيدرس الدوادار: زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ - ٧٦

(٣) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار ج ١٦ ورقة ٦٥٠

(٤) ابن شاكر السكري: فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٤

(٥) أبو الحسان: النجوم ج ٧ ص ٣٢٧

المؤرخ أبي المحاسن - حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام . ويبدو أن الأمير سنقر عن عليه أن يتولى منصب السلطنة دونه الأمير قلاون ، وهو زميله ، فدعا أهل الشام إلى الخروج عن طاعة قلاون . بل إن سنقر نادى بنفسه سلطاناً وتلقب بالملك السكامل . ولكن الأمير سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق ، وفي الوقت نفسه بادر قلاون بأرسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وعندئذ فر سنقر شرقاً ، وحاول أن يتصل بالمغول ويزين لهم غزو بلاد الشام .^(١) وفي العام التالي تأسس بعض الأمراء الظاهريه - من ماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاون ، واتصلوا بالصليبيين سراً ، فعلم قلاون بأسرار المؤامرة وعاقب المتأمرين بالاعدام والسجن .^(٢)

ويبدو أن أحساس قلاون بموقف الماليك الظاهر به منه ، جعله يفكك جدياً في إنشاء عصبية من الماليك لنفسه ، يعتمد عليها في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي تواجهه . لذلك أكرر قلاون من شراء الماليك وأنشأ فرقه جديدة منهم ، رياهم ببراج القلعة ، ولذلك عرفوا بالماليك البرجيه .^(٣)

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الأخطار الداخلية التي واجهته ، بدأ ينصرف نحو المغول والصليبيين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى . وكان الأمير سنقر الأشقر قد استولى على عدة قلاع بالشام أحدهما قلعة صميون ، ومن هناك أرسل يستدرج بالمغول والصليبيين جميعاً ،

(١) المقرنی : السلوك ج ١ ص ٦٧٦ وما بعدها

(٢) مفضل ابن أبي الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢ ، التویری : نهاية الأرب ج ١٩ ورقة ٢٧٨ .

(٣) ابن آیاس : بداع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، ابن دقمق الجوهر الثین ورقة ١١٧

ضد خصمهم قلاون^(١). وقد شجع هذه الأحداث الداخلية في دولة المماليك المغول ، فأرسل أباغا في سنة ٦٧٩ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨٠ م) قوة احتلت بعض القلاع في شمال الشام ، حتى رحل المغول إلى حلب فدخلوها واحرقوا جوامعها ومدارسها ، وقتلوا كثيرا من أهلها . على أنه يبدو أن غزوة المغول للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، كانت من قبيل الأعمال الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالعودة إلى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاون وصل غزة فعلا في طريقه اليهم لمنازلتهم^(٢) .

على أنه إذا كان المغول قد ارتدوا إلى العراق ، إلا أن غزوتهم للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نبهت قلاون إلى الخطر الذي يتحقق به نتيجة تحالف أعدائهم الثلاثة ، المغول والصلبيين وسنقر الأشقر . فالمغول هاجروا الشام عندهن بناء على استغاثة الأمير سنقر ، وفي الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة أغارة المغول وحاولوا استرداد حصن الـ كراد سنة ٦٧٩ هـ (١)كتوبر سنة ١٢٨٠ م) ، وإن كانت محاولتهم هي الأخرى قد باءت بالفشل^(٣) لذلك أخذ قلاون يتبع سياسة جديدة تستهدف التغريبة بين خصومه وعدم تــكينهم من الاتحاد ضده ليتمكن من منازلة كل منهم على حدة . ويبدو أن قلاون أراد أن ينزل ضربته الأولى بالمغول ، لأنـه بدأ بعقد صلح في سنة ٦٨٠ هـ (مايو سنة ١٢٨١ م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية في بلاد الشام ، وهم الداوية والسبتارية وبويــموــند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الأشقر - خصم قلاون العــظــيــد - فقد عــفــ عنه السلطان فيها بعد سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجزــلــ له العــطــاءــ وعيــنهــ حــاكــماــ

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٩٩ . Wiet : L'Egypte Arabe, p. 445.

King : The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 282. (٣)

على إقليم أنطاكية^(١) . هذا في الوقت الذي وقف الصليبيون في عكا
وقف الحياد بين قلاون وخصومه ، بل إن الفضل يرجع اليهم في تنبئه
قلاون إلى المؤامرة التي دبرها الظاهرية ضده ، كما سبق أن أشرنا .

وكان أن خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من المغول
في سنة ٦٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨١ م) . وتحالف مع المغول في غزوهم
هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وفي موقعة حمص التي دارت بين
السلطان قلاون والمغول سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١ م) ، حللت
المزنية ساحقة بالمغول ولووا الأدبار إلى العراق بعد أن « هلك منهم خلق
كثير »^(٢) . وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر على المغول ، فإنه
رأى أن ينذر الفرصة لينزل ضربته الثانية بالصلبيين على الرغم من أنه كان
قد عقد معهم صلحًا لمدة عشر سنوات لم تنتقض منها سوى أربع سنوات
فقط . ففي سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) هاجم قلاون الاستبارية في حصن المرقب
- وهو من أخطر الحصون الصليبية بالشام - واستولى عليه فعلا ، مما سبب
خسارة كبيرة للصلبيين^(٣) .

وفي الوقت الذي كان المماليك يتأهبون للإتجاز نهائيا على الصليبيين بالشام
لم يتنبئ الصليبيون إلىحقيقة الخطر الذي يهددهم ، واستمروا غارقين في
منازعاتهم الداخلية ، وهي المنازعات التي ميزت تاريخ الصليبيين بالشام في
النصف الأخير من القرن الثالث عشر^(٤) وقد انهز السلطان قلاون فرصة
إنشغال الصليبيين بذلك المنازعات وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦ هـ

(١) النويري : نهاية الأربع ج ٣٩ ورقة ٣٧٠

(٢) رشيد الدين المدايني : جامع التواریخ ، ج ٢ ص ٨٣

(٣) المقرنی : السلوك ج ١ ص ٧٣٨ ، أبو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٨٤

Runciman : History of the Crusades, III, pp. 402-403. (٤)

(أبريل سنة ١٢٨٧م)، وهو آخر بلد كان قد تبقي للصلبيين من إماراة انطاكية، وشاء سوء حظ الصلبيين في تلك الظروف أن يموت بوهيموند السابع أمير طرابلس دونوريث، فقام في إمارته نزاع داخلي حول وراثة الحكم، واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون^(١).

وهنا أسرع قلاون إلى اقتراض الفرصة « فتجهز لأخذ طرابلس » وخرج من مصر على رأس جيشه في فبراير ١٢٩١م . وكان جيش قلاون كبيراً - يزيد عن أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة - فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار الذي فرضه عليها السلطان وسقطت في قبضته سنة ١٢٩٥ (أبريل سنة ١٢٩١)^(٢).

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التي أخلاها الصليبيون. قرب طرابلس - مثل بيروت وجبله - ؛ وبذلك لم يبق للصلبيين من ملوكهم العريض في بلاد الشام سوى عكا وصیدا وصور وعثليث^(٣). ومن الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن الصليبية وأمنعها ، وأنها صارت المركز الجديد لمملكة بيت المقدس الصليبية بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، ومع ذلك فإنه لم يكن في نية السلطان قلاون مهاجمة عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة . ذلك أن قلاون اتجه إلى دمشق ، حيث وافق على تحديد الهدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات^(٤).

وبينا الصليبيون في الشام يخططون ود السلطان قلاون ويسألون الله

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ - ٣٢١

(٢) المقريزي : السلوكي ج ١ ص ٧٤٦ - ٧٤٧

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 145.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٧

أن تبقى لهم البقية الباقيه من مدنهم بالشام ، إذا بعض الجموع الصليبيه تهدى من إيطاليا سنة ٥٦٨٩ (١٢٩٠ م) لتفسد الجو بين المسلمين والصلبيين، ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا عكا وهم يفicionون حماسه ، وفي الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس ، فاعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا مما أذى بتجدد الحرب بين المسلمين والصلبيين . ويقال أن السلطان قلاون عند ما رأى ملابس ضحايا المسلمين مضرحة بالدماء استنشاط غضباً وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين . وفي الوقت الذي أخذ قلاون يستبعد في مصر والشام للقيام بعمل حربي كبير ضد عكا ، إذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٥٦٨٩ (١٠ نوڤمبر سنة ١٢٩٠ م) ^(١) .

السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء الظاهر بيبرس »
فغلبت عليه غريزة الأبوة وأراد أن يخرب شريعة المهايلك في الحكم فيعهد بالسلطة من بعده لأبنه الأكبر .

بل إن المنصور قلاون تمادي ، فلم يكتفى بما فعله الظاهر بيبرس من تولية ابنه الأكبر عهد السلطنة ، وإنما أراد قلاون أن يقيم ابنه الأكبر علام الدين على سلطاناً في حياته . وفعلاً تمت هذه الخطوة سنة ٥٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، فأقيم حفل بالقلعة قرئ فيه تقليد علام الدين على بن قلاون بحضور الأمراء والكتاب ، ولقب السلطان الجديد الملك الصالح ^(٢) .

ولكن شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح على بن قلاون سنة ٥٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطاناً في حياة أبيه . وقد ضاعف

(١) المقريزى : السلوك ح ١ من ٧٥٤

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ح ٩ ورقة ٨٢ - ٨٥

من حزن قلاؤن على ابنه علاء الدين أن الأبن الثاني للسلطان — وهو خليل
— كان مكر وهاً من الأمراء، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بقواعده
الدين؛ بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذي دس السم لأخيه علاء الدين^(١)
ومن الثابت تاريخياً أن ولاية العهد الأمير خليل كتبت فعلاً في حياة أبيه
ولأن السلطان قلاؤن لم يوقعها . وسواء كان عدم توقيع كتاب ولاية العهد
راجعاً إلى عدم ارتياح قلاؤن لأن يخلفه ابنه خليل في حكم المسلمين —
كما قال بعض المؤرخين — ، أو إلى انشغال قلاؤن بأمر الصليبيين حتى
دفنه الموت بجاهة ؛ فالمهم هو أن السلطان المنصور قلاؤن توفى دون أن
يعتمد ولاية العهد لابنه خليل^(٢) .

ومهما يكن الأمر ، فإن ما قام به السلطان قلاؤن في حياته من إعلان ابنه
علاه الدين سلطاناً في حياته بموافقة الأمراء ، وما أعقب ذلك من كتابة
ولاية العهد لأبنه الثاني خليل بعد وفاة علاء الدين على ؛ كل ذلك جعل
خليل لا يصادف صعوبة في المصادقة به سلطاناً عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ
(١٢٩٠م)؛ لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود
الحملة التي كان المنصور قلاؤن قد أعد لها التأمين من الصليبيين في عكا . وهكذا
أقسم الأمراء إلا يان للسلطان خليل — الذي لقب بالأشraf — سنة ٦٨٩ هـ
(١٢٩٠م) وببدأ السلطان الجديد يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام .

على أن الأمور لم تتم للسلطان الجديد في هذه تمام دون أن يتعرض
للمنافسة التقليدية التي تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار

(١) المقريزى : السلوكي ج ١ ص ٧٩٢—٧٩٣

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٨٢ ، ٨٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٠
القلقشندى : صحيح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ ، التویرى نهاية الارب ج ٢٩
ورقة ٢٩٣ .

الأمراء . وذلك أن الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة عن عليه إلا يفوز هو بالعرش بعد وفاة قلاون ، فدبّر مؤامرة للتخلص من الأشرف خليل . وفي الوقت الذي تفاصيل الصليبيون في عكا بسبب ما حدث في داخل الدولة المملوكيّة من وفاة السلطان قلاون وتأمّس الأمير حسام الدين ضدّ السلطان الجديد الأشرف خليل ، إذا بالسلطان خليل يكشف المؤامرة في سرعة ، فقبض على حسام الدين طرنطاي وقتله بعد أن صادر أملاكه ، كما أعطى إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرًا الذي أصبح نائب السلطنة .^(١)

وعندما علم الصليبيون في عكا أنّ السلطان الأشرف خليل تخلى عن الصعبات التي واجهته ، وإنّه بقصد الخروج إليهم ، حاولوا ثنيه عن عزمه ، فأرسلوا إليه سفاره « يسألون العفو » ، ولكنّ السلطان لم يقبل منهم ما اعتذرّوا به ،^(٢) وهكذا اجتمعـت الجيوش الإسلاميـة من مصر وبـلـاد الشـام أـمام عـكا سـنة ٦٩٠ هـ (أـوائل اـبرـيل سـنة ١٢٩١ مـ) ، فـبدأ حـصار المـديـنة وـرمـيـها بالـحجـانيـق رـميـا مـتوـاصلـا . وـقد بـذـلـ الصـليـبيـون جـهـدـاً مـسـتمـيـتاً فـي الدـفاع عـن عـكا ، وـلـكـنـ جـهـودـهـم ذـهـبـتـ معـ الـريحـ ، فـاقـتـحـمـ الـمـسـلـمـونـ المـديـنة سـنة ٦٩٠ هـ (١٨ ماـيو سـنة ١٢٩١ مـ) وـفـرـ منـ استـطـاعـ الفـرارـ منـ الصـليـبيـينـ فـي السـفـنـ إـلـى عـرـضـ الـبـحـرـ ، حـيثـ غـرـقتـ بـعـضـ السـفـنـ بـسـبـبـ كـثـرةـ منـ تـحـمـلـهـ مـنـ الـفـارـينـ^(٣) .

ولاشك في أن استيلاء المسلمين على عاكا كان بمثابة الضربة الكبرى الختامية التي نزالت بالصليبيين في الشام . ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام في تلك البلاد ، فاستولى المسلمون في سهولة على المراكز القليلة الباقية

(١) بيرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٠٧

(٢) المقريزي : السنوك ج ١ من ٧٦٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ من ٦ - ٧ أبو الفدا : المختصر سنة ٥٦٩٠

بأيديهم مثل صور وصيدا وانطروطوس وعثيميث . . (١) وبذلك كان السلطان الأشرف خليل قلاون هو بطل آخر صفحات المزاحمة الصليبية بأرض الشام .

على أن نجاح السلطان الأشرف خليل في طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم . ويبدو أن نجاح الأشرف خليل في الاستيلاء على عكا جعله يتادى في كبرياته وتعاظمه على الأمراء ، حتى ضاقوا به ذرعاً وأخذدوا يفكرون في التخلص منه . وقد ترجم حركة التآمر على الأشرف خليل الأمير بدر الدين بي德拉 نائب السلطنة الذي سامت العلاقة بشكل خطير بينه وبين السلطان . ذلك أن الوزير شمس الدين بن الساعوس أخذ يوغر صدر السلطان ضد بي德拉 ، وأوهمه أن أملاكه بي德拉 ازدادت بشكل يهدد السلطان نفسه ، فلما جاء الأشرف خليل إلى استعادة بعض الأملاك التي كان بي德拉 قد استولى عليها (٢) .

وكان أن أحس الأشرف خليل بتغيير بي德拉 عليه ، فحاول - بعد فوات الأوان - أن يسترضيه وأرسل إليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها (٣) . ولكن بي德拉 كان قد وضع خطته فعلاً بالإشتراك مع بعض كبار الأمراء ، مثل حسام الدين لا جين وشمس الدين قرانسقرو وسيف الدين بهادر . وعند خروج الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تبعه الأمراء المتآمرون . ولم يلبث أن ضربه بي德拉 بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء حتى أحجزوا عليه (٤) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٨٣ - ١١٨٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ - ٧٨٣ .

(٣) مفضل ابن أبي القصائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٤) مفضل ابن أبي القصائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٩٠ .

السلطان الناصر محمد بن قلاون :

تكررت عقب مقتل الأشرف خليل نفس التسلية التي حدثت عقب مقتل السلطان قطز ، إذ اجتمع المتأمرون وقرأ لهم على أن يلي بطل المؤامرة عرش السلطنة . وهكذا حلف الأمراء يمين الولا لأمير بي德拉 وقبوا له الأرض ولقبوه بالملك الأوحد^(١) . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يغادر السلطان الجديد وشركاوه مكان الجريمة عند تووجه بمديرية البحيرة في طريقهم إلى القاهرة ليحتل بي德拉 مكانه في القلعة . ولكن ماليك السلطان الأشرف خليل – بزعامة زين الدين كتبغا – لم يتركوه يصل إلى القاهرة ، إذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا في تعقب بي德拉 وأنزلوا به الهزيمة في البحيرة ، بيل قتلوا بي德拉 نفسه . وهكذا خلا المسرح من الأشرف خليل وبدر الدين بي德拉 جمعياً ، وظهر بطل جديد هو الأمير زين الدين كتبغا ، الذي سار صحبة رجاله إلى القاهرة لينادي بنفسه سلطاناً في القلعة . ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي – الذي كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه في قلعة الجبل قبل خروجه للصيد – حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد بن قلاون سلطاناً^(٢) .

ومن الواضح أن الناصر محمد بن قلاون كان طفلاً صغيراً لم يتتجاوز عمره عندما ولي سلطاناً لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تسع سنوات ، فلم يكن اختيار الأمراء له ناجماً عن احترام شخصيته أو رغبة منهم في احترام أحقيته في الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وإنما اختياره للأمراء

(١) وقيل الملك الأوحد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم . (أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ ، ابن آياس بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ المقريزي : المواعظ ج ٢ من ٣٢٩ تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤١ ، مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ .

وفقاً لسياستهم التقليدية حسماً للموقف بينهم، إلى أن تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الإطاحة بذلك الطفل وتولي الحكم . وفعلاً قضى الناصر محمد سنة في الحكم كان شبه محجور عليه بالقلعة ، في حين استبد بأمره الدولة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي، ثم الأمير كتبغا المنصورى . ذلك أن كتبغا عندما أدرك ازدياد نفوذ الشجاعي بدرجة تهدده ، صمد له وقاتلته حتى ~~ف~~فلاص منه بالقتل^(١) .

وقد بلأ كتبغا إلى العفو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل – مثل الأمير حسام الدين لا جين والأمير قراسنقر – فأثار ذلك المماليك الأشرفية . وكان أن اتخد حسام الدين لا جين تلك الثورة ذريعة لينgin الأمير كتبغا عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطاناً بدلله ، ففي كبر الناصر محمد لا يقييك البتة ... والمصلحة خلعه وسلطنتك^(٢) .

وهكذا جمع الأمير كتبغا الأمراء ، وتشدق ببنفس الأسطورة القديمة التي سبق أن رددتها قطر وقلانون ، فقال لهم « لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطبع المماليك في حق الرعية »؛ ومن الرأى أن نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك عن هذه الأفعال^(٣) . وهكذا عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٥٦٩٤ م (١٢٩٤ م) وحل محله كتبغا .

السلطان العادل كتبغا :

أما السلطان العادل كتبغا الذي تولى السلطنة سنة ٥٦٩٤ م (١٢٩٤ م) فكان مغولي الأصل ، ويقال أنه من أمرى موقعة حصن . على أن الناس

(١) المقريزى : *السلوك* ج ١ ص ٧٩٧ - ٨٠١ .

(٢) أبو المحاسن : *الجروم* ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٣) ابن آياس : *بدائع الزهور* ج ١ ص ١٣٢ .

تشاءموا من كتبغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بالانخفاض النيل وشدة المجاعة
وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء^(١).

ويروى المقريزى أن جميع الناس بالقاهرة ترددت على ألسنتهم عبارة
واحدة يوم ركوب كتبغا بشعار السلطة هي « يانهار الشوم ! إن هذا النهار
نحس ! »^(٢). وزاد من كراهيته الناس لكتبغا وحكمه أنه وفد على مصر
في عهده جماعة من بنى جنسه من المغول ، عرفوا باسم العوراتيه أو الأويراتيه
— فرحب بهم كتبغا وبالغ في إكرامهم رغم أن معظمهم كانوا وثنيين. وكانت
أعدادهم كبيرة — إذ قاربوا العشرة ألف — فأدى ترحيب كتبغا بهم
إلى استثناء شعور الأهالى وإلى نقمتهم على السلطان^(٣).

وعلى الرغم من أن السلطان كتبغا عفا عن الأمير حسام الدين لاجين
الذى شارك فى قتل الأشرف خليل ، كما عين ذلك الأمير نائباً للسلطنة ،
إلا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة مستغلًا عوامل الكراهة التي
أخذت تجتمع ضد كتبغا . ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشام غضبوا
على كتبغا لأنه عزل الأمير عن الدين أبيك الحوى نائب السلطنه بالشام
وولى أحد ماليكه بدله ، فضلاً عن أن كتبغا عندما زار دمشق لأول مرة
بعد سلطنته سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) لم يوزع على الأمراء ما جرت به عادة
السلطانين السابقين من منح أو انعامات^(٤).

وكان أن دبر لاجين مؤمرة مع الأمراء لقتل كتبغا أثناء عودته من
الشام إلى مصر ، واختير موضع قرب طبرية لتنفيذ المؤمرة . غير أن

(١) المقريزى : السلاوك ج ١ ص ٨١٣ - ٨١٤

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٨٠٧

(٣) أبو العدا : المختصر ج ٤ ص ٣٣

(٤) مفضل ابن أبي القصائل : النهج السديد ص ٥٩٢ - ٥٩٤

كتبغا تمكن من الفرار، وعاد إلى دمشق، فحين أعلم حسام الدين لاجين نفسه سلطاناً وبايته الامراء، وأتى إلى القلعة حيث تلقب بالسلطان المنصور^(١).

السلطان المنصور لاجين :

تولى السلطان المنصور حسام الدين لاجين منصب السلطنة سنة ٥٦٩٦ (١٢٩٦ م)، فحين وجد كتبغا نفسه مغلوباً على أمره فقبل معارضه عليه لاجين من التنازع عن الحكم والإقامة في مدينة صرخد من أعمال دمشق^(٢).

على أن كتبغا لم يكن العقبة الوحيدة أمام السلطان لاجين وإنما كان الناصر محمد بن قلاون ما زال يقيم في القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا إليه دائماً على أنه صاحب حق شرعى في السلطنة. لذلك تحايل السلطان لاجين على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة السكرك سنة ٥٦٩٦ (١٢٩٦ م)، بعد أن أوهمه أنه سيعيده إلى عرشه عندما يبلغ سن الرشد، وإنه يقوم بالوصاية على الملك بدله لصغر سنها^(٣).

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين عند مبايعته سلطاناً — ألا يحابي عماليكه على حسابهم — كما فعل كتبغا — وألا ينفرد برأى « وألا تخول ملوكك منكتور في التحكيم والتدبر فتضلل »، وعندئذ تعهد لهم لاجين بكل ذلك وقال لهم « أنا واحد منكم ولا أخرين نفسى عنكم ، ولست مولياً عليكم من

(١) المقريزى : الساروك ج ١ ص ٨٢٣-٨٢٤

(٢) وقد ظل كتبغا هائماً في صرخد حتى أتى الناصر محمد — في سلطنته الثانية — بمدحه وأتمها فحال بها إلى أن توفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٧.

(٣) الديورى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥

حاليسكي أحداً^(١). ولتكن سر علن مانسو لاجين وعوده بعد أن أستتببت له الأمور، فهزل شمس الدين فراسنقر الذى كان قد عينه أولاً نائباً للسلطنة، وعين بدلته فى منصبه على كه منسكوتير، مما جاء بدأية المتابع الذى واجهت السلطان لاجين . ذلك أن منسكوتير لم يلبث أن أستثار الأمراء بتضييقه عليهم وتشككـه فىهم وأقصائهم عن مناصب الدولة وإحلال غيرهم من مماليك لاجين محلهم . بل إن منسكوتير تسلط على السلطان تسلطاً غريباً «فاستحوذ على عقل مخدومه وأستولى عليه وحججه عن الخاصة وال العامة»، ويدو أن منسكوتير أعد نفسه لأن يختلف لاجين فى منصب السلطنة ، لاسيما وأن الأخير لم يكن له ولد يحرص على أن يوليه عهد السلطنة ، الامر الذى أثار حنق الامراء وجعلهم يفكرون فى التخلص من لاجين ومنسكوتير جسمعاً^(٢). ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل لاجين وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٥٦٩٨(١٢٩٨م) ثم قتل منسكوتير بعده بقليل^(٣) .

عودة السلطان الناصر إلى العرش ٥٦٩٨ (١٢٩٨م) :

لم يوجد بين أمراء المماليك -عقب مقتل لاجين ومنسكوتير - شخصية كبرى تستطيع أن تسيطر على اللواء وتنتاثر بالسلطنة ، فاضطرب الامراء وسط ذلك الفراغ إلى التفكير في الناصر محمد بن قلاون الذى كان يقضى أيامه في الكرك ، والذى ظل دائماً يدوّن صوره صاحب الحق الشرعي في السلطنة . وكان أن استحضر الناصر محمد إلى مصر ليتوالى منصب السلطنة للمرة الثانية ٦٩٨ - ٥٧٠٨ = ١٢٩٨م) فاستقبل استقبلاً حاسماً رائحاً من

(١) بيوس الدوادار : زبدة الفسحة ج ٩ ورقة ١٧٢ ، مفضل ابن أبي القضايل : النهج السديد من ٥٩٦ .

(٢) التويرى : نهاية الارب ج ٢٩ ورقة ٣١٩ ، ابو الجasan : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٢٧.

(٣) مفضل بن أبي القضايل : النهج السديد من ٦١٤ ، ابن ابياس : بدائع الذهور ج ١ من ١٤٧ - ١٢٨

المماليك وعامة الناس سواء ، وتفاول الناس بقدمه وأقاموا الزيارات في طريقة حتى صعد إلى القلعة . وهناك في القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطنته ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، كما فرق الخلع على أعيان الدولة وزع على مماليك أبيه العطايا والمدايا^(١) .

وكان أهم ما تعرضت له دولة المماليك في ذلك الدور هو تجدد هجمات المغول على بلاد الشام ، إذ اوغلت جيوش غازان في بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) حتى ازالت المغولية بالمماليك عند مجتمع المروج بين حمص وحماء . ويبدو أن مقاومة المماليك في الشام أنهارت بعد هذه المهزيمة فدخل غازان دمشق وعاد جنوده فيها فساداً على أن غازان أكتفى بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائباً عنه في دمشق . وكان ذلك في الوقت الذي خرج جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد قاصداً الشام سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) وقد استطاع المماليك دخول دمشق ولم يعبثوا بطلب غازان مهادنتهم^(٢) ، الأمر الذي استثار غازان غرزاً من بلاده سنة ٦٧٠هـ (١٣٠٢م) قاصداً غزو الشام من جديد . وفي مرحلة مرج الصفر التي دارت قرب دمشق في تلك السنة حلت المغولية قاسية بالمغول ، الأمر الذي جعل الناس يفرجون بالناصر محمد رغم صغره ويسقطونه واستقلاً بالخلافة دمشق والقاهرة^(٣) .

غير أنه لا يخفى علينا أن الناصر محمد تولى منصب السلطنة تلك المرة الثانية وهو لا يزال صغيراً، ولذلك فإنه كان لا يستطيع بأي حاله الوقوف في وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتقدت ضراوتهم ومن نوالتلاعب بكيله^(٤) المسلمين

(١) أبو المحاسن: *النجرن المزاحمة* ج ٨ ص ١١٥ - ١١٦

(٢) التزيري: *نهاية الأذربيجان* ٣٢١، بيبرس الكوفي له ولوز بده الله بكرة ج ٩ ص ٢٦ - ٣٣

(٣) المقريزي: *السلوك* ج ١ ص ٩٣٨

فأباالنا سلطان طفل كان لا يزال في الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية اسميه ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيرس الجاشنكير الخناق عليه ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف في أموره^(١) بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عند ذهنه أنه كان يشتته نوعا معينا من الطعام فيرسل المتسابقين إلى الأمير سلار . ويحكي المؤرخون أنه حدث أن أرسل الناصر محمد إلى الأمير سلار يبلغه أنه يشتته تناول بعض الحلوي والأوز ، فرد الأمير سلار على حامل الطلب قائلا ، وإيش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الاكل عشر ونمرة بالنهار^(٢) ..

وأخيراً صاق السلطان الناصر بذلك الحجر المفروض عليه ، فامتنع الأمير بكتير الجو كندار لمساعدته في التخلص من الأميرين سلار وبيرس الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين علما بالمؤامرة ، فخاطرا القلعة للقبض على الناصر محمد ومنعه من الهروب ، بما أثار إشتبها كا بين المماليك السلطانية وأتباع الأميرين . وجدير بالذكر أن الرأي العام في القاهرة كان يعطف على السلطان الناصر محمد الصغير عطفا غريبا ، فلم يكدر العامة يعرفون بما تم من محاصرة الناصر محمد حتى تجمعوا وهم يهتفون يا ناصر يا مصوّر ! الله يخون من يخون ابن قلاون^(٣) ، ولأول مرة نسمع عن إرادة الشعب بوضوح في عصر المماليك ، فوجد سلار وبيرس الجاشنكير نفسهما في مأزق إزاء مناصرة الشعب للسلطان الصغير ، واضطرا إلى الانتحاء أمام العاصفة بجدهما الولاء للناصر محمد بعد أن نقى لهما أية نية سيئة تجاههما وأعلن أن أحدا من الأمراء لم يحرضه ضدّهما^(٤) .

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ من ٥٤

(٢) العيني : عقد الجهاز - مروادث سنة ٦٧٥ـ٦٧٦ ، أبو المحاسن النجوم ج ٨ من ٥٤٦ـ٥٤٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ من ١٧٣

(٤) ابن إيسا : بدائع الزهود ج ١ من ١٤٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ من ٥

ولكن إذا كانت العاصفة قد هدأت ، فإن هدوءها كان في الظاهر لأن سلار وبيرس ظلا يضمر أن السكرافية للناصر محمد في حين أن الناصر محمد نفسه كان غير متاح إلى وضعه، ويخشى على نفسه عاقبة غدر هذين الأميرين. وأخيراً ضاق السلطان بحياته التي قضتها حبيس القلعة، وأدرك أنه لا فائدة من التغلب على سلار وبيرس بعد أن «تجاوزوا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنوى»^(١). لذلك فكر الناصر محمد في الهروب من السلطنة ، ففظاً هر برغبته في أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق السكرك . ولكنّه لم يكُن يصل إلى السكرك سنة ١٣٠٨ هـ (٢) حتى أعلن ماف نفسه ، فدعى من معه من الأمراء والمهاليك وأخبرهم أنه اختار الحياة في السكرك حرّاً ، وأنه ترك السلطنة وقيودها ؛ ثم أرسل الناصر كتاباً إلى الأمراء في مصر يخبرهم فيه بذلك^(٣).

وقد ارتبك الأمراء في مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد لأنهم لم يكونوا مستعدين للموقف ، فأرسلوا إليه يسألونه العودة وإلا حromoه من السلطنة ومن الإقامة في السكرك . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ورد عليهم قائلاً «دعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره». وكان أن عرض الأمراء على سلار منصب السلطنة ولكنّه كان حريصاً على ألا يتعرّض للهصیر الذي تعرض له كتبغاً ولا جين لاميماً وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ولا تبشر بخير.

لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب ، وأشار إلى زميله بيرس الجاشنكير وقال « والله يا أمراء أنا ماأصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخي هذا»^(٤) . وكان أن بايع الأمراء بيرس الجاشنكير بالسلطنة^(٥).

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٦

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير :

تولى منصب السلطنة سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) ، وبادر فور اعتلاءه على العرش بكتابه تقليد يمنح الناصر محمد السكرك . على أنه إذا كان السلطان بيبرس الثاني قد ظن أن الأمور قد هدأت له بذلك ، فانصرف إلى تنظيم أمور الدولة وعين الأمير سلار نائبا له ؛ فإن آماله لم تلبث أن انهارت بالسرعة التي قامت بها . ذلك أن الناصر محمد ظل دائماً يتمتع بشعبية كبيرة في مصر والشام ، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بالمسؤولية التي توهمها المظفر بيبرس . وشاءت الظروف أيضاً أن يأتي قيام بيبرس الجاشنكير مقرضاًنا بانخفاض النيل وارتفاع الأسعار، مما جعل الناس يفسرون ذلك بسوء طالع السلطان الجديد ، فصاروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يصيحون « سلطاناً ركين (قصغير ركن الدين بيبرس) ونائباً دفين (يقصدون الأمير سلار ، وكان أجرداً بذاته شعيرات قليلة) ؛ يحيينا الماء متنين ؟ ٤ جيوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر محمد وكان به عرجاً خفيفاً) ، يحيى الماء يدحرج (١) !! » .

ثم إن كثيراً من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة نواب حلب وحماء وطرابلس الذين رفضوا أن يتزعموا عن مواليهم وأعلنوا ولائهم لمبيت قلاون ؛ بل لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأمراء ثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا إلى الناصر محمد بالسكرك يستأذنه نه في القدوم عليه بالسكرك لمناصرته ، فلما أن تأنزله الملك وإنما إن نموت على خيولنا (٢) » .

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تذهب إلى حقوقه في

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨

الملك وإلى سلطانه المسالوب . نعم صار الناصر محمد سنة ٥٧٠٨ (١٣٠٩ م) خيره سنة ٥٦٩٣ (١٢٩٤ م) ، إذ فعلت هذه السنوات الخمس عشرة - منذ عزله أول مرة - فعلها في صقله وأكسابه قدرًا كبيراً من التجربة ، وبخاصة في معاملة الأمراء . وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من إتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام ، فأرسل إليه يهدده ويتوعده « وإنما جرى عليك ما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري »^(١) ، بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الثاني أن أرسل إلى الناصر محمد بالذكر يطلب منه مالديه من خيل وماليك ، وهذا غضب الناصر محمد غضباً شديداً وصاح « أنا خليت حملت مصر والشام لبيبرس (الثاني) وما يكفيه حتى ضاقت عينيه على فرس عندي أو ملوك لي » ، وفي الحال أرسل الناصر محمد إلى حلفائه من أمراء الشام يقول لهم « أنت ماليك أبي ورببيتوني ، فلما أن تردوه عنى وإنما أسيير إلى بلاد التمار »^(٢) .

وهكذا أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته المفقودة ، فترك كثيراً من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهرروا إليه . وعندما زار دمشق استقبله أهل دمشق في حفاوة بالغة ، وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٥٧٠٩ (١٣٠٩ م) . أما المظفر بيبرس ، فقد ساء موقعه وانقض عنه معظم رجاله ، فحاول أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى في القاهرة - وهو أبو ربيعة سليمان - ولكن كل ذلك لم ينفعه شيئاً أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وجهم له . هذا إلى أن الخليفة العباسى في القاهرة كان لا حول له ولا قوة في ذلك العصر حتى أن أحد الأمراء المهايلك عندما قرأ العهد الذى منحه الخليفة سليمان

(١) ابن ایاس : بستان الرهور : ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٣

للسلطان المظفر بيبرس ووجد أوله إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم،
رد على الفور قائلاً « ولسلامان الريح »^(١) .

وأخيراً عول الناصر محمد وحوله رجاله وأنصاره على الحضور إلى مصر،
ووجد بيبرس الجاشنكير نفسه عند ذلك وحيداً، لا شعب يلتف حوله ويغطّف
عليه، ولا جيش يقف إلى جانبه. لذلك اضطر بيبرس إلى دعوة الأمراء
لشاورتهم في الأمر، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستئصال
الناصر محمد ليعفو عنه. ولم يكن في وسع بيبرس الثاني أن يفعل غير ذلك؛
فقاده القلعة ليلاً قاصداً أطفيح، والعامة يطاردونه حتى أوسعوه سبباً
وأوشكوا على الفتوك به لو لا أن شغفهم بما رماه إليهم من مال^(٢). وعلى
هذا النحو انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير

سلطنة الناصر محمد الثالثة (٥٧٤١ - ١٣٠٩ م)

خرج السلطان الناصر محمد من الكرك قاصداً القاهرة، يرافقه رجاله
وأتبعه. وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان في رحلته هذه، فوصف لنا
كيف كان يلتقي السلطان كل يوم أثناء مسيرةه بجموع المماليك والأمراء
وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له^(٣). وهكذا حتى
دخل قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة ١٣٠٩هـ (٥٧٤١ م)،
« وأصبح السلطان يوم الخميس جالساً على تخت الملك وسرير السلطنة،
وحضر الخليفة أبو الريين والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للمناء^(٤) .
وكان الناصر محمد عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩هـ (٥٧٤١ م)

(١) أبو المحاسن: الشجرة الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٢) ابن إيس: بدائع الذهور ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) أبو الفدا: المعجم: ج ٤ ص ٥٦-٥٨ .

(٤) المقريزى: السطوة ج ٢ ص ٧٤ .

ف الخامسة والعشرين من عمره ، أى في سن تمكنه من مباشرة شؤون الحكم بنفسه ومن فرض كلامته على الأمراء . وقد بدأ الناصر محمد بالثأر لنفسه من الأمراء الذين سبق أن آذوه واستغصوا به ، فقبض على بيرس الجاشنكير عند غزوة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عنيه ذكره بمواقفه منه ^(١) . أما سلار فقد ألق به في السجن حتى مات ^(٢) . وهكذا تبدى الناصر في تلك المرة إلى مطامع الأمراء ، فكلما سمع بتامر أمير أوشك في تصرفاته تخلاص منه في الحال وأقصاه عن الوظائف العامة . وكانت سياساته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام هي أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا ما أحس أن نفوذه زاد عما يجب ، تخلاص منه في الحال ^(٣) .

وقد استمر حكم الناصر محمد في تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة، هي مدة طويلة لم يداها فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك في مصر . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصري زمن المماليك ، وأكثراها أزدهاراً ورقياً واستقراراً . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غرباً حتى الشام والخجاز شرقاً ومن التوبه جنوباً حتى آسيا الصغرى شمالاً . وقد أرسل السلطان الناصر حملة إلى التوبه سنة ٤٧٠٤ (١٢٥٠ م) في سلطنته الثانية ، ثم حملتين أخرتين سنة ٧١٥ ، ٧١٦ ، ١٣١٥ (١٢٣٦ م) في سلطنته الثالثة ، وتمسكت هذه الحملات من إقامة أول مالك مسلم من أهل التوبه على تلك البلاد هو عبد الله بن شنبو . وإذا كانت أحوال مملكة التوبه لم تستقر بعد ذلك مما تتطلب من السلطان الناصر محمد إرسال حملة جديدة سنة ٧٢٣ (١٣٢٣ م) إلا أنه يلاحظ أن بلاد التوبه أخذت منذ ذلك

(١) أبو المحسن : التجوم ج ٨ ص ٢٧٤-٢٧٥ ، المقرن : السلوك ج ٢ ص ٨٠-٩١ .

(٢) ابن ابياس : بداع الزهر ج ١ ص ١٠٦ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون في مصر ص ٥٢ .

الوقت تفقد صفتها المسيحية تدريجياً لتتخذ طابعاً عربياً إسلامياً^(١).

أما في الداخل ، فقد كان عبد الناصر محمد عبد رحاء واستقرار ، فأقام الناصر كثيراً من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها^(٢). ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية والمسجد الذي شيد بالقلعة والخانقاه التي أقامها سر ياقوس . هذا فضلاً عن المنشآت التي جددتها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد شيد سنة ٦٨٨ھ (١٢٨٩ م) ولاعجب إذا وصف المقريزى الناصر بأنه « كان محباً للعمارة ... وبلغ مصروف العماره في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »^(٣).

وهكذا قضى الناصر محمد عهده الطويل في الإصلاح والإنشاء والتعهير ، الأمر الذي جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وأفضله وازدهار حكمه^(٤):

أولاد الناصر محمد وأحفاده:

من الثابت في التاريخ أن بيت قلاون يتمتع بحب الناس وإخلاصهم ، وأن الناصر محمد بن قلاون حظى بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها في تمسك رعاياه به وإخلاصهم له . وقد يكون السبب في ذلك أن الناس في عصر سلاطين المماليك سئموا الاضطرابات والفتنة والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانين ويختزن الناس الطعام ، ويستعدون لفترة عصبية

(١) المقريزى : السلوكي ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢ ، مصطفى محمد مسند : الإسلام والنوبة من ٩٦ وما بعدها .

(٢) ذكر المؤرخ أبو المحاسن (ج ٩ ص ١٧٨ وما بعدها) منشآت الناصر محمد بإصلاحاته بالتفصيل

(٣) المقريزى : المواعظى ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) أبو الحasan : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٢٥٠ ص ٢٢ . رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٢ .

يتزعزع فيها الأمن وتقلل المؤمن وتضطرب الحياة الاقتصادية . أجل ، سُمِّ الناس في عصر المماليك تلك الأوضاع وأرادوا أن يهنتوا بقسطنطين الاستقرار والمدود يباشرون في ظله حياتهم العادلة دون أن تقلّتهم فتنة أو أزمة ، فوجدوا غایتهم في عهد المنصور قلاون وعهد ابنه الناصر محمد .

وأجل هذه الشعبيّة الكبيرة التي تمنع بها بيت قلاون ، هي التي جعلت الناس يتمسّكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، فظلّ أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٥٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) أي طوال أربعين سنة ، رغم أنه كان من هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك لضعفه أو سوء خلقه أو صغر سنّه ، ومع ذلك فإنّ الهمبة التي صارت لبيت قلاون في نفوذه الناس جعلتهم يتمسّكون به .

ويبدو أن الناصر محمد بن قلاون كان يحس دائماً بشعور القلق نحو مستقبل العرش بعد وفاته ، وبخشي أن يتعرض أبناؤه من بعده لما تعرض له في مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣١ م) إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك بالسلطنة ، وعندئذ وافق الأمراء على ذلك ووزّعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلل ، وركب الأمير آنوك بشعّار السلطنة . غير أن السلطان الناصر لم يلبث أن غير رأيه بجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآنوك من ولادة العهد ، ورسم أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يطلق عليه اسم السلطنة ،^(١) وتفق المراجع صامته إزاء هذا الانقلاب المفاجيء في سياسة الناصر تجاه مسألة ولادة العهد ، ولا تستطيع أن تفسّر نحن ذلك إلا في ضوء عدم رضى الناصر عن ولده آنوك ، أو أنه رأى أن يرجي هذا الأمر حتى يكبر

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ من ٣٤٣

أبنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأن سنّه كان عندئذ تسع سنوات فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن آنوك توفي سنة ٥٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، وبعدها أحس الناصر محمد بحرث الموت ، فجمع الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه في أن يخلفه في الحكم ابنه سيف الدين أبو بكر ، فأقر الأمراء ذلك وتعهدوا بتنفيذ رغبة السلطان^(١) . ولم يلبث أن توفي السلطان الناصر محمد نفسه سنة ٥٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وسط مظاهر الأسى والحزن البالغ .

والواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٥٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) جاءت إيذاناً بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتع بهما مصر في عهد ذلك السلطان . وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمسكوا من البقاء في الحكم أربعين سنة بعد وفاة الناصر نفسه ، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت في أحد أولئك السلاطين ، وإنما كان مرجح ذلك هيئته بيت قلاون نفسه في قلوب المعاصرين ، وهي الهيئة التي وضع أساسها المنصور قلاون ، وازدادت نمواً في عهد ولده السلطان الناصر محمد . وبعبارة أخرى فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التي تركها الناصر محمد بالذات في قلوب معاصريه^(٢) .

وليس هناك أهمية خاصة في التاريخ تجعلنا نتكلّم عن كل أحد من أبناء الناصر محمد وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده حتى سنة ٥٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ؛ وإنما تكفي الإشارة إلى أنه في العشرين سنة الأولى التي أعقبت وفاة الناصر محمد (٥٧٤١ - ١٣٤١ ، ٥٧٦٢ - ١٣٦١ م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وفي العشرين سنة التالية (٥٧٦٢ - ٧٨٤ ، ١٣٦١ - ١٣٨٢ م) تولى المنصب أربعة من أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

(١) تاريخ ابن الوردي ج. ٢ ص ٣٣ ، أبو الحasan : التجويم ج ص ١٦٤ .
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 499. (٢)

هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصب السلطة وعمره عام واحد — مثلن السكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد — ، كما أن بعضهم لم يبق في الحكم إلا شهرين وبضعة أيام ، مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد . ولعل هذه الصورة الموجزة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى معانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى ، تركت أثراًها واضحاً في جميع نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وزاد من أحوال البلاد سوءاً في ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود سنة ١٣٤٩ هـ (٧٤٩ م) — أى في عهد السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ، فات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماماً ، وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر ،^(١).

ولاشك في أنه لدينا الآن فكرة واضحة . بعد العرض السابق لتاريخ المماليك — عن مدى استغلال الأمراء أصغر سن السلاطين ، وما كان ينتج عن ذلك من منازعات فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، ومن تحكم واستبداد بشؤون الدولة من ناحية أخرى .^(٢) وهكذا نلمس ظاهرة واضحة عند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده، هي أن كل سلطان من بني قلاون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبار أمراء المماليك، بحيث طغت شخصية أولئك الأمراء على السلاطين ، وأصبحت أسماء الأمراء — دون السلاطين — هي مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرین وغير المعاصرین . ومن هؤلاء الأمراء لم في عصر أبناء الناصر محمد الأئم قوصون ويلبغا البجاوى وأقصنقر السلاجرى وأرغون العلائى وشيبخو وطاز

(١) المقريزى : السلوكيج ٢ ص ٧٧٠ — ٧٨٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المملوكي في مصر والشام ص ١٢١ وما يبعدها ..

وصر غشم. أما عبد احفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء الأمير قشتمر المنصورى ويلبغا الخاصكى وبرقوق ...

ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الحراكسة ، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة ، مما أدى إلى تمسكهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كاسرى بالتفصيل في الباب الآنى .

المملة الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)

هذا عن الأحوال الداخلية لدولة المماليك في عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . أما في الخارج فإن اضطراب أحوال مصر الداخلية وعدم وجود رجل قوى مهيّب الجانب على رأس دولة المماليك ، أفقد تلك الدولة مكانها وهيئتها التي كانت قد بلغت أوجها على عبد السلطان الناصر محمد . ولم يلبث أن استخفف الاعداء بدولة المماليك وطمع الطامعون في أراضيها بل تحرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)

والمعروف أن الحروب الصليبية لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وبطُرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، وإنما استمرت تلك الحروب في صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد تقريباً ، وأنخذت لها أكثر من ميدان في المشرق والمغرب جهيعاً .

وفي ذلك الدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية ، انخذل ملوك قبرس من آل لوزجيان جزيرتهم قاعدة كبيرة لتهدي السفن والمناجر الإسلامية في شرق حوض البحر المتوسط ، فضلاً عن القيام بغارات جوية على بعض الموانئ الإسلامية وموانئ دولة المماليك بوجه خاص^(١)

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٥٢ - ٥٣ .

وساعد ملوك قبرس في تنفيذ هذه السياسية أن كثيراً من البقاء الصليبيية التي طردت من الشام في أواخر القرن الثالث عشر اتخذت جزيرة قبرس بالذات مستقرأً ومقاماً، مما هيأ لآل لوزجنان قوة محاربة منت حرب المسلمين وتتحقق للانتقام مما حل بالصليبيين في الشام .^(١)

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرس سنة ٥٧٦٠ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوزجنان الذي اشتهر بقوته شخصيته وحماسته الدينية الفذة ، حتى أنه اراد منذ ارتقائه العرش ان يجعل من نفسه بطل المسيحية الأول في عصره . وكان أن فكر الملك بطرس في القيام بحملة صليبية كبيرة يطعن بها المسلمين طعنة قوية ، ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج إلى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ورجال عديدين ، فليجاً إلى القيام برحلة طويلة في غرب أوروبا (٥٧٦٢ - ١٣٦٥ م) للحصول على ما يمكنه من مساعدات من البابوية وملوك الغرب الأوروبي^(٢)

وأخيراً جمع بطرس لوزجنان قواته في جزيرة رودس حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفاً للهجوم الصليبي ؛ وذلك للقضاء على دولة المماليك التي تسببت في طرد الصليبيين من الشام من ناحية، والاستفادة من مركز تلك المدينة الحربي وموقعها التجاري من ناحية أخرى . ولا بد أن يكون الصليبيون والغرب الأوروبي قد سمعوا بأخبار الفوضى التي غرقت فيها مصر في عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت الموانئ والمدن المصرية خالية تماماً من وسائل الدفاع .^(٣)

Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35. (١)

Machaut : La Prise de l'Alexandrie, pp. 21-42. (٢)

(٣) التویری : الالام بالإعلام فيما جرت به الأیکام والأمور المفجعة في واقعة الاسكندرية من ٢٨٦ — ٢٩٤ « مخطوط » .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمنتهى طولية إلا أنه لم يكن من الدولة اهتمام ، على حد تعبير المقريزى^(١) . وكان يحكم دولة المماليك في ذلك الوقت السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، في حين استبد بأمور البلاد الأمر يلبعا الخاصى الذى اشتهر بعسفه وجوره وكبرياته ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس في مهاجمة الإسكندرية قال «إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الإسكندرية»^(٢) .

وأسكن هذه السكريات لم تنفع في ضد المعتدين الذين نزلوا على شاطئ الإسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ هـ (٧٦٧ م) ، وهاجروا فور وصولهم . ولم تفلح الاستعدادات السريعة التي اتخذت لوقف الخطر الصليبي ، فاقتحم الصليبيون الإسكندرية وفر العربان الذين استحضروا من البجيرة للدفاع عن الشغر^(٣) . وهكذا سقطت الإسكندرية في قبضة الصليبيين . فقضوا فيها ستة أيام تعتبر من أحلك الأيام في تاريخ الشغر ، إذ انتشر الصليبيون في شوارع المدينة وازقتها ينتقمون من أهلها المسلمين «فأسلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيم والدور وأحرقوا المنازل والقصور ، وبخربو المساجد والزوايا ، واعتدوا على النساء والبنات»^(٤) .

وكان قائد الحملة - الملك بطرس لوزجنان - يرى ضرورة الاحتفاظ بالإسكندرية ، والدفاع عنها لأنها نقطة ارتقاء لغزو مصر بأجمعها ، وأسكن بعض رجاله أقيعوه بخطورة ذلك المشروع ، فاضطر الصليبيون

(١) المقريزى : السلوك ح ٤ ورقة ٤٦ «مخاطر» .

(٢) التورى : الألام ح ١ ص ١٥ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والجروب الصليبية ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) المقريزى : السلوك ح ٤ ورقة ٤٧ ، التورى : الألام ح ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٥ .

إلى الجلاء يوم الخميس ١٦ أكتوبر بعد أن حملوا في سفنهم آلاف الأسرى وشحذوها بالمنهوبات . وأخيراً وصل يليغاً الماخصي على رأس جيشه إلى الإسكندرية ليشهد ماحل بها من دمار وخراب على أيدي الصليبيين فأمر بتدفّع جثث القتلى وترميم ما خرب وأحرق^(١) .

وإذا كانت دولة المماليك عندئذ تمر بدور من الانحلال والفساد لم يمسكها من النادر من جزيرة قبرص وملوكها ؛ فإن المسلمين لم يغروا ما حل بالإسكندرية على أيدي الصليبيين سنة ٥٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، حتى تمكّنوا من الانتقام في عصر دولة المماليك البرجية كما سُرِّي فيما بعد .

(١) سعيد عاشور : قبرص والخروب الصليبية من ٦٨ — ٦٩ .

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة.

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاون أن يكون فرقه جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتسكون سندًا لأولاده وذراته في الاحتفاظ بالعرش . ولتحقيق هذا الغرض رأى قلاون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الأجناس إلى انتهى إليها مماليك عصره ، فأعرض عن شراء الأتراك والتركمان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتهيون إلى بلاد السكرج (جورجيا) ، وهي البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود . وساعد على تحقيق رغبة قلاون ، كثرة الجركس في أسواق الرقيق في النصف الأخير من القرن السادس الهجري (الثالث عشر للميلاد) بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، حتى أصبحت ميادانا للصراع بين مغول فارس وملوك القفقاق . ويبدو أن كثرة الجركس في أسواق الرقيق في ذلك العصر أدت إلى انخفاض ثمنهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوه البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسي بلغ مائة وخمسة عشر ديناراً في حين كان متوسط المملوك التركي مائة وثلاثة وخمسين ديناراً^(١) . ومهما يكن الأمر . فقد أكثر السلطان المنصور قلاون من شراء هؤلاء المماليك الجركس حتى بلغ عددهم في حياته أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ؛ وعنى بتوريتهم في أبراج القلعة ، مما جعل اسم « البرجية » يلتصق بهم في التاريخ .

وكان أن نجحت خطة قلاون ، فازدادت أعداد هذه الطائفة الجديدة ، وتعهدوا أبناء قلاون وأحفاده بالرعاية والعطف ، حتى يقال أن الأشرف خليل بن قلاون أشترى أثناء حكمه القصرين ألف ملوك منهم . ومن ناحية أخرى فقد حقق المماليك البرجية الغرض المقصود منهم ، فكانوا بعثابة دعامة كبرى دافعت عن مصالح أبناء المنصور قلاون . وقد سبق أن أشرنا إلى ثورة المماليك الأشرفية — من البرجية — ضد قتلة الأشرف خليل ، ولم يهدأ أولئك البرجية حتى تمكّنوا من الانتقام للأشرف خليل فقتلوا بيدها وغيره من الأمراء الذين شاركوا في قتل السلطان خليل بن قلاون . وبفضل تأييد البرجية اختيار الناصر محمد بن قلاون سلطاناً لأول مرة سنة ٥٦٩٣ (١٢٩٣ م) رغم صغر سنه . حقيقة أن تعلق الشعب ببيت قلاون كان له اثره في ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب المصري في ذلك العصر كان أعزلاً ، ولم تكن لديه قوة حرية تمكّنه من تنفيذ إرادته ، وأن القوة الحرية الوحيدة التي كانت موجودة في البلاد عندئذ كانت قوة المماليك . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لجميع المحاولات التي استهدفت عزل السلطان الناصر محمد ؛ وفي كل مرة عاد الناصر محمد إلى الحكم بعد عزله نجد أصبح البرجية قوية واضحاً^(١)

ازدياد نفوذ البرجية :

وسرعان ما ساعد تطور الأحداث الداخلية في مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاون إلى ظهور البرجية على مسرح تلك الأحداث وازدياد نفوذهم وأثرهم في توجيهها . والمعروف أن السلطان قلاون حاول من أول الأمر أن يفرض نطاقاً من العزلة حول المماليك البرجية ،

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : ملخص المسالك في مصر والشام من ١١١ و ١٠١ بهادها .

خال دون انصافهم بغيرهم من المماليك الترك حتى لا يتأثروا بأوضاعهم وروحهم التي تطرق إليها الفساد ، كا حرص على عدم السماح لهم بمعادرة أبراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة . ولكن هذه الأوضاع كانت لا يمكن أن تدوم . وإذا كان قلاون قد نجح في أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية في تاريخهم الأول عندما كانت أعدادهم محدودة ، فإن تحالفه قلاون لم يستطعها فرضها على البرجية بعد أن ازدادت أعدادهم حتى بلغوا في أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف ملك . لذلك نرى السلطان الأشرف خليل يسمح للبرجية بالنزول من القلعة أثناء النهار بشرط العودة إليها قبل المغرب للمبيت فيها ، وبذلك بدأت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقة على كثير من الاتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد في ذلك الوقت^(١) .

ولاشك في أن إسراف السلطان المنصور قلاون في العطف على المماليك الجراكسة المجدد ، وتفرقته في المعاملة بينهم وبين المماليك القديمي من الأتراء ، كان له أثره في إثارة روح البغض والتناقر بين الفريقيين . ذلك أنه عرف عن المنصور قلاون أنه عنى بالبرجية عنایة خاصة ، شخصهم بالترفة إلى وظائف السلادارية ، وغيرها من الوظائف الكبرى في الدولة^(٢) ؛ وحرص على أن يلبسهم زياً جديداً حسناً ، وأوجز لهم العطاء فيما كانوا يتلقونه من جوامك ورواتب ، وعنى عنایة خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلاً عن تدريتهم على استخدام الرماح ورمي الشاب . وكان أن تلفت المماليك الأتراء حولهم فوجدوا في الجراكسة منافساً جديداً خطيراً ، فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفي الوقت نفسه ينتصرون إلى عنصر

(١) المقريزى : المراعظ ح ٢ ص ٢١٤ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الدهور ح ١ ص ١٢٠ .

غير عناصرهم وأصل غير أصولهم . وهكذا أدى التمييز في المعاملة إلى إثارة البعضاء العنصري ، والتعصب الطائفي بين المماليك الجراكسة من ناحية ، والأتراك من ناحية أخرى .

هذا إلى أن دفاع الجراكسة عن أبناء المنصور قلاون وغضبهم لمقتل الأشرف خليل ثم ثورتهم لعزل الناصر محمد جعلهم يقفون في جانب ، وبقية المماليك الأتراك في جانب آخر . ولعل طول المنازعات التي امتاز بها تاريخ المماليك في تلك الحقبة ، جعل الأمر يتتطور ويتحول من نزاع بين الأمراء بعضهم وبعض ، أو بين أنصار بيت قلاون وخصومه ، إلى نزاع عنصري بين الجراكسة والأتراك . وأدى ذلك إلى أن الجراكسة أتى عليهم وقت صاروا لا يهتمون في قليل أو كثير بمستقبل الناصر محمد ، بقدر ما يهذفون القضاء على نفوذ الأتراك الذين طال استبدادهم بالحكم وحرصوا دائمًا على الاستئثار — دون الجراكسة — بالامتيازات والنفوذ .

وفي تلك الأحداث الطويلة ، لم تخجل المراجع من إشارات واضحة إلى ازدياد نفوذ المماليك البرجية وسطوتها . فالمقريزى يذكر في حوادث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أى في سلطنة الناصر محمد الثانية — ، وقوية شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات السكيرة . وتردد الناس إليهم في الأشغال ،^(١) كذلك يذكر المؤرخ نفسه في حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن البرجية صار لهم رأى مسموع في اختيار السلاطين ، فعندما اختار الأمير الأمير سلار في تلك السنة ليتولى منصب السلطنة « فلق البرجية ولم تبق إلا إقامتهم الفتنة » ؛ حتى إذا مات نازل سلار عن المنصب . وروي له زميله بيبرس الجاشنكير « تسارع البرجية وقالوا بأجمعهم : صدق الأمير ، وأخذوا ييد بيبرس وأقاموه كرها ، فصالحوا بالجاوشيه فنصرخوا باسمه »^(١) .

(١) المقريزى : السلوك حوارث سنة ٦٩٨ هـ ١ ص ٨٧٥ . والمنصود بالحمايات المكروس الذى يفرضها الأمراء على الأراضى والمتأجر وغيرها .

وفي عصر السلاطين الصغار — من أحفاد الناصر محمد بن قلاون — بُرِزَ
إِسْمَ أَحَدِ أَمْرَاءِ الْبَرْجِيَّةِ أَوِ الْجَرَاكَسَةِ — وَهُوَ الْأَمِيرُ بِرْقُوقُ — الَّذِي اسْتَطَاعَ
بِفَضْلِ طَمْوِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ يَصُلَّ إِلَى مَنْصَبِ أَتَابِكَ الْعَسْكَرِيَّةِ (٥٧٨٠ م ١٣٧٨)
وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ بِرْقُوقُ عَلَى جَانِبِ كَبِيرٍ مِّنِ الْقُوَّةِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ
عَلَى (١٣٧٦ - ٥٧٨٣ م ١٣٨١) الَّذِي لَمْ يَتَجَمَّأْ وَزَ سَنَةَ سَتَّ
سَنَوَاتٍ (١).

قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظَلَّ السُّلْطَانُ عَلَاءُ الدِّينِ عَلَى فِي الْحُكْمِ حَتَّى وَفَاهُ سَنَةَ ٥٧٨٣ م (١٣٨١)،
وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ عَشَرَ مِنْ عُمُرِهِ . وَكَانَ فِي إِسْتِطَاعَةِ بِرْقُوقِ أَنْ يَلِ عَرْشِ
السُّلْطَانِيَّةِ عَقْبَ وَفَاتَهُ السُّلْطَانُ عَلَى مِباشَرَةِ، وَانْتَشَرَتِ الْإِشَاعَاتُ فَعَلَا بِذَلِكَ،
وَلَكِنَّ بِرْقُوقَ كَانَ يَدْرِكُ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَتَمَ نَضِيجُهَا بَعْدَ . هَذَا إِلَى أَنَّ بِرْقُوقَ
كَانَ لَهُ مَعَارِضُونَ مِنْ كَبَارِ الْأَمْرَاءِ، وَهُؤُلَاءِ صَاحُوا — عِنْدَمَا سَمِعُوا
الْإِشَاعَاتِ الَّتِي تَرَشَّحَ بِرْقُوقُ لِلْسُّلْطَانِيَّةِ عِنْدَئِذِهِ — لَا يَرْضَى أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهَا
يَمْلُوكَ كَيْبِغاً (٢) .

لِذَلِكَ تَظَاهَرَ بِرْقُوقُ بِالْزَّهْدِ فِي السُّلْطَانِيَّةِ، بِفَمْعِ الْخَلِيفَةِ وَالْقَضَايَا وَكَبَارِ
الْأَمْرَاءِ بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ، وَأُعْلِنَ أَمَامَهُمْ جَمِيعًا أَنَّ الْمَصْلِحَةَ تَتَطَلَّبُ إِبْقَاهُ وَظِيفَةِ
السُّلْطَانِيَّةِ فِي بَيْتِ قَلاُونَ . وَهَكَذَا أَسْتَدَعَى أَمِيرُ حَاجِيِّ حَفْدِ النَّاصِرِ مُحَمَّدَ
وَسَنَهُ وَقَيْدَ إِحدَى عَشَرَةِ سَنَةٍ، وَأُعْلِنَ سُلْطَانًا سَنَةَ ٥٧٨٣ م (١٣٨١) (٣)

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 510.

(١)

(٢) مِنَ الْمَرْوُفِ أَنْ بِرْقُوقَ جَلَبَ مِنْ أَحَدِ سُرَاقِ الرَّقِيقِ بِبَلَادِ الْقَرْمِ سَنَةَ ٦٤٧ هـ (١٣٣٩)،
رَفِيَ القَاهِرَةِ اشْغَاهَ الْأَمِيرِ يَلْبِغاً الْحَاصِكِيَّ، ثُمَّ اعْتَقَهُ يَلْبِغاً وَصَارَ بِرْقُوقُ « مِنْ جَهَةِ مَالِكِ »
« أَبُو الْحَاسِنِ : النَّجُومُ الزَّاهِرَةُ ح ١١ ص ٢٢٣ ». (٤)

(٣) المقريزى : السلوک ح ٣ ص ٣٧٥ « مخطوط » .

ولم يكن متوقراً من السلطان الطفل الجديد أن يقف في وجه الأمير برقوق الذي أخذ في التسلّم في الدولة على عادته من غير معاند^(١). وهكذا أخذ برقوق يمكن لنفسه، فأخذت حملاته وأنصاره من المهايلك اليبيغاريّة بالوظائف الرئيسيّة في الدولة، في الوقت الذي أخذ يعمل على اكتساب محبة عامة الناس، فخفف عنهم الضرائب، وسلك نقوذاً جديداً جيدة لتحل محل الفلوس الراهنّة التي كان الأمير جركس قد سكّها من قبل^(٢). ولم يسلم برقوق في تلك الأثناء من بعض المؤامرات التي حيكت ضده، ولذلك اكتشف الخطر قبل وقوعه، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشتركون فيها بالسجن أو النفي، وبذلك أصبح صاحب السكمة العليا في الحكم^(٣)، ولم يبق له معاند، على قول ابن إياس^(٤).

وأخيراً وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لاعلان نفسه سلطاناً، فانتسل نفس العذر الذي سبق أن تحيج به الطامعون في الحكم من أمراء المهايلك، وهو صغر سن السلطان القائم، وحاجة البلاد إلى رجل رشيد يقضى على عوامل الاضطراب في الداخل والخارج. لذلك عقد إجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٥٧٨٤ (١٣٨٢ م) حضره الخليفة والقضاة والأمراء، ونهض كاتب السر القاضي بدر الدين ليعلن أن الوقت قد صنّاق، وبحاجة إلى إقامة سلطان كبير يجتمع فيه السكمة ويسكن الاضطراب^(٥).

وكان أن أجمع الحضور على خلع السلطان أمير حاجي بعد حكم دام سنة ونصف، وأعلن برقوق سلطاناً، فتلقب بلقب الظاهر.

وبعزل أمير حاجي من السلطنة انتهى يات قلاون، كما انتهى حكم

(١) ابن حجر: إنذار الغدر ح ١ ص ١٤٩ ، الميني: عقد الجانح ٢٤ قسم ٢ ص ٢٦

(٢) ابن إياس: بدائع الذهور ح ١ ص ٤٠٥ .

(٣) المقريزي: السلوك ح ٣ ص ٤٠٥ .

المماليك البحريية . وبقيام الظاهر بر فوق في الحكم ٥٧٨٤ (١٣٨٢ م) بدأت دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية — أو الجراكسة — عن الأولى ، أو البحريية ، في عدة نواحي ، أولاً أن سلاطين الدولة البرجية أو الثانية كانوا جميعاً جراكسة الجنس ، ماعدا اثنين يرجعان إلى أصل يوناني هما خشقدم و تربغا . هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار والذى نجح بوضوح في عصر بيت قلاون ، هذا المبدأ لا ينجد له أثراً في عصر دولة المماليك الجراكسة . الواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا أزعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في مهمته يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة . فإن ابنه كان يخلفه عادة . ولكن أعدة أشر فقط حتى ينجلي الموقف بين كبار الأمراء ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالغنيمة^(١) .

والمعروف أن دولة المماليك الجراكسة عمرت أكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنة (٥٩٢٢ - ٧٨٤ = ١٣٨٢ - ١٥١٧ م) ، تعاقب على عرش السلطنة خلالها ثلث عشر سلطاناً ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا ما يزيد على ثلاث سنوات ، في حين حكم الاربعة عشر سلطاناً الباقيون تسعة سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة فهم برر فوق وشيخ وبرسباي وجهمق وأينال وخشقدم

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 325 (١)

وقيابى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين إلى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوانف المماليك ببعضها البعض . وكثير من أوائلك السلاطين مثل برقوق وشيخ وجهمق وقيابى عرفوا بجهنم الأدب و المجالس العلم ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع ، الأمر الذي تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافي وغيرها . وربما كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين التكفير عن ذنوبهم وتعطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم ^(١) .

ولاشك في أن البلاد قاست كثيرا في عهد المماليك الجراكسه من جراء المنازعات المستمرة بين طوانف المماليك ، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتل في الشوارع ، مما أوجد جوا من القلق وعدم الاستقرار في القاهرة بوجه خاص . وزاد من شدة البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح عماليكهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة لاحتفاظ بثرواتهم سوى ضرب طوانف المماليك ببعضها البعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالasher فيه ، وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان وماليكه فيعيشون في الأرض فسادا .

على أننا نلاحظ على الرغم من كل ذلك أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحثته ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شئون البلاد أو الانتهاص من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة المماليك في ذلك العصر الصمود في وجه تيمور لشك في وقت اهتزت جميع الدول القائمة في غرب القارة الآسيوية أمام هجماته ^(٢) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك من ١٤١٥-١٥٩٦ Wiet : L'Egypte Arabe , pp. 511-513. (٢)

برقوق وفراج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق في السلطنة عام واحد حتى حبكت مؤامرة لعزله وأحلال الخليفة العباسى بدلـه . ولكن برقوق اكتشف المؤامـرة وأحبـطـها ، فعزل الخليفة المتوكـل وأحل محلـه خـليـفة آخر لـقبـ بالـلوـاـثـقـ بالـلهـ .^(١) وـيـدـوـ أـنـ هـذـهـ المـؤـامـرـةـ جـعـلـتـ الـظـاهـرـ برـقوـقـ يـتـطـرـفـ فـيـ اـضـطـهـادـ مـنـ يـشـكـ فـيـهـمـ ،ـ وـيـخـاصـصـ الـمـالـيـكـ الـأـتـرـاكـ ،ـ فـطـرـدـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـهـمـ وـظـائـفـهـمـ ،ـ وـنـفـيـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ الشـامـ .^(٢)

على أن هذه الإـجـرـاءـاتـ الـتـىـ قـامـ بـهـاـ الـظـاهـرـ برـقوـقـ لمـ تـنـفـعـ فـيـ حـماـيـتـهـ منـ المـؤـامـرـاتـ الـمـتـصـلـةـ الـتـىـ دـبـرـهـاـ خـصـوـمـهـ ضـدـهـ ،ـ حـتـىـ اـتـهـىـ الـأـمـرـ سـنـةـ ٥٧٩١ـ هـ ١٣٨٩ـ مـ)ـ بـقـيـامـ ثـورـةـ فـيـ شـمـالـ الشـامـ تـزـعمـهـ مـنـطـاشـ نـائـبـ مـلـطـيـةـ وـيـلـبعـاـ النـاصـرـىـ نـائـبـ حـلـبـ .ـ وـقـدـ زـحـفـ الثـوـارـ ،ـ تـوـيـدـهـمـ جـوـعـ غـفـيرـةـ مـنـ الـترـكـانـ وـالـمـغـولـ ،ـ نـحـوـ دـمـشـقـ ،ـ فـاستـوـلـوـاـ عـلـيـهـاـ ثـمـ زـحـفـواـ عـلـىـ الـقـاهـرـةـ حـيـثـ سـاءـ مـوـقـعـ بـرـقوـقـ ،ـ فـهـرـبـ مـنـ القـلـعـةـ حـتـىـ قـبـضـ عـلـيـهـ وـنـفـيـ إـلـىـ السـكـرـكـ .^(٣)

وعـنـدـمـ دـخـلـ الثـوـارـ الـقـاهـرـةـ أـعـادـوـاـ إـلـىـ الـعـرـشـ أـمـيـرـ حـاجـيـ اـبـنـ الـأـشـرـفـ شـعـبـانـ حـفـيدـ النـاصـرـ مـحـمـدـ بـنـ قـلـاـونـ (ـ٧٩١ـ هـ ١٣٨٩ـ مـ)ـ وـلـكـنـ النـزـاعـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ اـشـتـدـ بـيـنـ الـأـهـلـيـنـ الـثـائـرـيـنـ مـنـطـاشـ وـيـلـبعـاـ ،ـ مـاـ أـعـطـىـ بـرـقوـقـ فـرـصـةـ لـاستـرـدـادـ مـكـانـهـ .ـ وـكـانـ بـرـقوـقـ قـدـمـسـكـنـ مـنـ الـفـرارـ مـنـ حـصـنـ السـكـرـكـ ،ـ بـجـمـعـ جـيـشـاـ بـالـشـامـ ،ـ وـانـزـلـهـزـيمـةـ بـأـعـدـائـهـ عـنـدـ صـرـخـدـ سـنـةـ ٥٧٩٢ـ هـ ١٣٩٠ـ مـ)ـ ثـمـ دـخـلـ الـقـاهـرـةـ ظـافـرـاـ حـيـثـ رـحـبـ بـهـ الـأـهـالـيـ وـأـسـتـقـبـلـوـهـ اـسـتـقـبـالـاـ حـافـلاـ .^(٤)

(١) ابن حجر : أنباء الغرر ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٢) العيني : عقد الجبان ح ٢٤ - ٢٨ ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ١١ ص ٢٧٥ - ٢٨٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر السكافحة في أعيان المائة الثامنة ح ٤ ٣٦٥ ، المقرنزي : السلوك

ج ٣ ص ٣٦٤ - ٦٣٥ .

وكان مركز الظاهر بررقة قويًا في تلك المرة ، إذ انتف حوله الناس بعد مارأوه من سوء تدبير منطاش وتعسفيه . وقد قضى بررقة العامين التاليين في إخضاع منطاش بالشام ؛ ولم يكدر يفرغ من ذلك حتى دهمه خطر جديد هو تيمور لنك والمغول . وكان تيمور لنك قد استولى على بغداد سنة ٥٧٩٥ هـ (١٣٩٣ م) ، واستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك - مثل ماردین - مما جعل الظاهر بررقة يحسن بذلك الخطر ويعمل بسرعة على تلافيه . وكان أن استطاع بررقة أن يعمل حلفاً سريعاً بين القوى التي أحست بخطر تيمور لنك في الشرق الأدنى ، مثل المماليك في مصر وأمير سواس ومغول الفوججاق ولسلطنة العثمانيين^(١) . ولم يلبث تيمور لنك أن أرسل إلى بررقة رسالة مخيفة من نوع تلك التي أرسلها هولاكو إلى قظر سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) ، يطلب منه التسليم السريع ، فالويل كل الويل لمن لم يتمثل أمرنا ، فإننا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأنظرنا في الأرض الفساد ...^(٢) ولكن بررقة أظهر ثباتاً ، ورد على تيمور لنك بنفس أسلوبه ، بل طرد رسول تيمور لنك من القاهرة . وفي العام التالي - أي في سنة ٥٧٩٧ هـ (١٣٩٥ م) - خرج بررقة على رأس حملة لإعادة أحمد بن أويس - صاحب بغداد الذي كان قد لجأ إلى القاهرة - إلى عاصمتها ، ومحاربة تيمور لنك . ولكن بررقة وجد أن تيمور لنك عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة حيث توفي سنة ٥٨٠١ هـ (١٣٩٩ م) دون أن تتحقق له الفرصة لاظهار شجاعته في حرب المغول .

وقد خلف بررقة في الحكم أكبر أبناءه الثلاثة ، وهو الناصر مرج ، الذي كان في الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان الصغير إلى الشام

(١) Wier : L'Egypte Arabe , pp. 518-519.

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور في أخبار تيمور ، ص ٧٠ .

سنة ٥٨٠٣ (١٤٠٠ م) على رأس جيش كبير عندما سمع بعوده تيمورلنك إليها ، وبأنه اجتاز حلب ، وأخذ يهدى دمشق . ولكن الناصر فرج أدرك حرج موقفه في الشام وخشي على حياته ، فعاد إلى القاهرة تاركاً جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب^(١) . وهكذا اضطرت دمشق إلى التسلیم بشروط معينة ، وإن كان المغول لم يرعوا شروط الأمان الذي منحوه لأهل دمشق فهربوا المدينة ودمرواها وآشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام .

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التي أحرزها تيمورلنك في آسيا الصغرى وبأخبار المزيمة التي حلت بالسلطان بايزيد العثماني في موقعة أنقرة سنة ٥٨٠٥ (١٤٠٢ م) رضخ للشروط التي تقدم بها تيمورلنك ، فأطلق سراح من لديه من أسرى ، بل رضى أن يسلك العملة باسم تيمورلنك ، وإن كنا لم نعش فعلاً على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسم تيمورلنك . ولم يلبث أن مات تيمورلنك سنة ٥٨٠٨ (١٤٠٥ م) دون أن يتحقق حلمه في احتلال مصر^(٢) .

أما السلطان الناصر فرج فقد خسر مكانته في نفوس المماليك نتيجة لرضوخه لطلبات المغول . وسرعان ما نشب نزاع بين أمراء المماليك في مصر فعمت الفوضى القاهرة ، واضطرب السلطان فرج إلى الاختفاء عن المسير شهرين ، فخل محله في السلطة أخيه المنصور عبد العزيز سنة ٥٨٠٨ (١٤٠٥ م) . حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشكك من إعادة الناصر فرج إلى السلطة

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 526. (١)

(٢) المقرئي : السلوكي ٣ ورقاً ، ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ١٠٧ وما بعدها . Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 334.

ف نفس العام . وقد قضى الناصر فرج بقية عهده في إقرار الأوضاع ببلاد الشام التي غدت هي الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء . ولم يستطع الناصر فرج مقاومة الأمير شيخ الحموي نوروز ، فاضطر إلى التسليم لها سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بشرط تأمينه على حياته . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة والعلماء أتوا بقتل الناصر فرج لسوء حلقه وإدماه على شرب المخدر وتفسيكه بهاليك أبيه ، حتى لقد وصفه المؤرخون « بكثرة الجهل مع قلة الدبن » ، فاغتيل بدمشق في نفس العام^(١) .

وكانت المشكلة التي أنشأت بعد مقتل الناصر فرج هي أيها يلي العرش الأمير شيخ أم الأمير نوروز ؟ وإلى أن يتم الفصل في هذه المشكلة عمد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين التي استمرت خمسة أشهر تقريباً ، كانت اسمية بخته ، إذ لم يلبث أن فاز شيخ في حملة المنافسة بيته وبين نوروز ، شفاعة الخليفة ، وتولى منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد^(٢) ومن الطبيعي لا يرضى نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة في الشام ، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ وأن يضرب السكة باسمه ، الأسر الذي دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج في العام التالي لتوليه إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل^(٣) .

أما أهم الأحداث الخارجية في عهد المؤيد شيخ ، فهي قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدوليات التركانية على الخنود وهي قرمان وذو الغادر ورمضان -- على العودة إلى سابق تبعيتها للدولة المملوکية . ففي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) خرج السلطان المؤيد شيخ إلى طرسوس حيث

(١) ابن أياس : « دائرة الظہور » ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٥ .

(٢) الموثق : السيف المهندي تاريخ الملك المؤيد ص ٢٠٩ (تحقيق فهيم شلبي) .

(٣) العيني : السيف المهندي ، ص ٢٢٦ .

قدم له أمراء التركان فروض الطاعة ، بل إن أمير قرمان رضى أن يسلك
نقوده باسم السلطان المؤيد . ولكن لم يكدد شيخ يرجع إلى مصر ، حتى أخذ
التركان ينهضون الشروط التي تعهدوا بها ، ومن ثم أرسل المؤيد ابنه إبراهيم
ضد هم سنة ٥٨٢٢ (١٤١٩م) ، فاستولى على قصريه وقونية ، وسلك العملية
في بلاد التركان باسم أبيه شيخ . ولم يعد إبراهيم إلى مصر إلا بعد أن عين
حاكمًا على تلك الجهات من الموالين له ، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن
مثل أذنه وطرسوس . وقد استقبل إبراهيم في القاهرة استقبالاً حاسياً ،
ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ، ويقال أن أبوه قد عليه ملائكة من
القدر ، فدس له السم ^(١) .

على أن مصر لم تستفيد كثيراً من تلك الأعمال في الوقت الذي لم يستطع
المؤيد أن يسيطر على ماليكه ، مما سبب أضراراً جسيمة للأهالي الآمنين .
وقد خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة ٥٨٢٤ (١٤٢١م) تحت وصاية الأمير
ططر . ولم يلبث بعد أشهر أن تولى ططر نفسه السلطة لفترة قصيرة ،
خلفه ابنه محمد الذي ابى في الحكم عدة أشهر تحت وصاية برسباي .
وفي سنة ٥٨٢٥ (١٤٢٢م) انزع برسباي السلطة لنفسه وتلقب بالسلطان
الأشraf ^(٢) .

برسباي وفتح جزيرة قبرس :

حكم الأشرف برسباي ما يزيد عن ستة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة
لم يفقه فيها من سلاطين الجراكسة سوى الأشرف قايتباي . وعلى الرغم
من قساوه الناس في عهده من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 548.

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، من ١٦٣.

بسبب سياساته الاحتكارية إلا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطرابات ، مما يمكن بحسبه من القيام بمشروع حربي ضخم هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما قام به ملوك قبرس من آل لوزجيان من جهود صليبية ضد سلطنة المماليك في مصر ، وبخاصة بعد أن استولى المماليك على عكا سنة ٥٦٩٠ (١٢٩١ م) وطردو آخر البقايا الصليبية من الشام . كذلك ذكرنا أن هجمات قبرس وملوكها على شواطئ دولة المماليك بلغت ذروتها سنة ٥٧٦٧ (١٣٦٥ م) عندما هاجم بطرس لوزجيان ملك الجزيرة ثغر الإسكندرية وخر به تخريباً لم يغفروه له المسلمين .

ولم يستطع سلاطين المماليك عند ذل الثأر من جزيرة قبرس ، نظراً للظروف التي أحاطت بدولة المماليك في عصر أبناء الناصر محمد بن قلاون وأحفاده ، ثم المشاكل التي تعرض لها السلاطين الأوائل من دولة المماليك الجراكسة . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه عجزهم عن مدافعتهم ، فاستمرروا في هجماتهم على شواطئ دولة المماليك كما حدث من إغارة على الإسكندرية سنة ١٤٠٣ وعلي طرابلس الشام سنة ١٤٠٤ على عهد الناصر فرج^(١) . وأكثر من هذا ، فإن ملوك قبرس حرموا على طعن دولة المماليك في أعظم موارد ثروتها وغنائها ، فأعدوا على السفن والمتاجر المماليكية في عرض البحر ، كما منعوا السفن الأوروبية من الوصول إلى الشواطئ المصرية لابتزاع ما يلزمها من توابيل^(٢) .

وإذا صبر سلاطين المماليك في مصر على ذلك العدوان السافر من

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 335.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية من ٨٤ - ٨٥ .

جانب أهل قبرس ، فإن هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسبياى في القيام بعمل حاسم ضد قبرس ، لاسيما بعد أن تذكر العداون في أوائل حكمه من جانب قراصنة على الاسكندرية والتجار المسلمين^(١) . وقد أرسل برسبياى ثلاث حملات ضد جزيرة قبرس تعتبر من أعظم الأعمال الحربية التي تمت في عصر دولة المماليك الجراكسة ، ونجحت في ضم الجزيرة وأخضاعها لسلطنة المماليك . أما الحملة الأولى فكانت سنة ٥٨٢٧ (١٤٦٤ م) ، وهي حملة صغيرة ، لاتعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية ، ومع ذلك فقد نجح رجالها في مهاجمة ثغر لياسول بجزيرة قبرس وأشغال النار في بعض أحياها ثم العودة سالمين إلى مصر^(٢) .

ولم تسد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة ، حتى شجع برسبياى ، فأمر فوراً بالاستعداد لحملة جديدة، غادرت مصر في صيف ٥٨٢٨ (١٤٦٥ م) قاصدة ميناء قربان على الشاطئ الشمالي الشرقي لجزيرة قبرس ومنه تحركت جنوباً قاصدة ميناء فاماجوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام في منطقة فاماجوستا ، شنوا فيها الغارات على الضياع القرية وأوسعواها نهبا وأسرأ وتحريقاً . وبعد أن أُنزل المسلمون المريمة بالقوات القبرسية في منطقة الملاحة توجهوا إلى لياسول واستطاعوا الاستيلاء على حصنا الخصين بعد جهد شاق ، ثم قفلوا راجعين إلى مصر بعد أن سمعوا باستعدادات جانوس ملك الجزيرة^(٣) .

على أن برسبياى لم يقنع بالنتائج التي حققتها الحملتان السابقتان لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببعض مئات من الأسرى وبعض

(١) المقربى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٥٢ ، أبوالمحاسن النجوم ج ٦ ص ٥٦١ (طبعة كاليفورينا) .

(٢) العجمي : عقد الجبان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ .

(٣) ابن حجر : أبناء العم ج ٢ ص ١٠٦ ب ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣

أكوا م من الغنائم . لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية إلى إعداد حملة كبيرة تحقق له اخضاع قبرس وملوكيها . وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) فاقصدت قبرس حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بهاجمه والاستيلاء عليه^(١) . وبعد أن قضى المسلمون في ليماسول ستة أيام ، قرروا الزحف إلى داخلية الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها ومنازلهم ملوكها .

وفي تلك الأثناء كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيشه واستعد لمنازلة المسلمين ، داروا الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خير وكينا إلى الشمال الشرقي من ليماسول — وفيها حللت المزينة ساحقة بالقبارسة ، ووقع ملوكهم جانوس نفسه أسيراً في قبضة المماليك . أما المسلمون فقد نزحفوا بعد ذلك على نيقوسيا عاصمة قبرس ، وصلوا الجمعة في كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلا النار في أرجاء المدينة^(٢) .

وأخيراً عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ، ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكثيرات ضخمة من الغنائم . وقد أفضت المراجع المعاصرة في وصف الاستقبال الحافل الذي استقبل به الغزاة في القاهرة . وظل جانوس ملك قبرس أسيراً في مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) عندما أفرج عنه السلطان برسبياً بعد دفع فدية كبيرة وبشرط الاعتراف بالسيادة لسلطنة المماليك . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر « من جملة بلاد السلطان » حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٥٩٢٢ (١٥١٧ م)^(٣) .

(١) سعيد عاشور : قبرس والمرروب الصليبي ١٠٧ .

(٢) خليل بن شاهين : زينة كشف الممالك من ١٤٣ ، المقربي : الملوى ج ٤ من ٣٧١ باب

العيوني : عقد الجرانج ج ٢ هـ ق ٢ من ٥٨٣ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والمرروب الصليبي ١٢١ — ١٢٦ .

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس :

مات السلطان بربای سنة ١٤٣٨ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تحسنه في سياسته الاقتصادية وتطرفه في سياسية الاحتكار مما أزل خرراً بلاغاً بالعباد. ولم يستطع العزيز يوسف بن بربای - وكان في الرابعة عشر من عمره - أن يحافظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ وهو جقمق. وكان أن تولى جقمق السلطة بعد قليل.

وكان حكم الظاهر جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣ = ٨٥٧ - ٨٤٢) معتدلاً إذا قيس بحكم بربای، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه، فخر المعاصي وشرب الخمر^(١).

غير أن السلطان جقمق لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه للثورات التقليدية التي تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين؛ فثار ضده الأمير قرقاش الشعbanي أتابك العسكر في مصر، كما ثار ضده نائب الشام في دمشق. ولكن جقمق نجح في القضاء على هاتين الثورتين، كما نجح في القضاء على فتنة العبيد في الجيزة سنة ١٤٤٦ هـ^(٢).

والواقع أن أهمية عهد جقمق ترجع إلى ما امتاز به ذلك العهد من نشاط خارجي، كانت أبرز معاملته تحسين العلاقات بين المغول ودولة المماليك من ناحية، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى. ذلك أن وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥ هـ (١٤٠٥ م) أعقبها تصدع أمير اطوريه الواسعة، حتى تسكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند - مركز قوة أبيه وحكمه - وقد دعم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول كما كانت في عهد أبيه. وكان أن بدأ

(١) المقدسى: الانس البليل ج ٢ من ٤٤٣.

(٢) أبوالاهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٥.

شاه رخ صفة جديدة في العلاقات بين دولته ودولة المماليك ، فأرسل إلى برسبياى سنة ٨٣٢ھ (١٤٢٩ م) يطلب السماح له بكسوة السكينة فضلا عن تزويده ببعض الكتب التي ألفها علماء مصر المماليك مثل ابن حجر العسقلانى والمقرىزى . ولما لم يلق شاه رخ جوابا على طلبه ، أرسل سفاره أخرى إلى القاهرة في نفس العام يكرر طلبه ورغبتة في كسوة السكينة^(١) . ومن الواضح أن برسبياى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها في الشام والجizar ، لاسيما وأن حماية الحرمين كانت من الحقوق التي استناد بها سلاطين المماليك وأضفت عليهم مكانة خاصة وسط بقية حكام المسلمين .

أما شاه رخ فإنه لم ييأس ، وظل يوالى طلبه ، فأرسل إلى برسبياى سنة ٨٣٩ھ (١٤٣٥ م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تبادى فأرسل سنة ٨٤٠ھ (١٤٣٦ م) يطلب من برسبياى إقامة الخطة له وضرب المسکنة باسمه . ولكن برسبياى أسماء إلى السفير المؤذن إليه من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يحاول أن يتصل بأمراء التركان وبالسلطان العثماني بهقصد تأليف حزب ضد الأشرف برسبياى^(٢) .

وهكذا مات برسبياى سنة ٨٤١ھ (١٤٣٨ م) وتولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المملوكيه في نفس العام ليجد نفسه أمام مشكلة لا يدمن تصفيتها ، هي مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وهنا اتبع جقمق سياسة معتدلة متزنة في علاج تلك المشكلة ، لاسيما وأن الظروف الخارجية التي أحاطت به ، وإحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية وبعاقبة نشل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية — أملت عليه ذلك المسلط المعتمد^(٣) .

Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 563-564. (١)

Wiet : op. cit., p. 564-565. (٢)

(٣) ابراهيم مارشان : مصر في مصر دولة المماليك الجراكسة ص ٩٣ .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسول شاه رخ الذين وفدوه إلى القاهرة اتهنته بالسلطنة ، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوه الكعبية سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تخت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بارسال سفارة تحمل كسوته للكعبة فاستقبل أعضاء السفارة استقبلاً حسناً ، وإن كان العوام وبعض طوائف المالكين لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتذروا على أعضاءبعثة . ومن الواضح أن الرأي العام في العالم الإسلامي لم ينس للمغول ما ضيّهم الملطخ بالدماء في الأعتداء على المسلمين وعلى الخلافة العباسية ، لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام المغول — كانوا من كان — بكسوة الكعبية . وربما أدى إحساس السلطان جقمق بهذا الشعور إلى نزعه كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) وبقيت للكعبـة كسوة سلطان المالك وحدها^(١) .

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة التيمورية ، أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لفرسان الاستياريه منذ سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وهم الفرسان الذين قاموا في بلاد الشام بدور كبير في خدمة القضية الصليبيّة ، حتى إذ مادلت دولة الصليبيين بالشام غداروها إلى قبرص ، ومنها إلى رودس لواصلوا نشاطهم ضد المسلمين في شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاستياريه في رودس بالخطر عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسبائى بغزو جزيرة قبرص ، فأسرع مقدم الاستياريه في رودس وهو ولو فيان إلى محاولة كسب ود السلطان برسبائى عن طريق تقديم المدايا

(١) السيخاوي : التبر المسبوك من ٩٦ وما بعدها .

والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك في القاهرة . على أنه يبدو أن عهد برسبي لم يتسع للقيام بغزو رودس فأجل المشروع لعهد الظاهر جقمق .

والواقع أن برسبي استطاع بفتح جزيرة قبرص أن يضرب مبنى يأتي بعده من سلاطين المماليك مثلاً في كيفية حماية دولة المماليك من خطر القواعد البحرية التي ظلت بأيدي الصليبيين في شرق البحر المتوسط . لذلك كانت الخطوة الطبيعية أمام الظاهر جقمق بعد أن استقرت له الأمور هي العمل على غزو رودس . ويقال أن السلطان مراد الثاني العثماني حرض جقمق على غزو رودس ، وكان هدفه مصادف ذلك هو أن يشغل فرسان الإستمارية عن الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي أوشك أن يتألف بين القوي المريجية الأذربيجانية الشوشانية والبلقانية في البلقان^(١) هذا إلى أن اغارات القرادنة المسيحيين لم تقتصر عن جزيرة قبرص ، فأغاروا أربع سفن منها في سنة ٨٤٣ھـ (أغسطس ١٤٣٩م) على رشيد وأوغلت في الليل حيث اعتدت على المناطق القردية . ولما كانت قبرص في ذلك الوقت قد تم أخضاعها لسلطنة المماليك ، فإن الشبهات قويت ضد رودس التي لم تبق قاعدة غيرها للصلبيين في شرق البحر المتوسط^(٢) .

على أن أخبار استعدادات برقق لغزو رودس وصلت إلى أصحاب الجزيرة من الإمبراطورية ، وأخذوا يستعدون في سرعة ، كما أرسلوا إلى القوي المسيحية في أوروبا يستجدون بها خوفاً من أن يجعل بهم ما حل بأهل قبرص^(٣) . وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب في فشل جقمق في اخضاع رودس وجعلها قاعدة لسلطنة المماليك في مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرص .

(١) محمد مصطفى زيدان : المحاولات البحرية للإمبراطور على جزيرة رودس ، ص ٢٩٧ .

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 582. (٢)

Atiya : The Crusade in the Later Middle age, p. 474. (٣)

وكانت الحملات التي أرسلها جقمق ضد رودس ثلاثة سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ (١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤ م). وبعد أن دخلت الحملان الأولى والثانية في تحقيق هدف واضح، اهتم جقمق بإعداد الحملة الثالثة، وحشد لها عدداً كبيراً من الرجال والسفن. وقد قامت هذه الحملة بمحاصرة مدينة رودس – حاضرة الجزيرة – طوال أربعين يوماً، ولكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين اقتحامها. ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوروبية إلى رودس، فعادوا فاشلين إلى مصر^(١).

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل، إلا أن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين المهدوء حيناً والعداء أحياناً بقية القرن الخامس عشر. ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في النصف الأخير من القرن الخامس عشر في حال لا تتمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى العادية، فلم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين في ثغور مصر ومضايقهم^(٢).

السلطان الأشرف قايتباي والتركان :

توفى السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ (١٤٥٣ م) بعد أن عهد وهو على فراش الموت لابنه عثمان بولاية العهد. ولم يستطع المنصور عثمان البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً، إذ عزله الأمير إينال وحل محله بعد أن تلقى بلقب الأشرف. وأهل الظاهره الواضحة في تاريخ المماليك عندئذ هي إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك.

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 339.

(١)

Wiet : op. cit., pp. 621-622.

(٢)

ويبدو الفارق واضحاً بين ما كان عليه المماليك في أوائل عصرهم من نظام وطاعة ، وبين ما آلت إليه أمرهم في القرن الناسخ الهجري (الخامس عشر للميلاد) من انحلال ، حتى لقد وصفهم المؤرخ أبو الحasan بقوله « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرعون حتى في الرغيف »^(١) .

وقد ظل الأشرف إينال في الحكم ثمان سنوات ٨٦٥ - ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ - ١٤٦١ م) ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات ! وفيما عدا هذه الفتنة والمنازعات والقلائل الداخلية ، لا يوجد ما يستحق الذكر في الفترة التالية التي تعاقب فيها على عرش سلطنة المماليك أحد بن إينال = ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) فالظاهر سيف الدين خشقدم = ٨٦٥ - ٨٧٢ هـ (١٤٦١ - ١٤٦٧ م) فالظاهر سيف الدين يلبائى الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) قاتل الظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ (ديسمبر ١٤٦٧ - يناير ١٤٦٨ م) وهكذا يبدو لنا كيف تعاقب سلاطين المماليك في سرعة متناهية ، وكيف أن بعضهم لا يكاد يعتلي العرش أيامًا حتى يعزل ، مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذى أصاب سلطنة المماليك في ذلك العصر. بل إن أحد سلاطين المماليك ظل سلطاناً مدمى ليلة واحدة ، فت assum أن خير بذلك اُقتل العرش سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) بعد عزل تمربغا ، وكان اعتلاوه العرش في المساء وعزله في الصباح التالي ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه « سلطان ليلة ! »^(٢) . ولم تستقر الأوضاع في سلطنة المماليك بعد تلك الفترة القلقة إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباى في منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباى ظل في الحكم قرابة تسعه وعشرين

(١) أبو الحasan : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن أيس : بذائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ .

سنة (٨٧٢ - ٩٠١ = ١٤٩٦ - ١٤٦٨ م) ، وهي مدة طويلة ، لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون . وقد أثبتت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشعوب العالم الخارجي وأكثرهم شجاعة وحكمة^(١) .

وعلى الرغم من ثورات الجبلان في عهد قايتباى ، وجشعهم في الحصول على الأموال دون تقدير لظروف البلاد والمخاطر التي هددتها في ذلك الوقت ، فإن قايتباى استطاع أن يواجه في جرأة وعزيمة المشاكل الكبرى التي هددت دولته . وكانت المشكلة الأولى التي واجهت دولة المماليك في ذلك العصر من جانب الدول التركانية التي هددت الأطراف الشهابية لدولة المماليك في شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى ؛ وأهم هذه الدول دولة داغدار ودولة رمضان ودولة قرمان ، ثم دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء^(٢) .

وقد رأينا كيف قام السلطان المؤيد شيخ بحملتين سنويتين (٨٢١، ٨٢٢) على الأطراف الشهابية بلاد الشام لارغام تلك الدوليات التركانية على الخضوع لسلطنة المماليك . وإذا كانت هاتان الجبلان قد نجحتا في إرهاب التركان ، مما ترتب عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك ، فإن هذا المهدوء جاء مؤقتاً ، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهز فرصة سوء التفاهم بين برسبياوى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة ، وأغار على حدود سلطنة المماليك بلاد الشام . وقد رد برسبياوى على ذلك برسالة حملة خربت الراها - سنة (٨٣٣ - ١٤٣٠ م) - وكانت تابعة للشاه البيضاء - وأسكنه لم يستطع مع ذلك أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركان . وربما

Lane-Poole : op. cit., pp. 343-344.

(١)

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

(٢)

كُلَّ اخْتِلَالٍ أَحْوَالِ الْمَهَالِكِ وَمَا سَبَوْهُ مِنْ اضْطِرَابَاتٍ مِنْذُ أَوْخَرِ عَهْدِ
بَرْسَبَىِ دَانُوا لَهُدُوِّ الْمَوْقَفِ... نَسِيَّا بَيْنَ التَّرْكَانِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَسَلْطَنَةِ الْمَهَالِكِ
مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، حَتَّى قِيَامِ قَايِقَبَىِ فِي الْحُكْمِ^(١) .

عَلَى أَنْ ازْدِيَادِ نَفْوذِ الْعَشَانِيَّينِ وَتَدْخُلِهِمْ فِي شُؤُونِ تَلْكَ الْأَمَارَاتِ
الْتَّرْكَانِيَّةِ عَلَى حَدَّودِ دُولَةِ الْمَهَالِكِ ، جَعَلَ السُّلْطَانَ الْأَشْرَفَ قَائِمَبَىِ يَحْسُسُ
بِالْحُظْرِ الْجَدِيدِ وَيَفْسُكُ فِي وَضْعِ حَدَّ التَّرْكَانِ حَتَّى لَا يَكُونُوا أَدَاءً لِتَغْلُلِ
النَّفْوذِ الْعَشَانِيِّ فِي أَطْرَافِ دُولَةِ الْمَهَالِكِ مِنْ نَاصِيَّةِ الشَّيْخَالِ .

وَلَذِكَ قَامَ السُّلْطَانُ قَائِمَبَىِ بِإِرْسَالِ عَدَّةِ حَمَلاتٍ ضَدَّ شَاهِ سُوارِ أَمِيرِ
دَلْغَادَرِ الَّذِي كَانَ يَتَمَمُّعُ بِتَأْيِيدِ السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ الْفَاتِحِ الْعَشَانِيِّ . وَقَدْ نَجَحَتِ الْحَمْلَةُ
الْآخِيرَةُ الَّتِي أَرْسَلَهَا قَائِمَبَىِ بِقِيَادَةِ الْأَمِيرِ يَشْبَكِ سَنَةَ ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م)
فِي إِنْزَالِ الْمُهْزِيَّةِ بِشَاهِ سُوارِ وَالْاسْتِيلَامِ عَلَى قَلْعَةِ عَيْنَتَابِ وَأَذْنَهُ وَطَرْسُوسِ
وَأَخِيرَ آتِمِ الْقَبْضِ عَلَى شَاهِ سُوارِ وَأُرْسَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، فِي حِينَ قَامَ الْقَائِدُ
يَشْبَكُ بِتَنْظِيمِ شُؤُونِ إِمَارَةِ دَلْغَادَرِ ، وَعِينَ عَلَيْهَا الْأَمِيرُ بُودَاقُ ، وَهُوَ أَخُو
شَاهِ سُوارِ ، وَكَانَ الْأَوَّلُ يَعْتَمِدُ عَلَى تَأْيِيدِ سَلْطَنَةِ الْمَهَالِكِ فِي حِينَ اعْتَمَدَ
شَاهِ سُوارِ عَلَى تَأْيِيدِ سَلْطَنَةِ الْعَشَانِيَّةِ . وَلَمْ تَلْبِسْ أَنْ عَادَتِ حَمْلَةُ يَشْبَكِ إِلَى
الْقَاهِرَةِ سَنَةَ ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) فَاسْتِقْبَلَتْ أَسْتِقْبَالًا حَافِلًا فِي حِينَ أُمِرَ
قَائِمَبَىِ بِشِنْقِ شَاهِ سُوارِ عَلَى بَابِ زَوِيلَةِ .^(٢)

وَلَمْ تَقْتَصِ الْمَاعِبُ الَّتِي وَاجَهَتْ سَلْطَنَةِ الْمَهَالِكِ مِنْ جَانِبِ التَّرْكَانِ عَلَى
مَا أَثَارَهُ أَمْرَاءُ دَلْغَادَرِ مِنْ ذَنْ وَاعْتِدَامَاتِ ، بَلْ إِنْ قَبِيلَةَ الشَّاهِ الْبَيْضَاءِ —

(١) ابن ابياس : بدائع الدهور ج ٢ ص ١٩ وما بعدها .
Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 590-594. (٢)

وصاحبها حسن الطويل — دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الاشهر الذي جعل السلطان قايتباى يرسل حملة بقيادة يشبك سنة ٥٨٧٧ (١٤٧٢م) ضد حسن الطويل^(١) . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصاراً على التركان عند اليرة على نهر الفرات ، إلا أن يشبك انتحر فرصة الفوضى التي عمّت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٦٨٣هـ (١٤٧٨م) وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة ٦٨٥هـ (١٤٧٩م) ولكن حاكم الرها — وهو أحد نواب يعقوب بلق بن حسن الطويل — استطاع أن ينزل الحروبة بالمالك في تلك السنة ، وأسر يشبك وقتله ، كما قتل كثيراً من أمراء المالك^(٢) . ويبدو أن ظروف قايتباى لم تساعد له على الإنتقام لغيره من تلك الكبارية ، ففجع بعقد الصاحب مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفي الوقت الذي حرص السلطان قايتباى على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، لم يهمل شؤون رعاياه ودولته .حقيقة إنه تصرف في جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاستكثار ، ولكن أعماله ثبتت أنها أنه استغل الأموال العظيمة التي جمعها في إقامة المنشآت العديدة أو تهيئ الجيوش . ويعتبر مسجداً قايتباى بالقاهرة والوكالات التي أقامها من أجمل المنشآت التي تمتاز بفنها العربي الأصيل^(٣) . هذا إلى شغف قايتباى بإصلاح آثار وترميم ومتاحف اسلامه ، كما ثبت ذلك السكتابات والنقوش العديدة المتبقية في مدارس ذلات العصر ومساجده فضلاً عن القلعة . وقد عرف عن قايتباى حبه للتنقل والأسفار ، زحاف بالشام وأعلى الفرات وهصر العليا

(١) ابن ایاس : بذائع الزهور ج ٣ ص ٨٦ (تحقيق محمد مصطفى) .

(٢) ابن ایاس : بذائع الزهور ج ٣ ص ١٧١ (محمد مصطفى) .

(٣) زكي محمد سبن : فنون الإسلام ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ — ٨٤ .

والدلتا ، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاج وبيت المقدس^(١) . وأينما ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطريق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك – عد الناصر محمد بن قلاون – فعل مافعله قابقى من عناية بالفنون وخاصة فن العمارة^(٢) .

(١) ابن ابياس : بداع الزهد رج ٣ ص ٣٢٩ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى)
Lane-Poole : op. cit., p. 344. (٢)

الفصل السادس

نهاية دولة المماليك

قاصدوه الغوري :

سادت أحوال مصر في أواخر عصر السلطان قايتباى ، إذ ضاق الناس بكرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون إنتشاراً خطيراً سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) « وفتك في الناس فتكاً ذريعاً » على قول ابن إياس ، حتى إنه كان يموت بالقاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء فهانت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلثهم ، وكان من جمله المولى زوجة السلطان وابنته . وزاد الموقف سوءاً بإندام الأقوات وإنفراط النيل وانتشار طاعون المداشى^(١) .

وفي وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقع في منازعات مع بعضهم البعض سنة ٩٠٥ هـ (١٤٩٥ م) . أما السلطان قايتباى نفسه فقد استبد به المرض وتقىد به السن حتى جاوز الثانية من عمره ، فلم يجد بدا من التنازل عن العرش لابنه محمد . ثم توفي بعد ذلك في اليوم التالي مباشرة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦ م)^(٢) .

ومن الواضح أن محمد بن قايتباى الذى تلقب بالناصر كان لا يقوى على

(١) ابن إياس : بستان الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ .

Wiet : op cit., p. 604.

(٢)

الصمود في وجه كبار الأمراء، لاسيما وأنه كان صغيراً في الرابعة من عمره . وقد أتخد النزاع بين كبار الأمراء شكل تنافس حول الوصاية على السلطان الصغير : على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهدية للتخلص من ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة . وكان أن خرج الأمير قانصوه خمسيناته فائزًا من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبدل بالسلطة^(١) .

وإذا كان قانصوه خمسيناته قد استطاع عزل محمد بن قايتباي ليعلن نفسه سلطاناً (سنة ٩٠٣ هـ = ١٤٩٧ م) ، وما كان أغناه عن هذه السلطنه ، على قول ابن إياس ، فإن خذلتهم قاتلته ثم يبيرون أن خلعوه وانتهى أمره بالقتل ، في حين أعادوا الناصر محمد بن قايتباي مرة أخرى إلى السلطنه^(٢) . ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استشار تفوز الناس بمحبته وطبيشه وميله لشريك الدمام ، في الوقت الذي استبد للهاليك الجلبان بالأمور وعاثروا فساداً في البلاد والعباد . وأخيراً ضاق الأمراء بإستبداد للهاليك الجلبان وخضوع محمد بن قايتباي لرأيهم ، فقتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) واختاروا شريكهم الظاهر قانصوه — وهو حال القتيل — ليتولى السلطنه . وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة في تلك الفترة المضطربة من تاريخ سلطنة الهاليك ، فعزل الظاهر قانصوه ليتولى بدلها الأشرف جان بلاط سنة ٩٠٥ هـ (يونيه سنة ١٥٠٠ م) ، ثم عزل وخنق هذا الأخير ليحل محله العادل طومان باي (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (يناير سنة ١٥٠١ م) ، ولم يبق العادل طومان باي في منصب السلطنة سوى بضعة أشهر حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه الغوري في أبريل سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠١ م) .

(١) ابن إياس : بداعي الرهوج ٣ ص ٣٣٥ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

ولعل الميزة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الاواخر عند عزفهم هي التي جعلت قانصوه الغوري يهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الامراء « ويختفي من ذلك ويبكي » ولاسمه قبل أخيراً ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتلها إذا أرادوا خلعه^(١) . ولم يكن أصرار الامراء على اختيار قانصوه الغوري لاعتقادهم في أحقيته نظراً لكبر سنه، وإنما لاعتقادهم أنه شعيف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم.

ولتكن لم يك السلطان الأشرف قانصوه الغوري يلي السلطنة حتى أثبتت أنه رجل قوى صلب العود ، رغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل في سرعة على إعادة الأمان والاستقرار إلى العاصمة وملا مناصب الدولة بين يديه من كبار الامراء^(٢) . ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة . على أنه يؤخذ على السلطان الغوري أنه اتبع سياسة تقشفية في أشباع خزانة الدولة ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الاراضي والمحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعدبات والسفن ودواب النقل بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه تلاعب في العملة لتسفير الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة^(٣) . وكانت النتيجة أن حقق الغوري أغراضه وحصل على ما كان يطمع فيه من أموال ولكن على حساب شعب محطم ، أثقلت كاهله الالتزامات والاحتياطات والضرائب ، وأقلقت مصانعه الفتن والمنازعات بين أمراء

(١) ابن إبراهيم : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) ابن إبراهيم : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن إبراهيم : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ (محمد مصطفى) .

المماليك وطوا أنفهـم . ولم يـشفع للـسلطان الغورى لدى رعاياهـ أن ذلكـالـسلطان شـيد مـسـجـداً وـمـدـرـسـةـ فـالـحـىـ الذـىـ نـسـبـ إـلـيـهـ فـيـاـ بـعـدـ ، وـهـوـ حـىـ الـغـورـيـةـ ؛ كـاـعـنـ بـطـرـيقـ الـحـجـ وـحـفـرـ بـهـ بـعـضـ الـأـبـارـ ، فـضـلـاـ عـنـ عـنـاـيـتـهـ بـحـفـرـ التـرـعـ وـتـحـصـيـنـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـرـشـيدـ ، وـإـصـلـاحـ الـقـلـعـةـ . هـذـاـ إـلـىـ أـنـ عـرـفـ عـنـ السـلـطـانـ الغـورـيـ عـنـاـيـتـهـ بـعـالـيـكـهـ فـاـكـثـرـ مـنـ أـعـدـادـهـ عـنـ طـرـيقـ الشـرـاءـ ، وـصـرـفـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـمـوـالـ عـلـىـ مـظـاهـرـ بـلـاطـهـ وـخـاتـمـهـ ، وـأـصـبـحـتـ عـالـيـكـهـ وـخـيـولـهـ وـجـوـاهـرـهـ وـمـطـبـخـهـ السـلـطـانـيـ مـضـرـبـ الـأـمـثـالـ ، كـاـاـشـهـرـتـ بـجـالـسـهـ الـأـدـبـيـةـ الـتـيـ ضـمـتـ الشـرـاءـ وـالـأـدـبـاءـ وـالـعـلـمـاءـ^(١) .

الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولـمـ تـحدـثـ قـلـاقـلـ ذاتـ خـطـوـرـةـ فـيـ الـفـتـرـةـ الـأـوـلـىـ منـ حـكـمـ السـلـطـانـ الغـورـيـ ، إـذـاـ اـسـتـشـيـنـاـ بـعـضـ الـفـتـنـ وـأـثـورـاتـ مـنـ جـانـبـ الـمـمـالـيـكـ وـالـعـرـبـانـ ، وـهـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـثـورـاتـ كـانـ مـأـلـوـفـاـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ . وـلـمـ يـصـادـفـ السـلـطـانـ الغـورـيـ مـشـفـقـةـ فـيـ إـحـمـادـهـ . وـلـكـنـ الـخـطـرـ الـكـبـيرـ الذـىـ ظـهـرـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ وـالـذـىـ هـدـدـ مـصـرـ فـيـ كـيـانـهـ وـفـيـ الـمـورـدـ الـأـوـلـ لـنـرـوـتـهـ وـغـنـاـهـ أـتـىـ مـنـ نـاحـيـةـ الـجـنـوبـ — أـعـنـىـ مـنـ نـاحـيـةـ الـمـدـخلـ الـجـنـوـبـيـ لـلـبـحـرـ الـأـحـمـرـ ؛ ثـمـ مـنـ نـاحـيـةـ الـشـهـالـ — أـىـ مـنـ جـانـبـ الـعـشـانـيـنـ .

وـالـعـرـفـ أـنـ حـرـكـةـ الـمـغـولـ التـوـسـعـيـةـ أـدـتـ مـنـذـ الـقـرـنـ السـابـعـ الـهـجـرـيـ (ـالـثـالـثـ عـشـرـ الـمـيـلـادـ) إـلـىـ ضـيـاعـ أـهـمـيـةـ طـرـقـ الـتـجـارـةـ الرـئـيـسـيـةـ الـمـأـلـوـفـةـ بـيـنـ الـشـرـقـ وـالـغـرـبـ وـبـخـاصـةـ طـرـيقـ الـخـلـيـجـ الـفـارـمـيـ وـالـطـرـيقـ الـبـرـىـ الـمـارـ بـسـمـرـقـندـ ؛ وـبـذـلـكـ لـمـ يـقـ بـهـنـاكـ طـرـيقـ آـمـنـ بـعـيـدـ عـنـ عـبـثـ الـمـغـولـ سـوىـ

(١) انظر كتاب (الكتاب الدرى في مسائل الغوري) مخطوط ، وعهد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري .

طريق البحر الآخر ومصر . وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة وفرضوا ضرائب مرتفعة على الغلات الآسيوية التي احتاجت إليها أوربا وحرست على استيرادها من الشرق — وبخاصة التوابل . بل إن سلاطين المماليك فرضوا نظاماً احتكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوروبيين في الإسكندرية ودمياط بشمن يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى^(١) .

وكان أن صاق التجار الأوروبيون — فضلاً عن المستهلك الأوروبي — بذلك الوضع ، فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر والمماليك يمكن الأوروبيين من الحصول على متاجر الشرق . ولما كانت البندقية هي العميل الأول لدولة المماليك في تجارة الشرق الأقصى فإنه كان من المنتظر أن تبدأ مسافتها جنوة الجهود للبحث عن طريق جديد إلى الشرق . وفعلاً استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقيا — في مواجهة جزر كناريما — مما يعتبر مقدمة للجهود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد^(٢) . وكان أن نجح بارتليبو دياز في كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، وأعقبه فاسكودي جاما الذي تمكن من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقيا سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) ؛ وبذلك حقق البرتغاليون نصراً عالمياً جديداً ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى بشمن يبلغ ربع الثن الذي كانت تباع به في الإسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجيء في طرق

(١) دراسة مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى — بحث الدكتور سعيد عاشور ، نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية (ديسمبر ١٩٦٢) .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحرب العالمية من ١١٠ (بحث نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية ، أكتوبر ١٩٦٢) .

التجارة العالمية ؛ إذ بدأ الاعراض عن شراء التوابيل من السوق المصرية ؛ مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذي استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم . ولم تكن البندقية أقل تأثيراً من سلطنة المماليك بما سببه لها اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب^(١) . لذلك انفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فخرعن البنادقة السلطان الغوري على إرسال حمله إلى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند . هذا في الوقت الذي لجأ الغوري إلى أسلوب آخر هو تحريض الحكام المسلمين بالمند على طرد البرتغاليين ومحاربتهم . أما البنادقة فقد دأبت من جانبها على تأليب القوى الأوروبية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغوري والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمين في الهند تحركوا ضد البرتغاليين ولا الدول الأوروبية قبلت أن تتخل عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الأوروبية بحاجته من التوابيل بسعر أرخص كثيراً من أسعار البنادقة^(٢) .

ولما وجد الغوري أن الغرب الأوربي لم يعبأ بتهدياته ، وأن جهود البنادقية لم تفلح في عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن أصبحت المعركة حياة أو موت بالنسبة لسلطنة المماليك . ويذكرنا أن ندرك مدى الإنهيار المفاجئ في دخول السلطان بعد أن أصبحت التوابيل مكدسة في الغور المصري لا تجد من يشتريها من التجار الأوروبيين . لذلك أعد الغوري حملة بحرية ، كبيرة وأرسلها في البحر الأحمر سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة حسين السكري نائب جده . وكان أن استطاعت هذه الحملة أن تنزل المزينة بالبرتغاليين قرب الشواطئ الغربية للهند سنة ٩١٤ هـ (١٤٦٣ م).

(١) Heyd . Hist. du Commerce, T. 3, p. 320.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ من ٨٤ ، ١٤٦ .

(١٥٠٨ م). ولكن البرتغاليين انتصروا بسرعة لأنفسهم فخطمو الأسطول المصري في العام التالي سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) في موقعة ديو البحريه^(١).

وإذا كان السلطان الغوري لم يتأس بعد موقعة ديو، وإنما قام بعدة محاولات أخرى للفوز على النفوذ البرتغالي في الهند، إلا أنه من الواضح أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح من بدايتها. وهكذا ذابت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبي جميعاً، وبنهاية تلك التجارة ذابت الدولة نفسها. وكان ذلك في الوقت الذي بدأ يشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك في الشام ومصر.

العثمانيون والمماليك :

شهد القرن الرابع عشر تضخم نفوذ قوة جديدة في الشرق الأدنى، هي قوة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يعيشون في بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر للهجرة) في إقليم خراسان، ثم اضطروا تحت ضغط المغول إلى التحرك غرباً حتى استقروا في آسيا الصغرى. وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقوته سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) فرصة طيبة للعثمانيين، فأخذدوا يتسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكثيرة التي وجدت في آسيا الصغرى في ذلك الوقت، وعلى حساب الممتلكات والأراضي البيزنطية، فاستولوا على بروسه سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وعلى نيقية سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م)، ثم عدوا إلى الشاطئ الأوروبي واستولوا على غالاتيولى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)^(٢). وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوجه توسيعاً منها سريعاً على حساب الدولة البيزنطية من ناحية وعلى حساب القوى الإسلامية في آسيا الصغرى من ناحية أخرى، دون

Wiet : op. cit., p. 618.

(١)

Gibbons : The Decline and Fall of the Roman Empire, pp. 101-103.

(٢)

أن يمُوك تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) .

على أن الدولة العثمانية تعرضت لضرر خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائياً في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) ، عندما اجتاح تيمور إنك معظم آسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية في موقعة أنقرة سنة ٨٠٥ھ (١٤٠٢ م) ووقع السلطان العثماني بايزيد الأول نفسه أسيراً حيث مات في الأسر في العام التالي ^(١) . وكان الأمل ضعيفاً في استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك السكبة ، ولكنها هضمت بسرعة ، وتمكن السلطان محمد الأول العثماني من إحياء الدولة وربط أجزائهما واستئناف سياسة التوسيع من جديد . ولم يستطع الغرب الأوروبي وقف توسيع العثمانيين في البلقان ، حتى سقطت القدسية في قبضة السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ھ (١٤٥٣ م) وبذلك أنهت الدولة البيزنطية من صفحة التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان في مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم ^(٢) .

وفي خلال تلك الأحداث التي صحبت نمو الدولة العثمانية واتساعها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يظهر في الأفق ما يدل على احتلال حدوث صدام بين العثمانيين والمماليك في مصر والشام . ولا نكون مبالغين إذا قررنا أن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح إلى الانتصارات التي حققها العثمانيون المسلمين على حساب القوى الأوروبية المسيحية في البلقان ، بل إن السلطان إينال أمر بتزيين القاهرة سنة ٨٥٧ھ (١٤٥٣ م) عندما وصلته الأخبار باستيلاء العثمانيين على القدسية ^(٣) . وهكذا أخذ المماليك ينظرون

Cam. Med. Hist. vol. 4, 682-684. (١)

(٢) سعيد عاشور : أوربا المصور الوسطى ج ١ ص ٦٨٣ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر من ١٩٩ .

إلى كل نصر يتحقق العثمانيون على أنه نصر الإسلام والمسلمين . وأدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا كلما أحرزوا إنتصارا في موقعة كبرى على إرسال بعض أمرى الأوربيين إلى القاهرة ، ليشاركهم إخوانهم المسلمين في مصر فرحة النصر . وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في القاهرة على إرسال التهانى إلى الدولة العثمانية كلما تولى سلطاناً جديداً أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصراً جديداً^(١) .

غير أنه لم تكدر السلطنة تنقل إلى خشقدم سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) حتى أخذت العلاقات بين دولتي المماليك والعثمانيين تتفسر . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنعت عندئذ بما حققته من فتوح في البلقان وأخذت توالي وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجاً عن السيادة العثمانية من أمارات في آسيا الصغرى . وكانت أهم هذه الأمارات إمارتا قرمان ودلغادر ، وهما إماراتان تركتان مشموماتان بحماية سلطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة في شئون الأمن والدفاع عن مصالحها في شمال الشام والعراق^(٢) . و الواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمراً طبيعياً بين أكبر قوتين تتنزعان العالم الإسلامي في الشرق الأدنى واتخذتا الحرب والقتال أداء لسياستهما ، فصار لا بد لاحدي هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وقستأثر بزعامة المسلمين في تلك المنطقة . لذلك اتخذ التنافس بين سلطان المماليك وسلطان العثمانيين إمارتا قرمان ودلغادر ميدانالله ، وظهر ذلك بوضوح عندما توفي أميراً قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٥ م) إذ قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولته المماليك بتأييدهما .

وإذا كانت العلاقات قد تحسنت بعد عدم خشقدم بين سلطنة المماليك

(١) ابن إياس ، بداع الزهور سنة ٨٥٧ هـ « صفحات لم تنشر » سبقها ونشرها محمد مصطفى ؛ من ١٤ .
Lane-Poole : op. cit., pp. 346-347. (٢)

وسلطنة العثمانيين فإن هذا التحسن لم يكن إلا في ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية من ناحية ومخاوف دولة المماليك من ناحية أخرى ظلت قائمة. ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على إيواء الأمراء الخارجيين على الطرف الآخر ، فرحب سلطنة المماليك ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباى بأخ للسلطان بايزيد الثاني — اسمه جم — هارب من وجهة^(١) . وقد حاول بايزيد الثاني أن يحرم سلطنة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضيق عليها مكانه خاصة لا تتمتع بها دولة إسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام بضعة إصلاحات في مكة ولكن قايتباى رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلب تيمور لنك لكسوة الكعبة من قبل . وإذا ذلك لم يسم بايزيد الثاني سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ إمارة دلغادر — الخارجة عن طاعة المماليك عندئذ — مسرحاً لذلك التحرش^(٢) .

على أنه منها يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين في ذلك الدور^(٣) ، فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلًا جديًا خطيرًا إلا في عصر السلطان سليم الأول العثماني من ناحية والسلطان قانصوه الغوري من ناحية أخرى .

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثماني بمحاربة اسماعيل الصفوي شاه إيران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية. وأدى انتصار العثمانيين على الصفوين سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٤ م) واستيلاء السلطان سليم الأول على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات

Wiet : L'Egypte Arabe, p. 598. (١)

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك من ٢٠٠ .

(٣) ابن لبيس بداعم الظهور سنة ٨٧١ هـ وما بعدها « ص ١٧٦ ١٧٦ صفحات لم تنشر »

الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين ، إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والماليلك . ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) على إمارة دلغادر المشمولة بجهادية سلطنة الماليلك ، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لا مفر منه^(١) .

ولم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكتاً إزاء حوادث الاستفزاز العثمانى من ناحية ، والأخبار التي أخذت تتراءى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضي الدولة الماليلكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغوري إلى استرchanة الماليلك التأذين بسبب تأخر رواتهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة ، فاستدعاى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب ، وأسرع بتحصين قلعة قايتباى في الإسكندرية . وفي ذلك الجو المشحون بروح الحرب وصلت إلى القاهرة رسالة من خاير بك نائب حلب ملخصها أن السلطان مخدوع فيها لديه من أخبار بخصوص نوايا سليم وأن المقصود من الاستعدادات التي قام بها السلطان العثماني محاربة الشاه إسماعيل الصفوى^(٢) . وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها تكشف الستار عن دور الخيانة الذي حرض خاير بك على القيام به منذ ذلك الوقت والذي كان له أبعد الأثر فيما بعد في الهزيمة التي حللت بالغوري .

ومهما يكن من أمره ، فإن الغوري لم ينخدع بذلك الرسالة ، وإنما عقد مجلساً حرياً لبحث الأمر مع أمرائه ، واستقر رأي الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب واستعداداً للطوارئ ، على أن يكون السلطان الغوري نفسه على رأس تلك الحملة^(٣) وهكذا لم يتصرف شهر ما يو

(١) Wiet : op. cit., pp. 632-633.

وابن إياس ، بدائع الظهور ج ٤ ص ٣٥ وما بعدها « محمد مصطفى » .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين الماليلك ص ٢١٤ .

(٣) ابن إياس : بدائع الظهور ج ٤ ص ٤٣٥ وما بعدها ، ج ٥ ص ٢٧ — ٣٨ .

سنة ١٥١٦ م (٩٢٢هـ) إلا وكان الغوري قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . وفي مرحلة التأهب النهائي بالريدانية ، وصلت إلى الغوري رسالة من خاير بك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثماني تحوى كثيرة من عبارات الود والمحبة والرغبة في التعايش السلمي مع سلطنة المماليك . وفي هذه الرسالة يخاطب السلطان سليم الغوري قائلاً : أنت والدى وأسألك الدعاء^(١) .

ولتكن هذه الخديعة لم تنطل على الغوري ، بفرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أذاب عنه في السلطنة الأمير طومان باي .

ولم يكن السلطان الغوري مبالغاً في سوء ظنه بالعثمانيين عند ما أرسل إليه السلطان سليم رسولين في حلب يعرضان الصلح ، إذ أدرك الغوري أن « كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويشن عزمه عن ذلك » ، على قول ابن إياس . كذلك لم يكن الغوري مبالغاً في الحذر عندما استدعي — وهو بحلب — أمراءه جميعاً وحلفهم على القرآن — في حضرة الخليفة العباسى — بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغوري كان على حق في جميع مخاوفه ، وإذا كان قد رد على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثماني أسماء استقبال رسول الغوري وصاح فيه « قل لاستاذك يلاقينا على مرج دابق^(٢) » .

وكان أن دارت المعركة فعلاً عند مرج دابق ، فحارب المماليك بشجاعة تadora ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثماني في التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه وفي تلك اللحظة الحرجية كشف خاير بك الخائن النقاب عن وجهه ، فأشاع

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٨ .

بين صفوف الجنادل أن السلطان الغوري يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى ، ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان بعد أن أشاع أن السلطان الغوري خرج قتيلا . وهكذا تفرقت صفوف المماليك وإنما هارب مقاومتهم ، وعيثوا حاول الغوري — بعد غوات الأولى — أن يوقف قياد الفرار فصاحت في جنده المدرسين « يا أغوات الشجاعة ! صبر ساعة »^(١) وكان لهذه الصدمة وقعها في قلب الشيخ ، فطلب الغوري ماء ليشرب « ثم أغشي عليه وسقطر ميتا » من فوق فرسه . وقيل أن السلطان سليم قطع رأس الغوري وأرسلها إلى إسطنبول في حين دفنت جثته عند حلب : « وال الصحيح أنه لم يعلم حاله »^(٢) .

طومان باي وسقوط دولة المماليك :

صارت كارثة هررج دابق مزدوجة بوفاة الغوري . ففرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق في طريقها إلى القاهرة . أما أهل القاهرة فقد وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة لاسيا وأن أخبار هزيمة هررج دابق وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثماني على بلاد الشام في طريقها إلى مصر . وكان الموقف في القاهرة يتطلب إجراء عاجلا سريعا ، فاختير طومان باي سلطانا سنة ٩٢٢هـ (أكتوبر سنة ١٥١٦م) وتلقب بلقب الأشرف ، وهو آخر سلاطين المماليك في مصر والشام^(٣) .

ومن الواضح أن السلطان الأشرف طومان باي ورث تركة مثقلة ، وتولى السلطة في ظرف لا يحسد عليه حاكم . وكان أقل ما ينتظره بعد أن

(١) ابن زنبل : ص ٣٠ .

(٢) ابن طولون : مفاكرة الحلان في حوادث الزمان ق ٢ ص ٢٤ « تحقيق محمد مصطفى »

(٣) ابن لياس : بدائع الذهور ج ٥ ص ١٠٢ .

ضجي وقبل منصب السلطنة في تلك الظروف هو أن يجد تعاوناً من أمراء المماليك ، ولكن خاب ظنه لأن المماليك كانوا قد وصلوا في ذلك الدور إلى درجة من الانهلال أعمتهم عن رؤية الخطر الحبيط بهم .

من ذلك أن طومان باي فسّر في الإسراع إلى بلاد الشام للاقاء العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر ، ولكن المماليك تعلموا بالاعتذار وطالبوه ببنفقات وأموال باهظة ليجبروه إلى رغبته . وما لم يجد طومان باي استجابة من المماليك في تلك اللحظة الحرجية اضطر إلى أن يجمع من استطاع جمعه من الزعرا والصبيان والشطار والمغاربة^(١) ؛ وخرج إلى الريadianة في طريقه لمقاتلة العثمانيين .

أما السلطان سليم العثماني فكان قد استولى على حلب في سهولة عقب موقعة مرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضات قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين زحفاً بعدها تجاه حدود مصر . وفي الوقت الذي استولى السلطان سليم على غزة وبدأ يخترق الصحراء الشرقية في طريقه إلى القاهرة ، أراد طومان باي الخروج للاقاء العثمانيين في تلك الصحراء وهم متبعون من مشقة الطريق ، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقاداً منهم أن خنادقهم ستعصّمهم من المزيمة^(٢) .

وفي معركة الريadianة أظهر طومان باي شجاعة لا تقبل عن شجاعة الغوري في مرج دابق . ولكن فرداً واحداً مهماً تبلغ إرادته وشجاعته لا يستطيع أن يتغلب على جيش متراكك كبير ، فحملت المزيمة بالمماليك وفر طومان باي ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلاً في إخراج سليم من القاهرة بعد أن دخلها . وهنا ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٩ .

(٢) ابن زبيل : ص ٤٧ — ٥٠ .

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا مَفْعُولًا ، فَفَوْجَيْهُ طُومَانِبَايِ أَثْنَاهُ جَمْوَدَهُ الْجَبارَة عَلَى ضَفَافِ
النَّيلِ بِالْجَيْزَهُ بِهِجُومِ الْبَدوِ وَالْأَعْرَابِ عَلَى مَؤْخَرِهِ ، هَمَا وَقَعَهُ بَيْنَ نَارِينَ ،
فَاضْطُرَ إِلَى التَّقْهِيرِ إِلَى قَرْبِ وَرْدَانِ حِيثُ دَارَتْ مَعرِكَهُ بَيْنَ جَيْشِهِ الصَّغِيرِ
وَالْعَثَانِيَّينَ ^(١) . وَعِنْدَمَا انتَصَرَ عَلَيْهِ الْعَثَانِيُّونَ ، فَرَ طُومَانِبَايِ إِلَى أَحْدَمْشَايْخِ
الْأَعْرَابِ بِمَدِيرِيَّهِ الْبَحِيرَهُ — وَاسْمُهُ حَسَنُ بْنُ مَرْعَى — طَالِبًا حَمَائِهِ ،
وَلَكِنَّ هَذَا الشَّيْخُ فَسِيَّ ما كَانَ لِطُومَانِبَايِ مِنْ فَضْلِ سَابِقِهِ عَلَيْهِ — إِذَا كَانَ
قَدْ أُخْرَجَهُ مِنِ السَّيْجَنِ أَيَامَ الْغُورِيِّ — فَتَسْكَرَ لَهُ وَسَلَّمَ لِلْعَثَانِيَّينَ .

وَلَا وَقَعَ طُومَانِبَايِ فِي قَبْضَهِ السُّلْطَانِ سَلِيمَ ، فَرَحَ السُّلْطَانُ العَثَانِيُّ وَصَاحَ
«الآنَ ملَكُنَا مَصْرٌ !» ^(٢) .

وَتَجْمَعَ المَرَاجِعُ عَلَى شَجَاعَهِ طُومَانِبَايِ عِنْدَمَا وَقَفَ بَيْنَ يَدِيِ السُّلْطَانِ
سَلِيمَ الْعَثَانِيِّ يَقُولُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعُلْ غَيْرَ مَا أَمْلَاهُ عَلَيْهِ الْوَاجِبُ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
أَمْرَ بِالْدِفَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَرَدَ الْمُعْتَدِينَ . وَلِمَا عَاتَهُ سَلِيمٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَطْعَمْهُ مِنْ أَوْلَى
الْأَمْرِ ، رَدَ عَلَيْهِ طُومَانُ بَايِ «الْأَنْفُسُ الَّتِي تَرَبَّتْ فِي الْعَرَلَ لَا تَقْبِلُ الذَّلِّ ،
وَهُلْ سَمِعْتَ أَنَّ الْأَسْدَ يَخْضُضُ الذَّئْبَ ؟ لَا أَنْتَ أَفْرَسُ مَنَا وَلَا أَشْجَعُ مَنَا ؛
وَلَيْسَ فِي عَسْكَرِكَ مِنْ يَقَايسِنِي فِي حُوْمَةِ الْمِيدَانِ . . . ». وَهَكَذَا حَتَّى سَيِّقَ
طُومَانِبَايِ إِلَى بَابِ زَوِيلَهِ حِيثُ شُنِقَ سَنَةُ ٥٩٢٣ (٢٣ آبِيلَ سَنَةُ ١٥١٧م) .

وَقَدْ وَصَفَ الْأَوْرَخُ الْمُعَاصِرُ ابنَ أَيَامِ الْجَهَنَّمِ الْآخِيرَةِ مِنْ حَيَاةِ
طُومَانِ بَايِ وَصَفَّا رَاءِعًا ، فَقَالَ أَنَّهُ سَيِّقَ مِنْ بُولَاقِ إِلَى بَابِ زَوِيلَهِ «فَيَجْعَلُ
يَسْلِمُ عَلَى النَّاسِ بِطُولِ الطَّرِيقِ حَتَّى وَصُلَّ إِلَى بَابِ زَوِيلَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي
مَا يَصْنَعُ بِهِ . فَلَمَّا أَتَى إِلَى بَابِ زَوِيلَهُ أُنْزَلَوْهُ مِنْ عَلَى الْفَرَسِ وَأُرْخَوْهُ لِهِ الْحَمَالَ

(١) زِيَادَهُ : نَهَايَةُ السُّلَطَانِيْنِ الْمَمَالِيْكِ مِنْ ٤٤٦ .

(٢) ابن زَنْبِلُ : آخِرَةُ الْمَمَالِيْكِ مِنْ ١٣٢ .

ووقفت حوله العَمَانِيَّةُ بِالسيوفِ . فلما تحققَ أَنَّهُ سِيشْتِيقُ ، وقفَ عَلَى أَقْدَامِهِ عَلَى بَابِ زَوْيلَهُ ، وَقَالَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ (أَقْرَأَ وَالْمَلِي) سُورَةَ الْفَاتِحَةِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ) . فَبَسَطَ يَدِهِ وَقَرَأَ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ ، وَقَرَأَ النَّاسُ مَعَهُ شِمْ قَالَ لِلشَّاعِلِيِّ (أَعْمَلْ شَغْلَكَ) فَلَمَّا وَضَعُوا الْخَيْةَ فِي رَقْبَتِهِ وَرَفَعُوا الْحَبْلَ فَانْقَطَعَ بِهِ فَسَقَطَ عَلَى بَابِ زَوْيلَهُ . وَقِيلَ انْقَطَعَ بِهِ الْحَبْلُ مَرْتَيْنِ وَهُوَ يَقْعُدُ عَلَى الْأَرْضِ ، شِمْ شَنِقَوْهُ وَهُوَ مَكْشُوفُ الرَّأْسِ وَعَلَى رَأْسِهِ شَايَاهُ جَوْنَجُ أَحْرَرُ وَفُوقَهَا مَلُوطَهُ يَضَاءُ بِأَكَامِ كَبَارٍ ، وَفِي رَجْلِهِ لِبَاسُ خَوْنَجُ أَزْرَقٍ .

فَلَمَّا شَنِقَ وَطَلَعَتْ رُوحُهُ صَرَخَتْ عَلَيْهِ النَّاسُ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَكَثُرَ عَلَيْهِ الْحَزَنُ وَالْأَسْفُ ، فَإِنَّهُ كَانَ شَابًا حَسِنَ الشَّكْلَ ، سَنَّهُ نَحْوُ أَرْبِعِ وَأَرْبَعينَ سَنَّةً ، وَكَانَ شَجَاعًا وَبِطْلًا ، تَصَدَّى لِقتالِ ابْنِ عَمَّانَ وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحْصَى ، وَكَسَرُوهُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي نَفْرٍ قَلِيلٍ مِنْ عَسْكَرِهِ ، وَوَقَعَ مِنْهُ فِي الْحَرْبِ أُمُورٌ مَا لَا تَقْعُدُ مِنَ الْأَبْطَالِ .

هَذَا هُوَ حُكْمُ التَّارِيخِ عَلَى بَطْلٍ مِنْ أَبْطَالِهِ ، هُوَ آخِرُ سَلاطِينِ الْمَهَالِيكِ فِي مَصْرِ وَالشَّامِ^{١١} .

() ابن زَنْبِلَ ، ص ١٤١ — ١٤٤ ، ابن إِيَّاسَ ، بَدايَّنَ الزَّهْرَى ج ٥ ص ٧٦ .

الفصل السابع

أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك

الحياة الاقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها عماد الثروة القومية، لذلك عنوا بها عناية فائقة فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الري الأرضى التي يتغذى وصول الماء إليها . ومن أهم السلاطين الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى عهد إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر في الوجهين البحري والقبلي والكشف عليها ، بل إن هذا السلطان أشرف بنفسه على إنشاء بعض الجسور ، فكان يخرج أحيانا مع المهندسين ليوجّهم حتى يتم بناء الجسر^(١) .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطاً اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء ، بعشرة ، وما تبقى خصص للأجناد . وروعى في ذلك التقسيم أن توزع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت في مساحتها ، وفي خصوبتها ومقدار ريعها . على أن زمام الأرض فك وعدل أكثر من مرة في عصر المماليك بعد مسح الأراضي الزراعية في البلاد، وهي العملية التي تعرف باسم الروك . وقد اشتهر في تاريخ دولة المماليك الروك الذى تم في عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ھ (١٢٩٨ م) والروك الذى تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٥٧١٥ھ (١٣١٥ م)^(٢) .

(١) التوبيرى ، نهاية الإرب ، ح ٣٩ ورقة ٩١ (مخطوط) .

(٢) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

وقام بفلاحة الأرض جمهرة الفلاحين الذين عاشوا في حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث في تاريخ ذلك العصر؛ فالفللاح ظل في ذلك العصر مربوطاً إلى الأرض التي يقى حياته في خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها. وقد تعرض الفلاحون ل الكثير من العسف من جانب أمراء المالكين من ناحية ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى، حتى «خراب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشريدهم في البلاد»^(١). وكانت الأرض تزرع مرة واحدة في السنة عقب فيضان النيل، لأن البلد لم تعرف في ذلك العصر غير رى الحياض، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التي عرفت منذ أيام الفراعنة.

وعلى ذلك فإنه يبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر ازداد على عصر سلاطين المالكين نتيجة للعنابة بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها^(٢).

وفي عصر المالكين ارتفعت الصناعة رقياً كبيراً حتى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تكون في بجموعها إنتاجاً فانياً رائعاً تزدان به متاحف العالم اليوم. وحسبينا الألقنة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن التي صنعت منها الخاتم السلطاني والفرش والستور والخيام. هذادع المصانعات المعدنية التي تمثل في عدد كبير من الأواني النحاسية والطلاءات الدقيقة الصنع ذات النقوش والكتابات الجميلة.

وانتشرت في ذلك العصر صناعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة، وشغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت^(٣). أما الزجاج فقد صنعت

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ — ٤٠ .

(٢) سعيد عبد الفتاح ماشير : مصر المالكى في مصر والشام ص ٢٧٥ .

(٣) المقريزى : المواجهات ٢ ص ١٠٥ (طبعة بولاق) .

عنه أنواع جميلة بعضها من البلاور الصخرى المحبب ، والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم في النوافذ . وكذلك الخزف الذي صنعت منه أواني متفقنة جميلة ، وكان بعضها يصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برسوماتهم^(١) . ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدماً في عصر المماليك ، إذ ما زالت الأبواب والدكاك والمشرييات وغيرها من المسنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر تشهد على دقة الصناعة وتقديم وسائلها ، وسنشير إلى ذلك مرة أخرى فيما بعد عند الكلام عن الفنون في ذلك العصر .

على أنه منها يكن للزراعة والصناعة من أهمية في عصر المماليك ، فإن جميع الشواهد تدل على أن التجارة كان لها المقام الأول في النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الأول للثروة المائلة التي عبرت عن نفسها في أعمال المماليك وحياتهم وما ترکوه من آثار ومنشآت نفحة . ويرجع السبب في النشاط التجارى الذى تميز به مصر في عصر المماليك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر، بسبب حركة المغول التوسعية ؛ وبذلك لم يبق آمنا إلا طريق البحر الأحمر ومصر، مما جعل مصر تقوم في ذلك العصر بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وقد أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها وإنشاء المؤسسات الالزمة للتجارة كالفنادق والخانات والوكالات والقياس والأسواق وغيرها . كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية ، وإلى التجار الأوروبيين المتربدين على الإسكندرية ودمياط من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاون نوابه بالغور أن يحسنوا معاملة التجار

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام من ٣١٩ .

ويلاطفونهم ويتوددون إليهم ولا يحبون منهم سوى الحقوق السلطانية^(١) كذلك كتب السلطان قلاون منشوراً إلى التجار الذين يفدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف لهم مخاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ويعدهم بحسن المعاملة والإحسان إليهم^(٢) . ويفهم من المراجع المعاصرة أنه خصصت لشكل جالية من التجار الأوروبيين فنادق خاصة بهم في الغور والراكون التجارية السكري في مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الأوروبيون النازلين فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات^(٣) .

ولا أدل على النشاط التجارى في عصر سلاطين المماليك من انتعاش ثغور مصر وموانئها ، مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعیداب بالنسبة لتجارة الصين والمهد واليمين ، ودمياط والاسكندرية بالنسبة لتجارة مع القوى الأوروبية ، وخاصة المدن الإيطالية^(٤) .

وما يقال عن التجارة الخارجية يمسك تطبيقه على التجارة الداخلية ، إذ اشتهرت مدن مصر السكري بأسوقها الحافلة بالبضائع ، وأحكام الرقابة عليها من جانب المحتسبين لمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة^(٥) .

على أن الجشع سرعان مدفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور ، وبالغوا في تحديد

(١) تاريخ ابن الفرات؛ ح ٧ ص ١٩٨.

(٢) القلقشندى : صبح الأممى ح ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

Kammerer : Le Régime et le Status des Etrangers en Egypte, pp. 17-20. (٣)

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصر المملائكي في مصر والشام ص ٢٩٠ .

(٥) المقريزى : الموعظ ح ٢ ص ٩٢ ، ابن الأخره : معلم القرية ص ٨ .

أئمانها حتى بلغ ثمن الفلفل مثلاً في الإسكندرية أضعاف ثمنه في الشرق الأقصى عشرين مرة . وقد بلغت سياسة الاحتياط هذه أشدّها على عهد السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ = ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) الذي أبطل التعامل بالنقد البنديق والفلورنسى وسک الدينار الأشرف ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوروبيين^(١) . وأخيراً ضاق الأوروبيون ذرعاً بسياسة سلاطين المماليك وأحتكاراً لهم ، فخروا في البحث عن طريق آخر يسكنهم من الحصول على حاصلات الشرق بشمن معقول ؛ وما زالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالحة في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلاد) فكان ذلك إيذاناً بتدحرج مصر التجارى في التجارة العالمية .

وأخيراً ، فإننا نلاحظ عدم استقرار الحياة الاقتصادية في عصر المماليك بسبب تلاعب السلاطين بالعملة^(٢) ، أو حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك^(٣) . هذا فضلاً عن أن أهل مصر كانوا يعيشون تحت رحمة فيضان النيل ، فإذا انخفض الفيضان حدثت أزمة اقتصادية في البلاد وأرتفعت الأسعار واشتد الجوع وربما انتشر الطاعون في البلاد وسقط الموى في الطرق دون أن يجدوا من يدفهم^(٤) .

المجتمعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها كانت حياة صاحبة نشطة ، مليئة بالحركة والحياة .. والمعروف أن المماليك أنفسهم عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلهما . وقد شهدت الراحلة الأجانب

Ahmed Darrag : L'Egypte sous le Régne de Barsbay, (١)
pp. 96-100.

(٢) السجوارى : النبر المسبوك ص ٢٦٠ ، المقربي : السلوك ح ٢ ص ١٧ ، ح ٤ ص ٤٢.

(٣) أبو الحasan : النجوم ح ٥ ص ٤٠١ (طبعة كاليفورينا ، المقربي : السلوك ح ٣ ص ١٦٤).

(٤) المقربي : السلوك ح ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

الذين زاروا مصر في ذلك العصر يعظام ثروة أمراء المماليك وحياة الترف والنعم التي عاشوا في ظلها^(١) . أما الماصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم — مثل المعتمدين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في المجتمع ومستوى لائق من المعيشة ، في حين ظل غالب أهل البلاد من العوام وال فلاحين يعيشون حياة أقرب إلى البوس والحرمان^(٢) .

وكانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط في عصر المماليك ، إذ عنى سلاطين المماليك بتجميلها ونظافتها ، وامتازت بأسواقها العديدة المليئة بأصناف البضائع والتي خضعت لرقابة المحتسب ، وهو « ذو رأي وصرامة وخشنونه في الدين »^(٣) .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء كثير من المنشآت الاجتماعية المتنوعة ، مثل الفنادق والخانات والوكالات والأسلحة والخاتمات والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهالى القاهرة أحياناً من جراء عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي ، إلا أنهم عاشوا عيشة مرتاح ، فحرصوا على الإقبال على وسائل التسلية ، والخروج إلى الحدائق العامة ، والرغبة في سماع الموسيقى ، والغناء ، والتلوي بمشاهدة خيال الظل أو مشاهدة نطاح السكباش ومناقرة الديوك^(٤) .

وفي ذلك النشاط الجماهلي قامت المرأة بدور أعظم مما يظن البعض ، إذ تتمتعت بقدر كاف من� الاحترام ، مكنتها من المشاركة في الحياة العامة ،

Schefer : *Le voyage d'outremer*, p. X

(١)

(٢) سعيد عاشر : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٧ ، ٤٨ .

(٣) ابن الأختة : معالم القرية ص ٨ .

(٤) أبو الحasan : النجوم ح ٩ ص ٤٣٦ ، ح ٥ ص ٤١ (طبعة كاليفورنيا)
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٧٤ .

سواء بالخروج إلى الأسواق أو التردد على الحمامات أو طلب العلم بالمساجد^(١).

وكذلك امتازت الحياة الاجتماعية في مصر على عصر سلاطين المماليك بكثرة الأعياد الدينية والقومية، والبالغة في إحياء تلك الأعياد. ففي الأعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتباردون التهنة ويفيرون الولائم ويتصدقون على الفقراء، وفي الغون في اظهار السرور^(٢). وربما جاءت هذه الأعياد مصحوبة ببعض المواكب – مثل الاحتفال بدوران الحمل – وعندهن يخرج الناس من كل مكان للفرجة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حواناتهم بالحرير والخلي.

أما في الاحتفالات القومية مثل الاحتفال بوفاة النيل أو تولية سلطان جديد، فكان السلطان عادة يشق القاهرة في موكب حافل وقد فرشت الشواطئ بشقق الحرير، وأقام الأمراء القلاع – وهي أقواس النصر – في طريق السلطان، وتضاعفت مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائداً منتصرًا من ميدان الحرب، إذ يبالغ الأمراء والناس في الزينة؛ ويقوم نائب السلطة، باحضار سائر مغاني العرب من أعمال مصر كلها^(٣).

الحياة الدينية :

شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك نشاطاً دينياً يسترعى الانتباه، وبخاصة بعد أن أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ومقصد المسلمين جميعاً في المشرق والمغرب، وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع في أوائل

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٢٧ — ١٤٠ .

(٢) المخاوى : التبر المسبوك ص ١٣ — ١٤ .

(٣) المقرنزي : السلوك ح ١ ص ١٣٨ .

عصر المماليك، على الرغم من الجهد الذى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لتبسيط مذهب السنة عقب إسقاط الخلافة الفاطمية. ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المختلفة عن العصر الفاطمى في مصر ، حتى خفت آثار التشيع بالبلاد فى صورة واضحة فى أواخر ذلك العصر^(١). من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) من تحريم أي مذهب عدا المذهب السنن الأربعة ، بحيث لا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد المذاهب السنن الأربعة^(٢).

وخير ما يدل على إتساع دائرة النشاط الدينى في عصر سلاطين المماليك كثرة المنشآت الدينية التي أقيمت في ذلك العصر . وما زالت القاهرة وكثير من المدن في مصر والشام تنبلي بالجوانب الجميلة الرائعة التي تنسب إلى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك بأكثر من ألف مسجد^(٣) . وقلما نجد سلطانا من سلاطين المماليك لم يتوسّس مسجداً أو أكثر ، بل يقال أن الناصر محمد وأمراءه شيدوا وحدهم ثمانية ربعين مسجداً^(٤) . ولم تستخدِم المساجد في ذلك العصر في العبادة فحسب ، بل استخدمت أيضاً كمدارس يقصدونها المعلمون والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصف بها الحياة الدينية في عصر المماليك كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه وفد على مصر في القرن السابع المجرى

(١) محمد كامل حسين : التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٣ - ٧٤

(٢) المقريزى : الموعظ والاعتبار ح ٤ من ١٦١ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٤) زيتور شتيبن : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

كثير من مشائخ الصوفية - معظمهم من المغرب والأندلس - مثل أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري والسيد أحمد البدوي - وهم لاء وجدوا في مصر تربة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم^(١). ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها ، فازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله بيناء الخانقاوات ووقف الأوقاف عليها والعطف على الصوفية ومشايخهم . من ذلك ما نسمعه عن السلطان برقوق من أنه رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عدداً من الصوفية وقرر لهم مرتبات وفيه^(٢) أما عامة الشعب المصري في عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية إيماناً راسخاً، فقصدوهم لمشاركتهم في أذكارهم أو لقضاء حوائجهم ، حتى وصفوا الصوفية بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »^(٣) .

ولا شك في أن ازدياد تيار التصوف في مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثره الخطير في الحياة الاجتماعية والفكرية . وينادي بعض المفكرين بأن المتصوفة صبغوا القيم والمشاعر العليا بصفة الزهد، والرغبة عن الدنيا ومتاعها والإتجاه نحو الآخرة والعمل لها . وترتب على هذه الإتجاهات نشر روح الإستكانة والقناعة بالقليل والتذلل للحكام بين عامة الناس ، مما ظلت بقاباه في نفوس الكثيرين أمداً طويلاً .

الحياة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية في مصر على عصر سلاطين المماليك إزدهاراً

(١) سعيد عاشور : الجمجم المצרי ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) أبو الحasan : النجوم الظاهرة ج ٥ ص ٦٠٠ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٤١ - ٤٢ ، التوزيرى ، السكندرى .

الإمام بالأعلام ج ٢ ص ٥١٧ - ٥١٨ .

واسعاً ، فقدت البلاد حوراً لنشاط علمي متعدد الأطراف . ويرجم السبب في ذلك إلى مأصناب أنحاء العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول وفي الأندلس على أيدي الصليبيين ، فضلاً عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدي الصليبيين والمغول جميعاً . وفي وسط تلك الغمة التي ألمت بالوطن العربي منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) لم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً عربياً آمناً تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التي غدت مركزاً للخلافة العباسية ، « وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء »^(١) .

والغريب أن المماليك – وهم من أصول غير عربية متعددة – كان لهم أثر واضح في ازدهار النشاط العلمي في مصر . من ذلك ما نسمعه عن ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس بسماع التاريخ^(٢) ، وحرص البعض الآخر – مثل الغوري – على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها ، بل المشاركة في المسائل العلمية التي تثار في تلك المجالس^(٣) . أما أمراء المماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لقراء الطلبة والمدرسين لهم^(٤) .

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك ، هو عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب في جميع أنحاء العالم مشحونة ببنات الخطوطات التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر ، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة ... وغيرها .

(١) السيوطي ؛ حسن الماخراجم ٢ ص ٨٦ .

(٢) أبو الحسان ؛ النجوم ج ٧ ص ١٨٢ .

(٣) عبد الوهاب عزام ، مجالس الغوري ص ٤٩ .

(٤) سعيد عاشور ؛ المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٢ .

فإذا أضفنا إلى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التي طبعت من تراث العصر المماليكي ، والكتب التي نقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، أدركنا أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا علميا فائضا لم تشهد مثله في عصر آخر من تاريخها الوسيط .

في الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريرهم للأديباء ، هذا وإن كان يؤخذ على الأدب شعرا ونثرا ضعف اللغة الفصحى نتيجة الإختلاط بالأعجم ، فضلا عن دخول كثير من الألفاظ العامية . وقد اشتهر من شعراء مصر في ذلك العصر البوصيري المصري صاحب *البردة* وتعرف باسم *السكوناكب الدرية* في مدح خير البرية، وهي في ٦٢ بيتا؛ وقد توفي سنة ٥٦٩٥ (١٢٩٦ م) ^(١). وتوفي في نفس هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعراً كثيراً في النظم صحيح المعانى عذب التورية عارفاً بالبديع ^(٢). أما شهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٥٧١٠ (١٣١٠ م) فكان برازاي يعمل في قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان في خمسة أبواب ، وأجاد في الموشحات وأمتاز شعره بالظرف وخففة الروح ^(٣) . وهناك ابن نباته المصري المتوفى سنة ٥٧٦٨ (١٣٦٧ م) وقد نبغ في النظم والنثر ، ومثله ابن أبي حيحة نزيل القاهرة الذي توفي سنة ٥٧٧٦ (١٣٧٤ م) ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكي مثل علي بن سودون البشغوى المتوفى سنة ٥٨٧٨ (١٤٧٣ م). بل لقد كان السلطان قانصوه الغوري نفسه المتوفى سنة ٥٩٢٢ (١٥١٦ م) شاعراً ، وله ديوان غير منشور حتى الآن ^(٤) .

أما الأديباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، منهم القلقشندي المتوفى

(١) السيوطي ؛ حسن المعاشرة ، ح ١ ص ٢٤٥ ، ح ٢ ص ١٤٣ .

(٢) السكتبي ، فوات الوفيات ح ٢ ص ١٠٧ ، أبو الحasan ؛ النجوم ، ح ٨ ص ٨٣ .

(٣) السكتبي ، فوات الوفيات ح ٢ ص ٤٨ .

(٤) السكوناكب الساورة ح ١ ص ٢٩٤ .

سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وله كتب عديدة منها موسوعة صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وشمس الدين النواجji المتوفى سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م)، وقد نسب إلى نواجji إحدى قرى الغربية، وله كثير من الآثار الأدبية شعراً ونثراً، منها حلبة الكميّت، وهو كتاب في الخزف وما يقال فيها والنديماء وبجالسهم وأدابهم . . . وختمه بفصل في التوبة وذم الخنزير^(١).

وفي ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها ، وظهر من علماء اللغة كثيرون على رأسهم ابن منظور المصري المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وله كثير من المؤلفات، على رأسها لسان العرب ، المعجم الشهير^(٢) . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) والدماميني السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

على أن أبرز العلوم في عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضيّخماً . منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وقد كتب كتاباً في سيرة السلطان الظاهر بيبرس وآخر في سيرة الأشرف خليل بن قلاون. وهناك أيضاً من كتاب "سير ابن سيد الناس" المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) والقسطلاني المتوفى سنة ٥٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وغيرهم كثيرون^(٣) . ولم يقف الأمر عند حد النشاط في كتابة السير الفردية بل ظهر في عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلkan صاحب وفيات الأعيان ، وقد توفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)؛ والأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) صاحب كتاب الطالع السعيد

(١) السيوطي : حسن المعاشرة ، ج ١ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن شاكر السكري : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آدب اللغة العربية ج ٣ ص ١٧٠ .

الجامع لأسماء نجابة الصعيد، وابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨ م) صاحب كتاب الدرر السكينة في أعيان المائة الثامنة^(١) ، وشمس الدين السخاوي المتوفى سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء الامع في أعيان القرن التاسع ، والسبكي صاحب كتاب طبقات الشافعية .

وهناك فريق من مؤرخي ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتبًا عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٥٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ، وابن دقاق المصري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الإنصار بواسطة عقد الأمصار^(٢) ، وتقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٥٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) صاحب كتاب الموعظ والاعتبار وكتاب السلوك ، وأبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو من أصل عاليسي ومن كتبه النجوم الظاهرة والمنهل الصافي^(٣) ... وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عدداً ، منهم يبرس المنصورى وهو أحد أمراء المماليك توفي سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وله كتاب زبدة الفكرة ، وبدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وغيرهما خارج مصر كثيرون .

أما في علوم المخابرات والسياسة والإدارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٥٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) كتاب التحفة السننية في أسماء البلاد المصرية ويشتمل على إحصاءات إدارية وخارجية عن أرض مصر . وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرمة المصري الشافعى — محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٦

(٢) شذرات الذهب ج ٧ ص ٨٠

(٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون المصريون في القرن التاسع المجري .

(١٣١٠ م) كتاب « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان و ولة الأمور و سائر الرعية » . و كتب حسن بن عبد الله العباسى كتاباً للملك المظفر السلطان بيبرس المنصورى ، و اسمى كتابه آثار الأول في تدبیر الدول ، رتبه على أربعة أقسام : في الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفي أحوال الملك في ذاته مع خواصه وخدمه ، وفي الأمور الخالصة بالملك و خواصه وحاشيته ، وفي الحروب وشروطها وما يتعلق بها براً وبحراً . ويحوى هذا الكتاب كثيراً من الفوائد السياسية والاجتماعية والإدارية .

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية في عصر سلاطين المماليك ، هي الأقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة ، التي تحوى الموسوعة الواحدة منها كثيراً من المعلومات المتعددة المتباينة . وبالإضافة إلى كتاب صبح الأعشى في صناعة الأنسنة للفقيه شندي وهو الذي سبق أن أشرنا إليه ، هناك كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للتويري المتوفى سنة ٥٧٣٢ (١٣٣٢ م) وهو موسوعة كبيرة تقع في نيف وثلاثين مجلداً قسمها مؤلفها إلى خمسة فنون ، الأول في السماء والآثار العلوية ، والثاني في الإنسان وطبائعه ، والثالث في الحيوانات الأخرى ، والرابع في النباتات على اختلاف أشكاله ، والخامس — وهو أكبرها وأهمها — في التاريخ (١) . أما ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٥٧٤٨ (١٣٤٧ م) فقد كتب موسوعته الشهيره مسائله الأبعاد في ممالك الأوصار وتقع في بضعة وعشرين مجلداً تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها . هذا اضلاعما كتبه السيوطي المتوفى سنة ٥٩١١ (١٥٠٥ م) وغيره من عديد المؤلفات التي يضيق البحث عن ذكرها كلها (٢) .

(١) السبكي ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٧٧ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٠ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٤٤ — ٢٥٠ .

وكان للعلوم الإسلامية نصيبها في تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب في الفقه مثل خليل بن أسحق المالكي المصري المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) وتقى الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب في التصوف مثل ناج الدين بن عطاء الإسكندرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م)

وأخيراً ، فقد كان للعلوم التطبيقية والطبيعية حظها من كنابيات عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب في الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طبيغا القاهري المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ، ووجد من كتب في الزراعة والفلاحة مثل طبيغا الجركسي وهو من أهل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) ؛ وأشهر من كتب في علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميري المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبير ، وقد توسع فيه في وصف كل حيوان وخصائصه ، بالإضافة إلى ماجاه في الحديث والأشعار والأمثال بشأنه ، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمة他的 العلمية البحثية^(١) .

وثمة مظاهر آخر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك ، هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها . أما المدارس فكانت بمبادرة معاهد التعليم العالي — أشبه بالجامعات اليوم — يختص كل مدرسة منها المدرسوون وتتحقق بها خزانة كتب كبيرة ، ويؤمها الطلاب لتهصيل العلم والمعرفة^(٢) . وقد حرص سلاطين المماليك على تحاكات سلاطين الآیویین في إنشاء عدد كبير من المدارس مثل المدرسة الظاهرية التي أنشأها الظاهر بيبرس والمدرسة الناصرية التي أنشأها الناصر محمد بن قلاون ، وعينوا تلك المدارس المدرسين والمعبدين

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ح ١ ص ٢٠٧ ، الفسوباللامع للستخاوي ح ١٠ رقم ٢٠٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ١ ص ٤٦٢ ، ح ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧

والموظفين ، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدرًا من الحياة الماءدة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين ^(١) .

وإذا كان التعليم العالي قد وجد قسطاً كافياً من العناية في المدارس ، فإن التعليم الابتدائي نهضت به المكاتب التي أنشأها عدد كبير منها في عصر سلاطين المماليك . ويبدو أن الغرض الأول من إنشاء المكاتب في ذلك العصر كان تعليم الأيتام المسلمين ، الأمر الذي دفع طلاب الشواب إلى إنشاء مزيت من المكاتب ، وحبس الأوقاف عليها للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم ^(٢) . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف ، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة ، لذلك اشترطت في المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف ^(٣) .

الإدارة ونظم الحكم والقضاء :

تزعيم دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث ، وإنما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مالهـ لتولى ذلك المنصب . فإذا توفى السلطان القائم أتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه في الحكم . وربما رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه ، فيلجأ في تلك الحالة إلى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا إعتقداً من المماليك في أحقيـة ذلك الـبن ، ولكن بكل مؤقت حتى

(١) التوپری : نهاية الأربع ح ٤٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها

(٢) المقریزی : المـواعظ ح ٣ ص ١٦٣

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٠ — ١٥٢

ينجلي الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء عرش السلطة بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع في الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض الأمراء وأملا المناصب الكبرى في الدولة وتوزيع الأقطاعات ؛ إلا أنه لم يستغف في أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة في مهام الأمور ، وبخاصة في المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد الصلم . ولذلك وجد في عصر المماليك مجلس المشورة الذي كان يعقد برأسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضويته أتابك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربع وأمراء المثنين وعددتهم أربعة وعشرين أميراً . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، وإنما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته^(١) .

وقد وجد إلى جانب سلطان المماليك عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته في شئون الحكم والإدارة . وعلى رأس هؤلاء الموظفين الكبار يسكننا أن نعدد : —

١ - نواب السلطنة : وجد نائب للسلطان بالقاهرة ، هو مساعد السلطان الأيمن في تصریف شئون الدولة ، ويشتراك معه في توزيع الأقطاعات ومنح الألقاب الإمارية . وإذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان في حضوره صار لقبه « نائب الحضرة » أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا في غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب في البلاد الشامية - في دمشق وحلب

(١) ابن شاهين : زينة كشف الممالك من ١٠٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ٤ من ١٧-١٦

وطرابلس وحماء وصفد والكرك . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق
الذى أطلق عليه « نائب الشام »^(١) .

٢ — الأتابك ؛ وهو القائد العام للجيش المملائكي ، وقد أتاحت له
وظيفته التعم بنفوذ كبير في الدولة .

٣ — الوزير ، وقد تضاملت وظيفته في عصر المماليك نتيجة لوجود
نائب السلطنة ، بحيث لم تتعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب
السلطنة والأشراف على شئون الدولة المالية .

أما الإدارة المحلية في المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد
كبير من الولاية اختياراً من بين الأمراء . وهناك مدينة واحدة في مصر
— وهي مدينة الإسكندرية — عين لها نائب سلطنته سنة ٥٧٧ هـ (١٢٦٥ م) .
ويبدو أن الخطر الصليبي الذي تمثل في حملة بطرس لوز جنان ملك قبرص
على الإسكندرية في تلك السنة كان له أثر في ذلك الإجراء الإداري .
أما القاهرة فكان لها ول يشرف على شئونها ويتعقب المفسدين فيها ويحمي
أهلها من الأشرار والعابثين ، وبالجملة فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ
القاهرة اليوم . كذلك وجد في الوجهين البحري والقبلي ولاة قاموا بحكم
الأقاليم والأعمال ، وكان عددهم عشرة في الوجه البحري وثمانية في الوجه
القبلي . وفي عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين
البحري والقبلي مهمته الإشراف على جميع الولاية والعمال الذين يقومون
بإدارة شئون الوجه التابع له^(٢) .

وقد اعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم على مجموعة من الدوائر الكبيرة .

(١) الممرى ، التعريف ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦ — ١٧ .

(٢) القلقشندي صبح الأعشى ح ٤ ص ٦٤ .

التي ضمت عدداً ضخماً من الموظفين لإدارة مراقبة الدولة المتنوعة . وأهم هذه الدواوين هي : -

١ - ديوان الجيش . ومهمنته الإشراف على طوائف الجنود ، وتوزيع الأقطاعات عليهم .

٢ - ديوان الانشاء ، ومهمنته تلقى الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها ، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد ، وهي إدارة ضخمة في عصر المماليك تولت شئون البريد البري والجوى^(١) .

٣ - ديوان الأحباس ، أى الأوقاف ؛ ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا ... كما يشرف على الأراضي والعقارات المحمولة عليها .

٤ - ديوان النظر ، وقد اختص بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على ميراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقداً في حين صرف الجانب الآخر عيناً من غلات ولحوم وتوابيل وسكر وشع^(٢) ...

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانباً كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم . وكان أهم تطور حدث في النظام القضائي في عصر المماليك هو ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٥ م) من تعين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين أن يقتصر ذلك المنصب على قاضي قضاة واحد

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى من ١٠٤ وما بعدها ، ج ١ ص ١١٥
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشرد : الضرائب المماليكى في مصر والشام ص ٤٥٢.

هو الشافعى^(١) . وقد قام القضاة في ذلك العصر بدور هام في المجتمع إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية . وكانت جلسات المحاكم تعقد في دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تعقد عادة في المساجد .

وقد وجدت محكمة عليا تعقد في دار العدل برئاسة السلطان وعرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر في القضايا التي اختصت السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التي يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادى ، أو تلك التي تنشأ بين الحكم والحاكمين . أما رجال الجيش ، فكان لهم « قضاة العسكر » بهمختصون بشئون الجنود ليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون في القضايا الناشئة بين العسكر والمدنيين ، وقد جرت العادة أن يصبح قضاة العسكر السلطان في أسفاره^(٢) .

الجيش والبحرية :

إذا حاول أن يعبر الباحث على صفة بارزة لدولة سلاطين المماليك في مصر فلن يجد خيراً من أن يصف هذه الدولة بأنها دولة إقطاعية حرية . فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة في اقتناصهم نبعـت من فكرة أساسية واحدة هي تكوين فتنة من المغاربين الأشداء وإعدادهم ليكونوا أدراعا حاماً لأسانتهم الذين قاموا بشرائهم وتعهدوهم بالتربيـة . ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ حتى يشرع في تعليمـه فنون الحرب ، من الرى بالنشاب واللعبة بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية^(٣) ، وعندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ٤ ص ٣٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ح ٢ ص ٥٢٤ .

التعليمية ينقل إلى الخدمة ويرتأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصعد من الأمراء^(١).

وهو في أول الأمر ينقضى جامكية—أى مصر وفا— يتدرج من ثلاثة دناءير إلى خمسة إلى عشرة ، ولكنه بعد ذلك ينقبل من الجامكيات إلى الإقطاعات والتى أمرت العشرات ثم إلى الطليخات ، ومنهم من ينصل إلى تقدمة الألوف وإمرة المئين . وهو إذا كان ملوكاً فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وزمام نصف قرية ، أما إذا أصبح أميراً فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وعشر قرى^(٢) .

وتولى السلطان بنفسه توزيع الإقطاعات في معظم الحالات ، فإذا تقدم إليه المملوك ، سأله عن إسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارساً^(٣) . فإذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه إقطاعاً ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال تحدد حدود إقطاعه ، ثم تخرج الوثيقة النهائية للإقطاع من ديوان الإنشاء . وعلى هذا فقد كان الإقطاع فى عصر المالكية يرتبط بـ ديوان الإقطاع . قوياً متيناً بـ ديوان الجيش ، حتى لقد أطلق على هذا الديوان إسم ديوان الإقطاع . وعبر القلقشندي عن ديوان الجيش بأنه مظنة الإقطاع ، أى سجله ومركته ، فقال مانصه «إعلم أن مظنة الإقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الإنسا ، وما يكتب فيه من ديوان الإنسا هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش^(٤) ». وهكذا ارتبط الجيش بـ فكرة الإقطاع فى عصر المالكية ، الأمر الذى جعلنا نختار صفة الإقطاع الحربي لـ نصف بها تلك الدولة .

وإذا كان ديوان الجيش يشرف على شئون الجيش فى عصر المالكية ،

(١) المقرizi : المواظ ، ح ٢ ص ٣٤٧ .

Paliak ; Feudalism in Egypt. (٢) القلقشندي : صبح الأعشى ح ٤ ص ٥٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ح ٩ ص ٥١—٥٢ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ح ١٣ ص ١٥٣ .

فإنه رويعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظرا على درجة كبيرة من الكفاية ، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء ، أهمهم صاحب ديوان الجيش وينوب عن ناظر الجيش في حالة غيابه ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد مرتبا الجندي وحفظ بيان بها في سجلاته ، في حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجندي موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوف الرزق . وجميع هؤلاء الموظفين رويعى فيهم الكفاية المتأهله ، وأختير لمساعدتهم بمجموعة من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة^(١) .

وقد تكون الجيش في عصر سلاطين المماليك من ثلاثة فرق أساسية ، الفرقـة الأولى عبارة عن طائفة الممالـك السلطانية — أى مـالـكـ السـلطـانـ القـائمـ بالـحـسـكـ ، وقد وصفـهمـ القـلقـشـنـدـىـ بأنـهـمـ دـاعـظـ الـاجـنـادـ شـأـنـاـ وـأـرـفـعـهـمـ قـدـرـآـ وـأـشـدـهـمـ قـرـبـآـ وـأـوـفـرـهـمـ إـقـطـاعـاـ ، وـمـنـهـمـ تـؤـمـرـ الـأـمـرـاءـ رـتـبـةـ بـعـدـ رـتـبـةـ^(٢) . وـالـفـرـقـةـ الثـانـيـةـ تـشـمـلـ طـائـفـةـ مـالـكـ الـأـمـرـاءـ ، أـىـ الـذـينـ أـشـتـرـاهـ الـأـمـرـاءـ الـمـحـيطـونـ بـالـسـلـطـانـ ، كـلـ حـسـبـ درـجـتـهـ وـرـتـبـتـهـ ، وـتـعـهـدـ وـهـمـ بـالـرـعـاـيـةـ ، وـمـنـ هـؤـلـاءـ كـانـتـ تـكـونـ الـوـحدـاتـ الـخـرـبـيـةـ الـتـيـ تـرـاقـقـ السـلـطـانـ فـيـ حـرـوبـهـ ، وـكـلـ وـحدـةـ تـتأـلـفـ مـنـ أـمـيرـ عـلـىـ رـأـسـ مـالـكـهـ . وـأـخـيـرـ آـتـائـيـ الفـرـقـةـ الثـالـثـةـ وـهـمـ طـائـفـةـ أـجـنـادـ الـحـلـقـةـ ، وـهـمـ مـالـكـ السـلـطـانـ وـالـأـمـرـاءـ السـابـقـينـ وـأـلـادـهـمـ الـذـينـ اـحـتـرـفـواـ الـجـنـديـةـ وـأـصـبـحـواـ بـمـثـاـبـةـ جـيشـ ثـابـتـ لـلـدـوـلـةـ لـاـيـتـغـيـرـ بـتـغـيـرـ السـلـطـانـ ، وـيـشـرـفـ عـلـىـ كـلـ أـلـفـ مـنـهـمـ وـقـتـ الـحـربـ أـمـيرـ مـاـهـةـ مـقـدـمـ الـفـ ، أـىـ أـمـيرـ لـهـ الـحـقـ فـيـ اـمـتـلـاكـ وـشـرـاءـ مـاـهـةـ مـلـوكـ لـهـمـسـهـ وـيـقـودـ فـيـ وـقـتـ الـحـربـ أـلـفـ جـنـدـىـ مـنـ أـجـنـادـ الـحـلـقـةـ^(٣) .

وـإـذـاـ نـحـنـ تـكـلـمـنـاـ عـنـ الجـيـشـ فـعـصـرـ سـلـاطـنـيـنـ المـمـالـكـ ، فـإـنـهـ يـنـبـغـىـ أـنـ

(١) المـالـىـ : للقصد الرـفـيعـ ، صـ ١٣٦ـ .

(٢) الـقـلـقـشـنـدـىـ : صـبـحـ الـأـعـشـىـ جـ ٤ـ صـ ٧٥ـ .

(٣) الـمـعـرـىـ ، مـسـالـكـ الـأـبـصـارـ ، جـ ٥ـ صـ ٢٦٦ـ ، وـالـمـرـجـ الـسـابـقـ .

نذكر آملاً ذلك العصر ، ونضع نصب أعيننا الإنتصارات التي حققها الجيوش المماليكية في مختلف الجهات . وحسب الجيش في عصر سلاطين المماليك أنه طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وأنزل الهزيمة بال بتار في عين جالوت ، ووقف بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للعدوان على الشام ، ودمر مملكة أرمينية الصغرى في قيليقية ، وغزا بلاد الروبة وأخضم ملكتها . ومن البدوي أن جيشاً من الجيوش لا يستطيع تحقيق هذه المكاسب الضخمة إلا إذا توافر له من الإمكانيات وحسن التدريب معاً عليه ذلك .

ونجد فعلاً في المصادر المعاصرة كثيراً من الأوصاف التي تعطي صورة واضحة لدقة تنظيم الجيش المماليكي ، فالسلطان لا يقدم على حرب عادة إلا بعد إستشارة « مجلس الجيش » ، الذي يضم كبار الأمراء فضلاً عن الخليفة وقضاة القضاء الأربع . فإذا تقرر الحرب جمع الجنود وأقسموا بين الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خانة أبوابها لتوزيع السلاح على المحاربين . أما عن نظام الجيش وقت المعركة فكان يقوم على أساس ترتيب الجنود على هيئة صفوف متراصة تكون أقسام الجيش الثلاثة - وهي القلب والميمنة والميسرة - فضلاً عن المقدمة ، ويكون القائد العام للحملة عادة في قلب الجيش ، وربما في مقدمةه ليستثير روح الإقدام والشجاعة في الجنود . وكانت الطبول والموسيقى جزءاً أساسياً في الجيش المماليكي ، فكانت تحمل على عشرين بغلة ، ويعتمد عليها في تنظيم المعركة وإعطاء الإشارات بيده القتال .^(١) هذا فضلاً عن الأعلام والرايات التي كانت تتقدم الجيش ويلتف حولها كل قسم من أقسامه .

وأخيراً ، فإنه يلاحظ أن المماليك كانوا فرساناً قبيل كل شيء ، واعتمد

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ح ٣ ص ٤٧٥ .

نظامهم بصفة أساسية على الفروسية . لذلك كان الجيش المماليك يتأنف أساساً من الفرسان ، الأمر الذي جعلهم يهتمون بالخيول اهتماماً بالغاً ، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليهما وعلى أدواتهما وعددها كاللجم والسروج وغيرها ، فضلاً عن الإنفاق بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيول .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على المماليك أنهم أهملوا جانب البحر والأساطول . وحسب دولة المماليك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها ملكت بر مصر وبر الشام ، وأطلقت على البحرين الأبيض والأحمر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن آية دولة تقوم في أرض مصر لابد وأن ترعى شؤون الأسطول لتؤمن نفسها وتحمى شواطئها الطويلة الممتدة شمالاً وشرقاً .

وإذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الأسطول بعد صلاح الدين – كما سبق أن أوضحنا في الباب السابق – فإن الظروف التي قامت فيها دولة المماليك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) ، وهي حملة بحرية أتت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر في الاحتفاظ بصلاتها بالقوى المسيحية المظاهرة لها . والمماليك هم أول من أزال المزعنة بلويس التاسع وجندوه في النصورة ثم في فارسكور ، الأمر الذي أكسبهم مكانة ساعدتهم في القضاء على دولة سادتهم بنى أيوب وإقامة دولة تحمل إسمهم في التاريخ . لذلك كان من الطبيعي أن يدرك سلاطين المماليك الأوائل – وهم الذين شاركوا في محاربة لويس التاسع أيام أن كانوا مجرد أمراء – خطورة الأسطول بالنسبة لأمن العباد وسلامة البلاد .

وهكذا ما كاد السلطان الظاهر بيبرس يرتقي دست السلطة حتى « نظر

فأمر الشوانى الحرية واستدعى رجال الأسطول . . . ومنع الناس من التصرف فـ الألخشاب وتقديم بعمارة الشوانى في ثغرى الاسكندرية ودماط وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها . واستدعى شوانى التغور إلى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطارائد ، فإنما كانت عدة كثيرة . . .^(١)

وسرعان ما صدق ظن بيبرس ، إذ أخذت دولة المماليك في مصر والشام تحس إحساساً شديداً بالضغط البحري الذى تمارسه مملكته لوزجانان الصليبية فى قبرس ، سواء من ناحية مساعدة البيكایا الصليبية بالشام أو من ناحية قطع الطريق على السفن الإسلامية فى عرض البحر^(٢) . وما كاد بيبرس يطمأن إلى قوة أسطوله حتى عزم على تأديب قبرس وملوكها ، فأرسل إليها حلة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة بقيادة الرئيس البحري ابن حسون . غير أن ريخا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطئ قبرس فخطمت منها أحد عشر شيئاً . وعندما أرسل ملك قبرس يعيّب على بيبرس انكسار سفنه ، رد عليه بيبرس برسالة طويلة جاء فيها «أنت خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول»؛ وفي هذه الإشارة إعتراف صريح بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها وجيوشها البرية لا أساطيلها البحريّة^(٣).

ومع ذلك فإن بيبرس لم يهم شأن الأسطول وإنما اهتم بالسكرة وسعى بسرعة لتعويض الخسارة ، فأمر بإنشاء عشرين شيئاً ، وأحضر خمسة شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ، ولزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم في مدة شهر الحرم سنة سبعين وستمائة إلى أن تنجزت ..^(٤)

(١) المقريزى : المواعظ ح ٢ ص ١٩٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والخروب الصليبية ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) المقريزى : المواعظ ، ح ٢ ص ١٩٤ .

ولاشك في أن الأسطول المماليكي كان له دور كبير في مساندة القوات البرية التي قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقاء الصليبية، وخاصة أن هذه البقاء الكبرى - وهي انطاكية وطرابلس وعكا - كانت كلها موانئ بحرية. وإذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو صاحب الفضل في الاستيلاء على آخر هذه البقاء وهي مدينة عكا سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩١ م) ، فإن ذلك جعل الأشرف أكثر إحساساً بأهمية الأسطول لدولته . لذلك لم يكن عجياً أن يهم السلطان الأشرف خليل اهتماماً خاصاً بأمر الأسطول « فنزل إلى (دار) الصناعة واستدعى الرئيس ، وهياً جميع ما تحتاج إليه الشوانى ، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة وشحذها بالعدد وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وأليسهم السلاح ... »^(١).

ومن حقيقة كبرى ، هي أن طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلاد) ضاعف من أهمية العامل البحري في شرق البحر المتوسط . لأنه جعل الحروب الصليبية تحول من معارك برية إلى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للانتقام من سلطنة المماليك سوى تهديدها في نشاطها التجارى ، فاستغلت موقع جزيرة قبرص في قطع الطريق على السفن التجارية الإيطالية التي رفض أصحابها الإذعان لتعاليم البابوية واستمرروا بنشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك^(٢). هذا إلى أن ملك قبرص قام سنة ٦٧٧ هـ (١٣٦٥ م) بحملة صليبية جريئة على الإسكندرية دمر فيها المدينة وأتى من أعمال الوحشية ما استثنى نفوس المسلمين جميعاً^(٣) . وهكذا تحولت الحروب الصليبية في القرنين الثامن

(١) المرجع السابق : ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١١٩٢ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية من ٥٧ و ما بعدها .

والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) إلى حروب بحرية، وخاصة بعد أن دخلت رودس في حلبة هذه الحروب ودأب الفرسان الاستناريين برودس على تهديد دولته المماليك وتجاراتها في البحر^(١).

وهنا قام الأسطول المملوكي بعمل خالد في التاريخ، إذ أرسل السلطان الأشرف برسباي ثلاث حملات سنة ٨٢٧، ٨٢٩، ٨٢٨ (١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٦ م) لغزو قبرس، ونجح فعلاً في اخضاع الجزيرة في الجملة الأخيرة. وتم أسر ملكها جانوس، وعاد الأسطول المملوكي بحمل مئات الأسرى وعلى رأسهم الملك نفسه حيث تم استعراضهم في شوارع القاهرة^(٢).

وبعد قبرس جاء دور رودس، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ (١٤٤٣، ١٤٤٠، ١٤٤٤ م). ونجح في تأدinya وإن لم يستطع إخضاعها لسلطنة المماليك كا حدث في حالة قبرس^(٣).

وهكذا ظل الأسطول في عصر سلاطين المماليك يقوم بدورة كاملاً في الدفاع عن البلاد ومحاجة الأعداء حتى نهاية تلك الدولة. وفي أواخر عصر المماليك ظهر خطير البرتغاليين واضطرا على الشرق بعد أن وصلوا إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا، الأمر الذي مكنهم من تهديد البلاد الإسلامية في جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر، فضلاً عن تهديد سلطنة المماليك في أعز ماتملك، أعني احتكار التجارة بين الشرق والغرب. وفي المعركة الحتمية بين المماليك والبرتغاليين، أدرك السلطان قانصوه الغوري

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ح ٢ ص ١٢٣٢ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ وما بعدها.

(٣) سعيد عاشور : مصر المماليكى في مصر والشام ص ١٦٩ وما بعدها.

أنها معركة الهقاء، ففرع إلى الأسطول يحاول تدعيمه في البحر الأحمر، حيث بني عشرين سفينة كبيرة زودت بالمساكن النحاسية والخديدية وأخذت دار الصناعة في مصر تصنع السفن لتحمل أحرازها مفككة على ظهور الإبل حيث يجري تجميعها وتركيبها على شاطئ البحر الأحمر. وكان ذلك في المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) عند ما قام الغوري بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها، حتى قبل أن نفقات بناء الأسطول في البحر الأحمر تتجاوز أربعين ألف دينار. ولكن عوامل الضعف التي أخذت تختبر في عظام دولة المماليك بعديد أحرازها لم يسلم منها الأسطول، فلم يستطع الأسطول المماليكي الصمود أمام البرتغاليين في موقعة ديو البحري سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) وحلت به المهزيمة، وعاد أمير البحر حسين السكردي إلى مصر «مع فلول أسطوله».^(١)

هذا عن النشاط البحري في عصر سلاطين المماليك، أما أنواع السفن التي استخدمت في العصور الوسطى في الأسطول الإسلامية فعديدة، كل نوع منها مخصوص لغرض معين. ونكتفي بالإشارة السريعة إلى أهم أنواع السفن، وهي الشوان والحراريق والطرادات والأغرفة والبطس والمسطحات.

أما الشوان ومفرداتها شيئاً فشكانت أكثر السفن استعمالاً في الأسطول الإسلامية، وهي عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع، تستعمل للدفاع والهجوم، وتجهز أيام الحرب بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين، ويحذف الشيني بمائة مجذاف^(٢).

أما الحراريق أو الحراقات ومفرداتها حرقة، فهي سفن حربية كبيرة تنقل

(١) حقائق الأخبار عن دولة البحار ج ٢ ص ٣٦ .

(٢) المقريزى : المواقظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الإسلامي ص ٤

فـ حجمها عن الشواوى ، سميت حراريق لأنـه كان بها مرافق النيران مثل النار الأغريقية وغيرها ، وكانت تلقى النـار منها على سفن العدو وأهدافه فتحرقـا^(١) .

وكانت الطرادات ومفردها طراد ، سفن صنفـرـة سريعة السـرـكـرـ والـفـرـ على عباب البحر ، وتـسـتـخـدـمـ عـادـةـ فـحـلـ المـبـيـولـ فـيـحـلـ الـطـرـادـ الـوـاحـدـ ماـ يـتـراـوـحـ بـيـنـ أـرـبعـينـ وـثـعـانـيـنـ فـرـساـ^(٢) .

أما الأغـرـبةـ وـمـفـرـدـهـاـ غـرـابـ فـسـمـيـتـ كـذـالـكـ لـأـنـ رـأـسـهـ يـشـبـهـ رـأـسـ الغـرـابـ أوـ الطـائـرـ وـتـمـثـلـ فـيـ المـاءـ الطـيـرـ فـيـ الـهـوـاءـ .ـ وـالـغـرـابـ يـحـمـلـ الغـزـاءـ وـيـسـيرـ بـعـدـ مـنـ الـجـادـيفـ يـلـغـ مـاـئـةـ وـمـائـيـنـ مـجـداـفـاـ .ـ وـمـنـ حـصـائـصـهـ أـنـهـ كـانـ مـزـودـاـ بـجـسـرـ مـنـ الـخـشـبـ يـهـبـطـ عـلـىـ مـرـكـبـ الـعـدـوـ وـيـهـرـ عـلـىـ ظـهـورـهـ الجـنـدـ فـيـقـاـ تـلـونـ بـالـأـسـالـيـبـ الـبـرـيـةـ^(٣) .

ثمـ تـأـتـىـ الـبـطـسـ وـمـفـرـدـهـاـ بـطـسـةـ ،ـ وـهـىـ سـفـنـ كـبـيرـةـ الـحـجـمـ ،ـ تـسـيرـ الـوـاحـدـةـ بـعـدـ مـنـ الـأـشـرـعـةـ يـلـغـ أـرـبعـينـ شـرـاعـاـ ،ـ وـهـىـ أـشـبـهـ بـالـنـاقـلـاتـ الـضـخـمـةـ فـتـسـعـ الـوـاحـدـةـ لـعـدـدـ مـنـ الـجـنـدـ يـصـلـ إـلـىـ سـبـعـانـيـةـ ،ـ فـضـلـ عـنـ الـحـارـبـيـنـ وـالـأـسـلـعـةـ وـالـذـخـيـرـةـ وـالـغـلـالـ وـالـمـيـرـةـ .ـ وـهـاـ أـسـطـحـ عـالـيـةـ وـطـبـقـاتـ مـتـعـدـدـةـ^(٤) .

أما المسـطـحـاتـ وـمـفـرـدـهـاـ مـسـطـحـ ،ـ فـنـوـعـ مـنـ أـكـبـرـ سـفـنـ الـأـسـطـوـلـ الـإـسـلـامـيـ ،ـ سـمـيـتـ كـذـالـكـ لـأـنـ هـاـ سـطـحـ ،ـ وـهـىـ كـبـيرـةـ الـحـجـمـ تـشـبـهـ الـبـطـسـةـ

(١) جـوـيلـ خـانـسـكـيـ :ـ الـبـحـرـيـةـ الـمـصـرـيـةـ صـ ١٣١ـ .ـ

(٢) ابنـ مـاتـيـ :ـ قـوـانـيـنـ الـمـدـاوـيـنـ صـ ٤٤٩ـ .ـ

(٣) ابنـ شـنـدادـ :ـ الـنـوـادـرـ الـسـلـطـانـيـةـ صـ ٢٣٠ـ .ـ

(٤) سـمـلـ مـاهـرـ :ـ الـبـحـرـيـةـ فـيـ مـصـرـ إـلـاـسـلـامـيـةـ صـ ٣٧١ـ .ـ

كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف السفن الأخرى منطقة ضحلة المياه يصعب فيها العمل فعندئذ يسكن للمسطحات أن تدارك الأمر لأن غاطسها قليل العمق في الماء^(١).

الفنون :

إذا انتقلنا إلى الفنون في عصر سلاطين المماليك وجدنا ذلك العصر بمثابة العصر الذهبي لـ كثير من الفنون في مصر الإسلامية . وليس من الصعب علينا تفسير هذه الحقيقة ، إذ اشتهر عصر سلاطين المماليك بالثروة والمال نتيجة للمدor الذى قامt به تلك الدولة فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومع المال والثروة يكون البخ و الرغبة في التأق والتفن واقتناه التحف . هذا إلى أن الفنان لا يقنع بالجهد البسيط في عمله ، وإنما يبالغ وهو مطمئن تماماً إلى أنه سيجد من التقدير وحسن الأجر ما يحفزه إلى بذل مزيد من الجهد والعناية .

في العمارة تشهد عمار العصر المماليكي التي تزدان بها القاهرة اليوم من مساجد ومدارس وأضرحة وسبيل وحمامات وبيمارستانات وغيرها على الذوق الجميل والرغبة في الإبداع والتفنن . وحسبنا لفته إلى مدرسة (جامع) السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، بتصميمه العجيب وقبته العظيمة وأبوابه الفخمة وإيواناته العالمية وزخارفه الدقيقة . . . حسبنا لفته إلى هذا البناء بالذات لتأخذ فكرة عن مدى تقدم فن العمارة في عصر سلاطين المماليك^(٢) .

وما يقال عن هذه المدرسة يمكن قوله بصورة أو أخرى عن المدافن

Dozy : Supp. Dict. Ar (١)

(٢) زكي محمد جعین . قرون الإسلام ، ص ٧٣

المماليكية مثل مدفن برقون ومدفن قايتباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة وبجمع قلاون الذى يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان ، وحمام بشتاك الذى لم يبق منه إلا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون خلف مدرسة السلطان الناصر حسن ، ووكالة الأمير قوصون وغيرها من بقايا آثار ذلك العصر . وأمتازت العمارة في ذلك العصر بالعناية بواجهات المساجد وجمال ورشاقة ما ذهلها وخرافة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون ، وبالسقوف المذهبة ... مما أضفي عليها روعة وبهاءً .

أما فن النحت ، فقد استطاع الفنانون في العصر المملوكي ابتكار أشكال في النحت على الخشب أكثر اتقاناً مما كان عليه الوضع في العصر الأيوبي ، فابتكر فنانو عصر المماليك أشكالاً جديدة من المرابع التخiliة ووحدات من الزخارف البناوية ، كما شاعت في ذلك العصر الزخارف الهندسية المكونة من حشوارات صغيرة تتألف غالباً من أشكال سداسية الأضلاع تتنظم حول شكل نجمي في الوسط . واستخدمت في الحفر أخشاب مختلفة الألوان ، طعمت أحياناً بالأبنوس والعظم ^{١١} . ويشهد على رقي فن النحت على الخشب في عصر المماليك عديد المنابر الرائعة في مختلف المساجد التي ترجم إلى ذلك العصر . كذلك ازدهرت في ذلك العصر صناعة الشبكيات أو المشرفيات الخاصة بالنواقد ووجهات البيوت ، وهي من الخشب المخروط . هذا فضلاً عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب مثل الدكك والسكرامي والصناديق وغيرها .

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب إذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفاريز المنقوشة ، والألواح الرخامية في الأسلحة ، والشبايك المصنوعة من الحجر المفرغ ، تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٢٢ .

على مهارة الفنان في عصر المماليك . وكذلك كان النجت على العاج، إذ تحوى المتاحف العالمية تحفآً عديدة من العاج ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية وال الهندسية . هذا وإن كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص في التطعم والترصيع ، ولا سيما حشوات المناير وفي قطع الآثار^(١) .

أما صناعة المعادن ، فقد بلغت شأواً بعيداً في عصر سلاطين المماليك ، وأمتازت التحف المعدنية التي ترجع إلى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع يميز يجعل من السهل تمييزها . ذلك أنها جمعت بين الزخارف البناءية التقليدية وزخارف جديدة شاع استخدامها في ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يدو على أباريق جميل يرجع إلى عصر السلطان الناصر محمد ، ومحفوظ في متحف المتروبوليتان^(٢) . كذلك يرجع إلى عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصقحة بالنيحاس في زخارف تولف الأطباقي النجمية التي امتاز بها ذلك العصر وازدهرت في عصر سلاطين المماليك صناعة التشكيف ، أي تطعم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقرizi أنه لاتقاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت .

أما صناعة الزجاج المطلى بالمينا فقد بلغت أوجها في مصر والشام على عصر سلاطين المماليك ، إذ شاع استخدام الموضوعات الأدمية والحيوانية والنباتية ، فضلاً عن الكتابة على الأواني الزجاجية التي صنعت في ذلك العصر . وما زالت الكتووس والأباريق والقوارير والمشكاكيات الباقيه من ذلك العصر تعتبر من أجمل ما تزدان به المتاحف العالمية ؛ ومن أمثلتها دورق من الزجاج

(١) زكي محمد حسن : قرون الإسلام ص ٤٠٠

(٢) ديماذد : الفنون الإسلامية ص ١٥٥

الممدوه بالميناء محفوظ في متحف برلين ، والميناء عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، وعليه تذهيب مازال محفوظاً ببريقه ، وعلى رقبته كتابة بالخط الثالث الجليل^(١) .

وما يقال عن الزجاج يمكن تطبيقه على الخزف . ومعظم الأواني الخزفية التي ترجع إلى ذلك العصر من النوع المرسومة زخارفه تحت طلاء شفاف ، كما يزين بعض الأواني المماليكية زخارف من الكتابة العربية على أرضية منقطعة ومنتظمة في شرطة أو داخل فصوص . وتوجد في متحف المترو بوليان مجموعة من الأواني تمثل الخزف المماليكي في القرن الرابع عشر ، وتشكلون زخرفتها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب التحفة^(٢) .

وقد وصلت إلينا أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا في إنتاج الخزف ذي الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيري التوريزى — وهو كاتب من أسميه إيراني الأصل نزح إلى القاهرة ، وغزال ، والأستاذ المصرى ، وغيرهم من وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك العصر . وثمة ملاحظة أخرى هي أن الفخار المطلية بالميناء كان يستعمل بكثرة في بيوت الأمراء ، ولذا امتازت زخارفه بالرنوук أو الشارات التي اتخذها أولئك الأمراء علامات لكل منهم^(٣) .

أما صناعة المنسوجات في عصر المماليك فقد احتفظت بمستواها الرائق . وتحتاز الزخارف المطرزة من عصر سلاطين المماليك بخطوطها المتكسرة المترعة بسبب الأسلوب الصناعي المشبع في صناعتها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالسلم ، يطلق عليها أحياناً اسم غرزه هلبان . وظلت

١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٠١

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢٢٠

(٣) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣٢٦

الأقمشة المطبوعة تستخدم في عصر المماليك ، وكانت رسومها المسائية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هي الأشكال المسننة والتفرعات المزهرة ذات الألوان المتباينة^(١) . ويوجد في دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة من الحرير، قوام زخرفتها شريطان من السكتابية النسخية المماليكية ، تذكر فيهما عبارة «عز لولانا السلطان الملك الناصر» ، وبين هذين الشريطين شريط ثالث فيه رسوم شجيرات مورقة يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فديطارد غزالاً .

(١) ديهاند : الفنون الإسلامية ص ٢٥٧

الفصل التاسع

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

استمرار نفوذ المماليك إلى التاسع :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بنى أیوب لم يرضوا عما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشريعين من بنى أیوب . وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطائى هزمهم عند غزة . وعندما تذكرت المحاولة في نفس العام ، أنزل أیوب هزيمة كبيرة بالجيوش الأيوبيية عند العباةة قرب الصالحة^(١) .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التقى بزعامة هو لا يُكُو على الوطن العربي في في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسى بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر ، حتى تم الصلح بين الطرفين في ابريل سنة ١٢٥٣ . وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون لسلطنة المماليك نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والداخل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين^(٢) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٤

أبو الفدا : المختصر ؟ ج ٣ ص ١٨٤

(٢) المقريزى : السلوك ؟ ج ١ ص ٣٨٥

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بني أيبوب ؛ بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة فتق وعدم رضى ، بدليل أنهم انهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرينية إلى الشام عقب مقتل أقساطي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥^(١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسى إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجدد الصلح بين الناصر يوسف والمنصور أبيب . هذا وإن كان زعماء البحرينية بالشام قد حرضوا الملك المغيث عمر الأيوبي في السكرنك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المغيث عمر سنى ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، باهتا بالفشل^(٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعه الخلافة العباسية ، فاجتاز التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي ألمت بالوطن العربي في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون تحذلاً واضحاً ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عام فاحس بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ؛ ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو في احتلال حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوباً في فلسطين صوب مصر^(٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأى حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ؛ ج ٣ من ١٩٠ .

(٢) أبو الحasan : التجوم الراهن ج ٧ من ٤٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ من ١٩٩ ٩ .

المقريزى : السلوك ج ١ من ٤١٩ .

والسلام والاعتقرار للرعايا وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد ية هم ضون لها . فإذا فشل الحكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض ، فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدت في نظر الشعب في صورة غير شرعية ؛ فلاداعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنبوذ بالمهمة الأساسية التي رشحته الأحداث لها . ومني ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأسمائهم ورثة صلاح الدين وأئمهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاكو ؛ بل لقد انضم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونهم في زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكدر تسقط في أيدي التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدم فروض الطاعة لهولاكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حماه إلى مصر ومعه حرمه وأولاده تاركاً حماه وشأنها^(١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية المروب إلى مصر « وترك دمشق خالية^(٢) » ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فعمده هولاكو ووعلده بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولي التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعاً لهم « وبقي معهم في ذل وهوأن إلى أن قُتل^(٣) ». كذلك وقع الملك السعيد — ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي — في قبضة هولاكو الذي ولأه على الصبيةة وبانياس . ولم ينجي الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبته « فصار معهم وأعلن الفسق

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٣ .
أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٣ .

(٣) أبو الحasan : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧ .

والنجر وسفك دماء المسلمين ... ^(١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلكه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بثابة فصل الختم لدولتهم ، وإعلانا لقنازهم عن حقوقهم في الملك بعد أن تقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أیوب لي THEM فى ملكهم إما القatar وإما المالك ، حسبما تقرر المعركة المنتظرة بين هاتين القوتين ^(٢) .

وفي الوقت الذى أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر القatar ، إذا بالمالك يظهرون على المسرح لينزلوا بالقتار ضربة كبيرة في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر المالك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فشل الأيوبيين في صد خطر القatar ، ونجاح المالك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بثابة فصل الخطاب بين المالك والأيوبيين ، وختمة لحركة التناقض بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المقدادية لن تستطيع بحال الصمود في وجه قهوة القatar .

وكان أن استطاعت جيوش المالك بعد عين جالوت إجلاء القatar عن دمشق وحماته وحلب ومغاردهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ المالك امتد إلى بلاد الشام بجأة بعد عين جالوت ، فأنااب السلطان المنظفر قطز الأمير سنبل الحاجي في دمشق . وإذا كان المنظفر قد أقر بعده ملوك بنى أیوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حصن الملك النصوص

(١) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ
المقريزي السلوك ج ١ من ٤٢٠ .

(2) Grousset : Hist des Croisades, III, pp. 586—587.

صاحب جماد . . . فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعيتهم وأصبحوا تابعين لسلطان المالك في مصر^(١) . ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجاً عن نفوذ سلطنة المالك سوى الملك المنفي عمر صاحب السكرنك والشوبك ، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من تسلم الشوبك من الملك المنفي ، كما قبض على الملك المنفي نفسه سنة ١٢٦٣ واعتقله في قلعة الجبل . وعين أحد أمرائه نائباً للسكرنك^(٢) .

وإذا كان المالك قد ظهروا في صورة ورثة الأيوبيين في حكم مصر والشام؛ فإن معنى ذلك أن المالك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العريض فحسب ، بل أيضاً في سياساتهم الخاصة بالجهاد . هذا بالإضافة إلى أن المالك كانت عددهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر ، فضلاً عن انتصارهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون ، ولذلك حرص المالك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين . ولم يلبث سلاطين المالك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين ، بحيث أنه لم يكدر يمضى على قيام دولة المالك نحو من أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهين على بلاد الشام غير قوة المالك .

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥ ، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي^(٣) . ولم يأبه أن أخذ يتبع انتصاراته في سرعة مذهلة ، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨ .

(١) المقربى : السلوك ج ١ ص ٤٢٢ .

(٢) المرجم السابق ص ٤٤٧ .

ابن واصل : مفرج السكريobi ج ٢ ورقة ٤١٣ (مخطوط) .

(٣) ابن أبي الفضائل : النهج السديد ص ١٣٢ ، ١٤٨ .

ثم على الشقيف ، حتى توج انتصاره على المماليك بالاستيلاء على أنطاكية — كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في ما يو سنة ١٢٦٨^(١).

ولم يكن خلفاء بيروس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين ، فاستطاع السلطان المنصور قلاون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ، وبذلك لم يبق للصليبيين من ملوكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا وصيادا وصور وعثليت . وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاون على كاسرة ١٢٩١ ، ولم تسد تنتهى تلك السنة حتى استسلم آخر البقايا الصليبية بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائياً من تلك البلاد^(٢).

وبطهير بلاد الشام من التتار والصليبيين جديعاً ، استقرت الأمور نسبياً للمماليك في بلاد الشام كأن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإداري لمملكة المماليك في عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نواحيات ؟ تخضع للحكومة المركزية في القاهرة . أما هذه النواحيات فهي نواحية دمشق ونواحية حلب ونواحية طرابلس ونواحية حماه ونواحية صفد ونواحية السكرك . ويبدو أن هذا التقسيم في حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية حتى أن معظم تلك النواحيات التي نراها في بلاد الشام على عصر سلاطين المماليك ، إنما كانت في حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة في العصور السابقة ، بل لقد وصل

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ٢ من ١١٤٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ؟ حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

بعضها فعلاً — قبل عصر المماليك — إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب .^(١) على أنه ينبغي من باب الدقة القاري يخفي أن نشير إلى أن عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ؛ وذلك مثل نيابة السكرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام وال Hijaz ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وئمة ملحوظة أخرى هي أن تلك الفيابات است لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار الفتوح المماليكى على بلاد الشام اتصف بالتدريج ، الأمر الذى جعل ظهور التقسيم الإداري لمدن الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابة دمشق وحباب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة . أما حماه — فـكما سبق أن ذكرنا — اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقاء على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطز عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماه وأقره على حكمها^(٢) ؛ وبذلك لم تصبح حماه نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بنى أيبوب . وأما نيابة السكرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ . أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها إلى عهد السلطان قلاون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩^(٣) .

(١) Demombynes ; La Syrie à l'époque des Mamelouks,
p. 106.

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٧٤٧ .

أبوالحسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢١ .

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضمنها الخاص ، ومتعد لتشمل مساحة كبيرة ، ويقمعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموارف أو القلاع الهمامة ؟ فإنه روعى أن تقسم كل نياية منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندى اسم « النيابات الصغار »^(١) . ولذلك تتضح صورة كل نياية من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناوتها بكلمة موجزة : -

أولاً : نياية دمشق : وهي كبرى نوابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندى اسم « نياية الشام » أو « مملكة الشام » ؛ ووضفتها بأنها « أجل نوابات المملكتة الشامية وأرفعها في الرتبة »^(٢) . وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اخْتَصَّ بها سلاطين المماليك بعنادتهم وأقاموا فيها كثيراً من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الفاطر بيبرس سجد شرفات قلعة دمشق ورسوس أبراجها التي كان القتار قد هدموها ، وبنى فيها حماماً ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بترحيم الحائط الشمالي وتتجديده بباب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الأباق الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من الماء^(٣) .

وكان يقول أسر مدينة دمشق والي ينظر في شؤون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، فـ حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإمام الذي يعرف باسم البر - والـ آخر^(٤) . وكان يتبع نياية دمشق عدة نوابات صغرى وولايات . أما النيابات الصغرى فأهمها غزة والقدس وصرخد ومجلون وبعلبك وحمص ومصياف والرحيبة ؟ مع ملاحظة أن غزة صارت أحياناً نياية قائمة بنفسها

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ .

(٢) المرجم السابق : ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاكر السكري : فوات الوفيات — ترجمة بيبرس ..

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ^(١) . وَأَمَا وُلَايَاتِ نِيَابَةِ دِمْشَقِ فَمُدِيَّةُ أَهْمَهَا الرَّمْلَةُ وَيَسَانُ وَالْمَقْعَدُ وَبَيْرُوتُ وَصَيْدَا وَقَارَا وَغَيْرَهَا .

ثَانِيَا : نِيَابَةُ حَلْبٍ ؛ وَكَانَتْ تَتَمَمُّعُ هِيَ الْأُخْرَى بِأَهْمَى خَاصَّةٍ فِي عَصْرِ الْمَالِيِّكِ نَظَرًا لِخَطْرُورَةِ مَوْقِعِهَا عَلَى الْأَطْرَافِ الشَّمَالِيَّةِ لِدُولَةِ الْمَالِيِّكِ مَا جَعَلَهَا مُحَورًا لِكَثِيرٍ مِنْ أَحَدَاثِ الْمَالِكَاتِ الْمُضَطَّرِّبةِ بَيْنَ الْمَالِيِّكِ مِنْ نَاحِيَّةٍ وَجَبَرَأَنْهُمْ مِنْهُمْ مِثْلَ التَّقَارِ وَالْتَّرْكَانِ وَالْعُمَانِيِّينَ مِنْ نَاحِيَّةٍ أُخْرَى . لِذَلِكَ اشْتَقَمْتَ نِيَابَةُ حَلْبٍ عَلَى عَدْدٍ كَبِيرٍ مِنِ النِّيَابَاتِ الصَّفْرِيِّ لِيَسْ لَهُ مُثِيلٌ فِي بَقِيَّةِ نِيَابَاتِ الشَّامِ ؟ وَمِنْ هَذِهِ النِّيَابَاتِ الصَّفْرِيِّ التَّابِعَةِ لِنِيَابَةِ حَلْبٍ نِيَابَةُ قَلْمَةِ الرُّومِ أَوْ قَلْمَةِ الْمُسْلِمِينَ غَرْبِيِّ الْفَرَاتِ فِي مَوَاجِهَةِ الْمَيْرَةِ ، وَنِيَابَاتُ السَّكَحَّةِ وَكَرْكَرِ وَبَهْسَنِ وَسَمِيَّسَاطِ وَعَيْنِقَابِ وَدَرْبَسَكِ وَالْأَوْنَدَانِ وَبَفَرَاسِ وَالْقَصِيرِ وَالشَّفَرِ وَبَكَامِسِ . هَذَا فَضْلًا عَنْ عَدْدِ آخَرِ مِنِ النِّيَابَاتِ الصَّفْرِيِّ كَانَتْ تَقْعُدُ خَارِجَ حَدُودِ الشَّامِ وَلِكُنْهَا تَقْبَعُ نِيَابَةُ حَلْبٍ بِحُكْمِ مَلِكَيَّةِ دُولَةِ الْمَالِيِّكِ لَهَا . وَمِنْهُمْ هَذِهِ النِّيَابَاتِ الصَّفْرِيِّ الْآخِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَّ بَلَادِ الْأَرْمَنِ ، مُثِيلٌ مُلَطِّيَّةً وَدَرْكِيَّ وَدَرْنَدَهُ وَالْأَبْلَسَتِينِ وَإِيَّاسِ وَطَرْسُوسِ وَأَذْنَهُ وَغَيْرَهَا^(٢) .

أَمَا وُلَايَاتِ النِّيَابَةِ الْحَلَبِيَّةِ فَأَهْمَهَا بَرْ حَلْبٍ وَكَفَرْ طَابُ وَعَزَّازُ وَتَلْ بَاشِرُ وَمَنْبِيجُ وَتَيْزِينُ وَالْبَابُ وَبَزَاعًا وَأَنْطَاكِيَّة^(٣) .

ثَالِثًا : نِيَابَةُ طَرَابِلسُ ؛ وَكَانَتْ تَشْمِلُ مِنِ النِّيَابَاتِ الصَّفْرِيِّ نِيَابَةَ حَصْنِ الْأَكْرَادِ وَنِيَابَةَ حَصْنِ عَكَارِ وَنِيَابَةَ بِلَاطِنَسِ وَنِيَابَةَ صَهْيُونِ وَنِيَابَةَ الْلَّاذِقِيَّةِ ؛ هَذَا فَضْلًا عَنْ سَتِّ نِيَابَاتِ صَفْرِيِّ أُخْرَى أَسْمَاهَا الْقَلْقَشِنِدِيِّ « نِيَابَاتُ قَلَاعِ »

(1) Demombynes ; op. cit., p. 174 &

ابن فضيل الله المعربي : التعريف من ١٧٧ .

(2) الْقَلْقَشِنِدِيِّ : صَبِيعُ الْأَعْشَى مِنْ ٢٢٦ وَمَا بَعْدُهَا .

(3) الْمَرْجُمُ السَّابِقُ ج ٤ مِنْ ٢٣٠ .

الدعوة» ؛ أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نياية الرصافة ونيابة الخواى ونيابة القدموس ونيابة السكھف ، ونيابة المنیقة ونيابة القلمة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددها ست هى : أنظر طوس ، وجية المنيطرة ، والظرين ، وبشرية ؛ وجبلة وأنفة ^(١) .

رابعاً : نياية حماه ؛ ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيات صغرى ، وإنما يتبعها ثلاثة ولايات هي : ولاية بر حماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة ^(٢) .

خامساً : نياية صيدل ؛ وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحوأ من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد يبرس قائمتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين . وليس لهذه النياية نيات صغرى — مثل نياية حماه — وإنما تبعها إحدى عشرة ولاية هي ولاية بر صيدل ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبنين وهو نين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشفيف ، وولاية جيدين ^(٣) .

سادساً : نياية السكرك ، وليس لها نيات صغرى هي الأخرى وإنما تبعها أربع ولايات هي ولاية بر السكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان ^(٤) .

* * *

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ من ٢٣٥—٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق من ٢٣٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ من ٢٤٠ — ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق من ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض سريع لنوابات الشام في عصر المماليك . أما عن أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كل منها كانت صورة مصغره لسلطنة المماليك الكبرى في مصر ، حتى لقد أطلق القلقشندى على تلك النيابات اسم « الملك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نياية سلطنة مضاهية للمملكة المستقلة » .

ولتفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان فيحقيقة أمره « سلطاناً مختصراً » ، مع تبعيه لسلطان مصر ؛ فكان لكل نائب جاشيته وماله كه وأتباعه ، وأطلق عليه أحياناً اسم « ملك الأمراء » لقيمه مقام السلطان في التصرف وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان ^(١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه ، والفراش خاناه ، والزرد خاناه ، والطبلخاناه . . . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان ، مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير آخر وأمير جاندار . . . وغير ذلك . كذلك كان لكل نياية من النيابات الشامية وزير يقمع بما يقمع به الوزير في مصر ؛ هذا وإن لم يسمح للوزير في نوابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولادة الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولي منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر النظار » ^(٢)

كذلك كان في كل نياية من نوابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربع ، مثلما كان الحال تماماً في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلاً عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نياية من نوابات الشام والتي كان

(١) القلقشندى : صبح الأعشى - ٥ من ٤٥٥ :

(٢) المرجع السابق - ٥ من ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم ، والقسم الثالث يشمل الوظائف الدينية .

أما الدواوين التي وجدت في كل نيابة من نließيات الشام ، فكان أهمها ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش . وقد اختص ديوان الإنشاء بجمع المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ولقب صاحب ديوان الإنشاء بـ كاتب السر . ويبدو أن كاتب السر في نließيات الشامية كان يقوم أيضاً بمهمة التجسس على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب عنه ^(١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له الإشراف التام على المصاروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش ، فكان يشرف على جيش النيابة وتوزيع الأقطاعات وترتيب الجواجم الخاصة بالمالية . ومن الثابت أن أراضي الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٢١٣هـ ^(٢) ؛ وهذا ما يسمى « الروك الناصرى ببلاد الشام » نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون . أما عن عدد الجنود ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : -

١٥٠٠٠ أجناد الحلقة بدمشق ومسالك الكافل والأمراء

٨٠٠٠ أجناد الحلقة بحلب ومسالك الكافل والأمراء

٩٠٠٠ أجناد الحلقة بطرابلس ومسالك الكافل والأمراء

٢٠٠٠ أجناد الحلقة بصفد ومسالك الكافل والأمراء

١٤٠٠٠ أجناد الحلقة بحمص ومسالك الكافل والأمراء

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتعديل في عصر

الماليك ، وكذلك عدد الأقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام ^(٢) .

(١) الفلاشندي : صحيح الأعشى ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زينة كشف الممالك من ١٠٣ — ١٠٦ .

وبلاحظ أن خليل بن شاهين أغلق ذكر عدد الأجناد بنيابة الكرك .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لـكافة الثيابات الشامية في عصر المماليك ؟ فإننا نحب أن نؤكّدمرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تقع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية الأبواب في الثيابات الشامية الأخرى ؟ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه الواقع الكرمة » ، ويذكر عنده للريات بقرين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشملها الخريط السلطاني الشريف »^(١)

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تقع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، كما حدث في بعض الحالات . لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة ؛ فكان السلطان يحرص أحياناً على التدخل في شؤونهم لإشعارهم بوجوده . هذا إلى أن السلطان لم يكتف بأن يكون صاحب ديوان الإناء عيناً له على النائب ؛ وإنما كان السلطان أيضاً يجعل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الإقليم عيناً له على النائب ، ويقاومه إذا حدثه نفسه بالخروج على السلطان^(٢) . ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجناداً مقيمين معه ولا يتصلون بدار الثيابة في المدينة^(٣) .

والواقع أنه على الرغم مما تقع به نواب الثيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة ، وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقي التصرف في كثير من النواحي . من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ من ١٨٤ .

(2) Demombynes ; op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ من ١٨٥ .

العرى : التحرير ، من ١٤٨ .

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؟ فكان النواب يعيشون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فما دونها ، في حين كان التهبيين في الوظائف من إمرة طبلخاناه فما فوقها من حق السلطان . أما وظائف أرباب القلم فكان النواب لا يعينون إلا صغار الموظفين مثل كتاب الدرج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف الدينية كان من حق السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين - مثل قضاة القضاة - في حين ترك للنواب تعيين صغار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة ^(١) . وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر والشام وتشرف بإشرافاً تاماً على سير الأمور في مختلف أرجاء الدولة المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامي في عصر المماليك :

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث أهمهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالحكم وبالوظائف ، وحرمتهم من المشاركة ذات قيمة في أمر من أمور بلادهم . وهكذا كان المماليك في بلاد الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات النفوذ والسلطان ، في حين خضم أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليون إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالي المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) القلقشندي : صبع أاعمى - ١٢ ص ٦ - ٧ .

وراءة ، وكان كل ما يطمعون فيه هو أن يلي أمرهم نائب عادل من المالكين يحسن معاملتهم ولا يحرمهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادي الذي تهض به الحضر من أهل الشام تطلب نوعاً من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم يتجهون إلى مسالمة المالكين ولا يحرموا أن الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الوزارات التي اعتقاداً أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر .

أما البدو، فقد تألفوا من العشائر المفترضة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أخذادها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان «آل فضل» من ربيعة، الذين امقدت مشارقهم من حصن إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات^(١) . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا - بحكم موقع مشارقهم - إلى توزيع ولاياتهم بين القوى العديدة التي تقاسم السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسميه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذي دأب على مناصرة التتار حيناً والماليك أحياناً ، حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاون ذرعاً بآل فضل وطردهم ليجعل محلهم لأخوههم من «آل على» ؛ ولكن الناصر محمد خادعف عن آل فضل وردهم إلى بلادهم . واقتلاعاتهم^(٢) .

ويلاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة الماليك بالشام قد لجأت أحياناً إلى الخروج عن سلطان الدولة؛ فإنه وجد قسم آخر من تلك المشاير انتشرت في داخلية بلاد الشام، وهذه كانت أكثر ارتباطاً بشعور الولاء للدولة وخضوعاً لسلطانها. ومن هذه المشاير آمل مرة في سوران وأآل على

(١) . القلقشندي : صبح الاعشى ٤ من ٢٠٤

(٢) المترجم السابق ح ٤ ص ٢٠٦

في المرج والفوطة حول دمشق ؛ وغيرهم كثيرون^(١). وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الإقطاعي ، فأضفوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأقطعوهم الإقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهملها الولاء للدولة وحراسة الطرق والdroوب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفقت الخصوص لذلک النوع من التقنيات الحكومية التي تفقدوها كثيراً من حريتها ، فأخذت ما في النظام من مميزات ، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات .

وبالإضافة إلى المصبيات النصرانية التي وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك – مثل الأكراد والتركمان والأرمن – ؟ فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبيات جديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام . ونستطيع أن نأخذ ناصحاً أهم هذه الطوائف أو العصبيات فيما يلي : –

أولاً : السكروانيون : وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكانوا من النصرانية والعلويين والمتاؤلة^(٢) . ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن السكروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك ، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الآخرين والصلبيين بالشام . من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاون لمدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، إذ خف السكروانيون لنجدته بوهيموند السابع أمير طرابلس . وقد أغضب ذلك السلطان قلاون ، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم^(٣) . وعندما استولى السلطان

(١) القاشندي : صبح الأعشى - ٤ من ٢٠٨ - ٢١٠ .

(٢) Lammens ; La Syrie, 2, p. 16.

(٣) محمد كرد على : سلطان الشام - ٢ من ١٢٦ .

الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالشام ، جلأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استشارة أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية سنة ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين يبدراً ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالعسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم^(١) . وفي سنة ١٣٠٠ أى في سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية – سار أقوش الأفروم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلهما عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتقد » . وقد تحصن الكسروانيون بجبلهم المنيع ، واجتمعوا – نحو اثنتي عشر ألف رام – لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك سترة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح ونادوا « الأمان » . وكان أن فرض عليهم أقوش الأفروم (أقوش) الأفروم مبلغ مائة ألف درهم جبوها بعد أن تمهدوا بالطاعة^(٢) .

ومن أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التتوخين هاونوا جيش الأفروم ، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتتوخين . وقد أرسل الأمير الأفروم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شؤونهم مع التتوخين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأرض والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفروم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٠هـ) ، فهاجم الكسروانيين « وخرب ضياعهم وتقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ٠٠٠» . وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأسر ستة عشر رجلاً ، وغنم العساكر منهم ملا عظيماً ٠٠٠^(٣) . وقد ساعد الأفروم في جهوده لاخضاع الكسروانيين

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ ٠

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١١٥ ٠

الأمير استدمر نائب طرابلس ، الذى تذكر عنه المراجع وبالغته فى التكيل بالكسر وانين وقتلهم^(١) . ويبدو أن حلات الأمير أفوش الأفم على جبال السكر وانين نجحت فى إخضاعهم والقضاء على كيانهم وعصبيتهم ، فيرى المقريزى أن السلطان الناصر محمد أقطع « جبال كسر وان بعد فتحها » لبعض أمراء المالىك ، فذهبوا إليها « فزعموا لهم الجبلية ورفعت أيدي الرفضة عنها »^(٢) .

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقوا الدرزية وانتشروا في جهات متفرقة من لبنان ، وظلوا يتار جحون بين الولاء للصلبيين حيناً وللمسلمين أحياناً؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمالىك من ناحية وخصوص المالىك من أيديهم وتدار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحترين ، الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب تقليلهم ، فاعتقل بعض زعامتهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهي من حربه ، حق إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع ذلك فقد ظل بيبرس يتشكل في ولاء البحترين ، حتى أرسل ضده حملة قوية اجتاحت بلادهم وعاقبهم في عنف^(٣) . وبعد بيبرس بـ ٦٠ السلطان قلاون إلى اضطهاد البحترين ، فصادر إقطاعاتهم ووزعها على حامية طرابلس من المالىك . وسرعان ما أدرك البحترين عاقبة عنادهم فعادوا إلى الولاء لدولة المالىك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة بيروت وشواطئها؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحترين المالىك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ - ٣٣

أبو الفدا : الخنسور حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٦٠

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥

تثار فارس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون^(١) .

ومنه فريق آخر من القنوخين ، هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت وكانوا موالين لدولة المماليك ؛ واشتهروا بموافقهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك^(٢) .

ثالثا : بنو معن أو المعينيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين ندبهم أمراء السلجوقية لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبوا في ذلك بلاء حسنا ؛ كوفروا عليه بذبحهم إقليم الشرف ، وقد حالفوا أقرباء هم القنوخين في الغرب والشهايين في وادي القيم^(٣) .

رابعا : الشهايون الدروز ؛ وكانت مفارز لهم في وادي القيم منذ سنة ١١٧٣ واشتراكوا بمجاهد في قتال الصليبيين ثم التثار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهايون بني معن وأصرروا عليهم .

خامساً : المتأولة ؛ وهي فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجهات الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التناقض كان قوياً بينهم وبين الشهايين الدروز حول الزعامة على لبنان^(٤) . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب شذوذهم المذهبى ؛ مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادسا : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي

من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم^(٥) .

(١) أحمد عزت عبد السكرين : التقسيم الإداري لسوريا في مصر العثماني من ١٣٦ .

(٢) الشدياق : أخبار الأعيان في جبل لبنان من ١٧٤ .

(٣) أحمد عزت عبد السكرين : التقسيم الإداري من ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynes : op. cit., p. 227.

سابعاً : الإسماعيلية ؟ وكأنوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية ؟ وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والـ سكمهـ والخوابي والمنيةة والرصافة . وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية^(١) ؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصلبية سواء . ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شذوذهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب حوقهم المائج بين الصليبيين وال المسلمين من ناحية أخرى . لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على المدaiا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية ، وذلك «إفساداً لذوات الإسماعيلية وتعجيزاً لمن لا يكتفى شرهم بالهدية^(٢) ». ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت - عندما أخذ نفوذها يضعف في بلاد الشام - إلى دفع الأموال للصلبيين ، وبخاصة الاسبتارية في حصن الأكراد . لذلك انهز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاسبتارية سنة ١٢٦٧ وشرط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية . ويروى المقرizi أن رسول الإسماعيلية وفدو على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا «هذا المال الذي كنا نحمله قطعة للفرج قد حملناه لبيت المسلمين ليتحقق في المجاهدين^(٣) » .

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن صاروا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس ، بدليل أن نجم الدين حسون بن الشمراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إنفاق المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال . وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية - وهو صارم الدين مبارك

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٩ من ٥٥٠ وما بعدها .

(٢) المعنى : عقد الجار ج ٢٠ الحمد الثالث ور ٤٩ ٥٢٩ .

(٣) المقرizi : السلوك ج ١ س ٥٠٧ .

ابن الرضي صاحب العلية - فتوسط صارم الدين لسلطان حتى رضي عنه بيبرس، وعندئذ قله زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشعراوى . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام - حيث أخذ يباشر مهام منصبه^(١) .

ويدل ذلك على مدى ما صار سلاطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف وبلادها للسلطان، وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف . ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصنون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جهينا (١٢٧٣ - ١٢٧٠) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأفظعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات في مصر ليعيشوا فيها^(٢) .

ثورات الشام في عصر المماليك :

لم تكن الشام في ذصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدوره يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكلها وتوازنها ، والثبات في وجه الأخطار الآسيوية الضخمة التي هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتر والصلابيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركان ثم الممانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم في مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا في ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التي يمكن

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) المقرizi : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كيانهم ، فضلاً عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين . وكثيراً ما أحسن أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بعض النظام الوراثي وإيمان بأن الملك الأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام — عندما استفحلا النزاع أحياها بينهم وبين سلاطين المماليك — مانعاً من الانصار بأعداء الدولة من تيار وعانياين ، مما عرض دولة المماليك لـكثير من الأنطاز . هذا كلّه فضلاً عما نمسه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافقיהם من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملذاً ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتابعين في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت المعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيمرية) أن يقسموا بين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور — نائب السلطنة بدمشق — عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيراً من المتابعين في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتابعين ، سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر القتار^(١) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ من ٣٦٦ وما بعدها

على أنه حدث في ذلك الدور — وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار — أن اقسام المماليك في مصر على أنفسهم ، فاجأ السلطان أبيك إلى قتل أقطاعي زعيم المماليك البحريية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وقلانون وسنقر وبسرى وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعامة البحريية في الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ - ١٢٥٧) يسببون للتابع لسلطنة المماليك في مصر ؟ حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظموه خطر التتار في صورة جديدة على الشام ومصر ؟ وعندئذ دخل البحريية في طاعة السلطان قطز ليواجهوا جميعا الخطر الجديد ^(١)

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تتمد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت التابع التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصلابيين فحسب ، بل أيضا من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ثار في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليه السلطة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقى بالملك المخايد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة ^(٢) . ولسكن الظاهر بيبرس أحمد حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أرز حرض أمراء الشام فانقضوا عن سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ثار الأمير شمس الدين أدوش البرلى ووطد مرکره في حلب ، ولسكن السلطان الظاهر أحمد حركة ^(٣) .

(١) ابن واصل : مفرج السكري ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقرizi : السلوكي ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتابعة التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور الأساسية لدولته كالمواشية من جانب أمراء المماليك ، وإنما ظل بعض بقائهم ملوك بني آيوب يشكلون خطراً على سلطان دولة المماليك . من ذلك أن الملك المغیث عمر الأيوبي صاحب السكرنك استعمل بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على الشو بك وغيرها من المناطق القرية التابعة لسلطنة المماليك . ولم يهدا بيبرس إلا بعد أن قبض على المغیث عمر سنة ١٢٦٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قُتل بعد ذلك ^(١) .

ولما اعتلى المنصور قلاون دست السلطنة سنة ١٢٧٩ ، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته ؛ بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي . وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار ، فاتصل بخان مغول فارس — وهو أبغا بن هولا كو — وحرضه على مهاجمة بلاد الشام ، ثم انتهى الأمر بقرار الأمير سنقر إلى صهيون ^(٢) . ولم تنتهِ المتابعة التي واجهها السلطان قلاون في بلاد الشام عند ذلك الحد ، إذ حدث سنة ١٢٨١ ، والسلطان قلاون مشغول بمحاربة الصليبيين ، أن دير الأمير سيف الدين كونذك وجماعة من الأمراء الظاهريه وبعض التتار مؤامرة لاغتيال السلطان ^(٣) . ولم يتعدد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين ، ولكن المنصور قلاون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم زعماءها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليتحققوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشرف ^(٤) .

(١) ابن شاكر السكري : عيون التوارييخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٢) التوييري : نهاية الأرب ؟ ج ٢٩ ورقة ١٧٠ .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : التهجـ السديـد ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٤) التوييري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث . من ذلك أن السلطان كتبغا الذي اغتصب السلطنة سنة ١٢٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أبيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغلو العادلي . ولم يكدر السلطان كتبغا يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولي السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتبغا إلى دمشق^(١) .

وقد بلغ السلطان المنصور لاجين إلى تعين الأمير سيف الدين قبيح نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاون إلى السكرك ليأمن خطره^(٢) . غير أن السلطان لاجين أوغر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياساته ، فخرج عليه الأمير قبيح بالشام (قبيح) ، ثم رحل قبيح إلى بلاد التغار حيث رحب بهم غازان محمود^(٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلام ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يظهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ السكرك أعلم تنازله عن السلطنة . وإذا إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بعين الولاء

(١) أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ .
المقرن : السلوك ج ١ ص ٨١٩ — ٨٢٢ .

(٢) التویری : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين شرور : دولة بني قلاون في مصر ص ٤٠ .

لبيرس الجاشنكير ، في حين رأس البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم
على ولاههم له .

وزاد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن بليرس الجاشنكير أخذ يضيق
الحنق على الناصر محمد بالذكر ؛ الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب
الشام يذكّرهم بأنهم مماليك أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعدوهم
في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ويطلب مساعدتهم . وبفضل
مساعدة أمراء الشام تمكّن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى
دمشق حيث استقبله أهلها استقبالاً طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أمراء الشام
فروض الولاء^(١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتقل دست السلطنة
للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ .

وكان أن عين الناصر محمد قراستقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ،
فاغضب ذلك الماليك الأشرفية لاتهامهم الأمير قراستقر هذا بالمشاركة في قتل
السلطان الأشرف خليل . وقد أحسن الأمير قراستقر بأن الماليك الأشرفية
يغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير
أقوش الأفروم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجاتيو إياخان
التتار في فارس^(٢) .

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تنكر الحسامي الناصري نيابة
الشام سنة ١٣١٢ ، ثم لاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص
وطرابلس وصفد بالرجوع إليه . ولم يلبث أن ازداد نفوذه تنكر في الدولة ، وبخاصة
بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاورة ؛ ويروى أبو المحاسن أن

(١) أبو المحاسن : النجوم الراهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الراهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

تفكر طلب من السلطان عزى يابغا نائب حلب فعزله على الفور^(١) . غير أن الناصر محمد لم يثبت أن أوجس خيبة من ازدياد نفوذ تذكر ، فحقق عاليه وعزله وتخاص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير ألطيف الصالحي^(٢) .

وإذا كانت سلطنة الفاصر محمد الثالثة قد امتازت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبي في أوضاع الدولة الداخلية ، فإن عصر أولاد الفاصر محمد وأحفاده شهد كثيرا من التقلبات والفتنة في مصر والشام جمِيعاً . من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤) ، أن خرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد . وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون السكاملاني نائب دمشق الذي اضطر إلى الهرب إلى غزة ، فاستولى بيهغا أرس نائب حلب على دمشق ، حتى نجح السلطان في القضاء على الفتنة^(٣) .

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بي Democrat الخوارزمي نائب دمشق المضياني وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشارك في حركته جماعة من نواب الشام ؛ نخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بي Democrat وأرسله مقيداً إلى الإسكندرية وعيّن اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة^(٤) .

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بي Democrat نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكّن من القبض عليه^(٥) .

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) الريح السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٧ .

(٤) ابن لياس : بذائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بلاط) .

(٥) ابن حجر : الدرر السكاملة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مسرحاً للكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السلطنة. وفي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة، لسمع كيف ثار الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق لليلبغاوية بإبعاده إليها، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧. وفي النزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوم وبركة من ناحية وطشمر من ناحية أخرى، لجأ برقوم وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام.

ثم كان نجاح برقوم في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢، ليجعل بلاد الشام مسرحاً جديداً للنزاع بين الترك والجراكسة، إذ ثار ألطيفها التركي نائب أستان صد برقوم سنة ١٣٨٢، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد القatar^(١). ويفهم من الرابع أن الأمير يلبعا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوم، فرثى على الاحتفاظ بصداقته سولى بن داغدار التركاني— وهو أحد أعداء دولة البرجية -- مما جعل برقوم يعزل يلبعا نائب حلب سنة ١٣٨٥^(٢). غير أن برقوم لم يكدر يفرغ من أمر يلبعا حتى سمع بعوامة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦^(٣). وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوم، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلبعا الناصري إلى نياية حلب ليستخدمه أداة في محاربة منطاش. على أن يلبعا الناصري لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته^(٤).

(١) أبو الحسن: التجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر: إحياء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المقريزى: السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) العييف: عقد الجان ج ٢ ق ٢ ورقة ٣٢٨ .

ولم يلهمت الأمير يلبغا الناصرى أن أعنان ثورته علنا على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء موالين لبرقوق^(١) . وهكذا لم تكتمل تنتهي سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعلبك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصرى . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لحاربة يلبغا الناصرى ، ولكن المزينة حللت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها^(٢)

وهكذا غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مرير ، هو في حقيقة أمره صراع بين الماليك الترك والماليك الجراكسة حول السلطة ، أما يلبغا الناصرى ، فإنه لم يضم الوقت ، وإنما زحف إلى غزة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطة ؛ ففني إلى الكرك سنة ١٣٨٩^(٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصرى ومنطاش . ولم يلهمت أن خرج برفق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انفهم الأمير كشبغا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهته الشمالية ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لحاربته . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو المحسن : التجوم الراهنة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : الميرج ج ٥ ص ٤٧٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برقوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فزحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه^(١) . وسرعان ما استطاع برقوق بعد ذلك توسيع نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع ممرين بين يلبعنا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سلبياً في أوضاعها الاقتصادية^(٢) .

ولذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برقوق ، فإن ثورة الأمراء لم تثبت أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برقوق سنة ١٤٠٠ ؛ وانضم إليه في ثورته نواب صفد وطرابلس وحاج وحلب^(٣) . وقد استطاع السلطان إخماد هذه الثورة ؛ ولكن ذلك الانتصار لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو القatar بزعامة تيمورلنك ، الذي أباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أُنزل القيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها^(٤) . ولالمعروف أن تيمورلنك جمع مهرة صناع وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سرقسطة ، مما أضر بمحضارة الشام ضرراً بليغاً .

واستمرت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب السكّة باسمه ولم يكدر يقتل جكم بعد

(١) أبو الحسن : التجويم الراهن ج ١١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .
المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن لياس : بدائع الدهور ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٤ (بولاق) .

(٤) ابن عريشة : بحث المقدور في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم بوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدأ ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت المزينة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل^(١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحاً لـكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاستون فييت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنهاية دمشق في عصر المماليك ، فتبين له أن تسعه وعشرين منهم خرجن على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — هلاجين وشيخ — أن يصلا إلى السلطنة ؟ وتمكن اثنان من المرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وسجين خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر^(٢) . هذا في دمشق فقط . وهي إحدى نواحي الشام !

أثر نواحي الشام في أموال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشى لها سلاطين مصر ؟ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفك في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما جلأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك للتطوراتهم ، من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يملك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليه السلطنة سنة ١٣٠٨ وقال ، « الآن تم لي اللاثا^(٣) »

(١) ابن ملais : بدائع الدهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(2) Hauteceour et Wiet : Les Mosquées du Caire p. 56.

(٣) أبو الحasan : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلاءه دست السلطة، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب الشام وأمراءها جميعاً يؤيدونه.

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشتراك فيها أمراء الشام مع بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء الموالين لهم. وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس، وسبب خلعه قيام خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر. ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة ١٢٧٨ عندما علم بخواص أمراء الشام ضده، فأرسل إليهم ملتمساً منهم العفو متطلقاً إليهم بأنواع الخضوع^(١). ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا إلى مصر ليعملوا على خلعه، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق فاقداً مصر حيث حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطة. ويقول التويري إن بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار «وسألهم أن يكون الشام بحاله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه»^(٢).

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطة عندما غضب عليه أمراء الشام فهو كتفيا (١٢٩٤ - ١٢٩٦)، الذي استثار أمراء الشام عندما عزل الأمير أبيك المحوى نائب دمشق وعين بدله ملوكه أغراً لـ العادلي، فضلاً عن أنه لم يمنع أمراء الشام الإقطاعات والمدايا عند زيارته الشام لأول مرة، كما جرت بذلك طادة السلاطين في عصر المماليك^(٣).

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطة بسبب غضب أمراء الشام عليه، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس الدوادار: زبدة المسكرة، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط).

(٢) التويري: نهاية الأرب، ج ٢٨ ورقة ٢٦، ١٢٦.

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠.

الشام وكاتبوا الناصر محمد في السكرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملوكه^(١). وكان أن خرج الناصر محمد من السكرك إلى دمشق — كاً سبق أن ذكرنا — «نفرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه»؛ وبفضل هذه المعاونة تمكّن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩^(٢).

وأخيراً فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١؛ وقد تسلطن بعده أخوه أحمد^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساندة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقاً للمساعدة القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الخروج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والقتار. ولا شك في أن اللحظة الحامة التي يخرج بها الدارس لتاريخ عصر سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام — كانوا غالباً ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية؛ وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان العرب في الشرق الأدنى في ذلك العصر.

(١) أبوالحسن: النجوم الظاهرة ج ٨ من ٢٤١.

(٢) أبوالندا: المختصر في أخبار البصر ج ٤ من ٥٦ — ٥٨

(٣) أبوالحسن: النجوم الظاهرة ج ١٠ من ٢١ وما بعدها

الفصل التاسع

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج؟ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال؟ في حين نظرت إليها القوى الأخرى - خارج المحيطين العربي والإسلامي - نظرة خوف واحترام. وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس، فحتمت الشام ومصر من خطر التتار، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام، بل لاحقتهما في مراكزهم القرية مثل آرمينية الصغرى وقبس، ورودس. هذا فضلاً عن أن نجاح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر - بعد سقوطها في بغداد - جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع، إذ جعلتهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة للمتعصبين بيوعتها.

وهكذا غدت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء جميعاً؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالتها، أو مهادنتها اتقاء لبطشها. وبين هذا وذلك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقاً في ذلك العصر، ليجعل التجار والسفراء يتذدون على مصر بين فينة وأخرى، يبغون عقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكns أو تخفييف ضريبة. وبذلك شهدت القاهرة نشاطاً دبلوماسياً ضخماً في عصر المماليك، وصارت مركزاً لشبكة واسعة من العلاقات.

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أنها لا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء في عصر المماليك غدا يمثل أضخم وزارة خارجية شهدتها العالم أجمع في ذلك العصر . ولا أقل من تقييم هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى ^(١) .

المماليك ومغول القفقاس :

عندما قسم جنكيزخان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجى ابن جنكيزخان ، فأقام هناك دولة عرفت باسم دولة مغول القفقاس أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتها . ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التيار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ؛ الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفقاس والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ؛ وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفقاس وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتatar فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتatar القفقاس المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكن يعلم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه « يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك » ^(٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول الواقفين على

(١) استبعينا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حرية واسحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبوس وروذس وغيرها ؛ وقد سبق الكلام مما كان بين دولة المماليك و تلك الدول من علاقات يغلب عليها الطابع الحربي .

(٢) التفريزى : السلوك ج ١ من ٤٦٥ .

بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بعض هؤلاء خاصمين هولاً كوكفروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم هولاً كوك^(١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسول بركة خان يحملون رسالة للسلطان بيبرس جاء فيها « فليمعلم السلطان أنتي حارت (هولاً كوك) الذي من لحي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصي الدين الإسلام لأنه ياغى والباغى كافر بالله ورسوله^(٢) ... » وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة جمع فيها « من الترغيب والاستهلاك والإغراء على هولاً كوك وإظهار الميل إليه... »^(٣) . ولم يكتف بيبرس بتلقي الرسالة ، وإنما أمر بالدعاء لبركة خان - بعد الدعاء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل صحبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جملتها فيل وزرافات . ويقال إن رسول بيبرس قوبلوا بالحفاوة البالغة في بلاد بركة خان ، وحکوا عند عودتهم إلى مصر أن لشكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس^(٤) .

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩

المقربي: المواتع والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢)

البيهقي: عقد الجماعة ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل . مفرج السكري ج ٢ من ٤٢٢ (مخطوط) .

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك الفجاق (انظر مثلاً جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس في مصر ، من ١٠٦) ؟ وأخذوا هذا الرأي عن :

Lane-Poole: op. cit., p. 266.

ولكن هذا الرأي يبدوا لنا خاطئاً ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى ارتباط الظاهر بيبرس بذلك الفجاق برقة خان بصلة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع فيه لين بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى زوجاته هي ابنة حسام الدين برقة خان التترى وأنها كانت خوند السكري في حريم بيبرس وأم ولده وولي عهده السعيد برقة خان . ولتكن الأميرة حسام الدين برقة خان غير برقة خان ملك —

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القنجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنا بخطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٣٦٧ إلى انقطاع صلات الود بين مغول القنجاق ودولة المماليك ، إذ تبودلت السفارات والكتاب بين بيبرس وملكوكنر — خليفة بركة خان — بقصد توجيه القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبعا^(١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القنجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون تحمل هدية ورسالة خلاصتها استعداده لمشاركة في محاربة غازان إلخان مغول فارس ؟ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاه شر غازان وأن أخيه أو جاتيورضي بالصلح^(٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يدعم العلاقات بين دولتي المماليك والقنجاق ، فواصل إرسال الرسل والمدايا إلى أذبك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أذبك خان ليطلب الزواج من « بعض الجمادات الجنكزية » أي أميرة من بيت جنكيز خان ، وذلك توثيقاً لصلات الود بين سلطنة المماليك ومغول القنجاق . ولكن يقال إن رجال أذبك خان تمنوا في أول الأمر ، واشتبوا « في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط^(٣) » ؛ الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقتاً عن ذلك المشروع حتى عاد أذبك خان إلى

== القنجاق ، ولا يهدو الأمر مجرد تشابه في الاسم أو جد ذلك الخطأ (المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ - ٦٤٤) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٧ .

محمد جمال الدين سرور : دولة أبي قلاون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النويري نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٦١٣ .

القربي : السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ .

تبليغة رغبة السلطان الناصر فقال «قد جهزت لأنني السلطان للملك الناصر ما كان تقد طلب وعيّنت له ابنة من بيته الجنكيز خاني». وفي سنة ١٣٢٠ وصلت الأميرة التترية واسمها دلتبة — ويقال طولونية — إلى الإسكندرية عن طريق البحر واستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام ^(١).

وهكذا استقرت العلاقات أقوى ما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن بن الناصر محمد وجاني بك ابن أزيك ، وأن جاني بك كان يخاطب في رسائل المماليك بعبارات التشريف والتقدير والمبالفة في الاحترام ^(٢) . ويبدو أن انحلال إيلخانية مغول فارس بعد ذلك قلل من لحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك . هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطىء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضيق صلاحتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الرسمية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبيرة لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومنارتها في صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلطين المماليك يبدون أهماماً خاصة بالحجاز وعذابه كبرى بشئونه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على رعاية الحرم النبوى وإرسال

(١) الفريزى : الشلووك ج ٢ من ٣٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ من ٢٩٠ - ٢٩٦ .

السکوءة إلى الحجاز^(١) ؛ وإنما امتدت تلك المعنوية إلى بسط نفوذ المالكية
السياسي على الحجاز . ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما
قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر ، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط
سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين^(٢) .

والواقع إن الخلافات بين أشراف الحجاز هي التي أثارت فرصة طيبة لسلطان
المالكية لتحقيق أغاراً لهم . ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف
بدر الدين مالك بن منيف بن شيبة ليش�� إلى السلطان بيبرس من أن الشريف
جهاز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمارة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالده
جهاز . وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل ، فكتب إلى جهاز يطلب منه
تسليم بدر الدين نصف الإمارة ، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من
بيبرس ، « فامثل جهاز » .

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقعت خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي
نفي وبين عميه وشريكه في إماراة مكة الشريف بهاء الدين إدريس . وقد انهز
السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانه عليهم جميعاً ،
فترك السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة ^{لـ} بشرط لا يجمعوا من أحد
مكتوساً ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض لتجار . وأهم من هذا كله ،
فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه في الحرم والشاعر ،
 وأن تضرب السکة باسمه ، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز . وبعد
أن وافق أميراً مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإماراة وسلمت
لأوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام^(٣) .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

(٢) Van Berchem ; Titres Califiens pp. 286—292.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٧٩ .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتؤدي فريضة الحج من ناحية أخرى . وكان أن نفذ بيرس عزمه سنة ١٢٦٩ هـ (٦٦٧) فزار المدينة ، وغسل الكعبة بيديه . وانتهز تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه — وهو الأمير شمس الدين مروان — نائباً عنه في مكة « ليكون الحل والعقد على بيديه »^(١) . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيرس للحجاج أن العلاقة بيده وبين أشراف الحجاج لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميرى المدينة جهاز ومالك رفضاً مقابلة السلطان بيرس « وفرا منه » ؛ مما يشهد على أن أمراء الحجاج أحسوا بثقل وطأة حكم بيرس عليهم^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع لدولة الماليك في الحجاج بعد عهد بيرس ، إذ استمرت انتلاقات بين الأشراف في مكة والمدينة تشير إلى مشاكل عديدة في وجه دولة الماليك . من ذلك ماحدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون من استئناف الشرييف منصور ضد ابن أخيه ماجد بن مقبل الذي انتزع منه إماراة المدينة ؛ فأرسل السلطان الناصر محمد ببعضه من جنده لمساعدة الشرييف منصور^(٣) .

أما في مكة فقد علت الشكوى من الأخرين حميضة وأسد الدين رميحة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الغيث محلهما في الحكم^(٤) . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانت بسلطنة الماليك في مصر لقض ما يليهم من منازعات ، بل ببلغ الأمر بعضهم أن فر إلى أوجلاتيو إيلخان

(١) اليفي : عقد الجوانج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط) ٩

الثويري : نهاية الأربع ج ٢٨ ص ٥١ — ٥٢ (مخطوط) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٨٠ — ٥٨٢ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بي قلاون في مصر ص ١١٨ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٧٢ .

المغول في فارس لطلب العجدة منه^(١) . وهكذا ظلت مملكة مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمحاصرة أمير على آخر . هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ، وتوزيع القمح والفالل على الحاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام بالأراضي المقدسة^(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر . ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تحمل المدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٠ (٦٦٦ هـ ، ٦٧٤ هـ ، ٦٧٩ هـ) ومن هذه المدايا التحف والفيلا والحيوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس بحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك المدايا بأحسن منها^(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك في مصر ، لأنَّه كان من المفترض أن تتطلَّب بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها تورانشاه أخي صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أنَّ قيام الخلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعاً من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العظيم للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والجazية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو السر في حرص ملوك بني

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩ .
Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المقرن : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجم السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

رسول باليمن على علاقتهم الودية مع سلاطين المماليك في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاون تحمل هدية قيمة من العنبر والعود والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاون لملك اليمن ، فابى السلطان رغبهم وأعطاهما نص فيه على ألا « تناهه من مضره مدى الدهر وأعمارنا ، مadam ملازما لشروط موعدنا »^(٢) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٣^(١) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع سياسة أسلافه من ملوك اليمن في التوడد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرض إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستكفي بالله ينذرونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يهدد العدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لو لا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع^(٤) .

على أن الأمور لم تثبت أن انتهت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المذازعات بين أمراء اليمن بعضهم

(١) يبرس الدوادار : زبدة المفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) .

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بي قلاون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٣٣ — ٣٨ .

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيديية من جهة أخرى ، أتاحت لسلاطين للماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شؤون اليمن وادعاء هيمتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمده بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور الذي سيطر على معظم أنحاء اليمن ، فأمده السلطان الناصر محمد بحملة كبيرة تحت قيادة الأمير ركن الدين يبرس الحاجب^(١) . وهكذا ظل ملوك اليمن يترفون بالولايات لسلطين للماليك في مصر ويحرصون على إرضائهم مما حق لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

ونمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة الماليك علاقات المودة والصداقـة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان وسلطان دهلي (١٣٢٥ — ١٣٥١) في توسيع دعائمه عن طريق التوسيـع على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومحالفة سلطنة للماليك في مصر بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمنـول فارس من جهة أخرى^(٢) . وهذا الفرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حـكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينـة ، وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب مـا دـىـبـيـنـ أـعـضـائـهـ منـ نـزـاعـ ،ـ ماـ مـكـنـ لـالـمـلـكـ الـمـجاـهـدـ صـاحـبـ الـيـمـنـ منـ الـاسـتـيـلاءـ عـلـىـ مـاـ مـعـهـمـ مـنـ هـدـايـاـ ،ـ وـلـاـ سـيـعـ مـحـمـدـ بـنـ تـغـلـقـ بـماـ حدـثـ لـسـفـارـتـهـ الـأـوـلـىـ ،ـ عـادـ وـأـرـسـلـ إـلـىـ السـلـطـانـ .ـ الـناـصـرـ مـحـمـدـ بـنـ قـلـاـونـ سـنـةـ ١٣٣٩ـ يـطـلـبـ مـعـونـتـهـ ضـدـ الـغـولـ^(٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتفى بالسعى لـكـسـبـ ،ـ تـأـيـيدـ السـلـطـانـ الـناـصـرـ

(١) المـقـرـيزـيـ :ـ السـلـوـكـ ؛ـ جـ ٢ـ مـ ٢ـ٥ـ٩ـ -ـ ٢ـ٦ـ٠ـ .ـ

(٢) Lane-Poole : Med. India under Mohammedan Rule, pp. 116—120.

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاون من ١٤٠ - ١٤١

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسى بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكفى بالله العباسى إلى رغبته . وقد حرص فیروز شاه الثالث - الذى خلف محمد بن تغلق فى الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تمويضا من الخليفة العباسى ، وأرسل له الخليفة المعتصم بالله سنة ١٣٥٦^(١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذرعة مجدتها حققت ل نفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقا يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال إفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقيا فقد ربطها سلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذى هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج نظرا لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذى يصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سببا من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبنى حفص في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسى في بغداد تفوياً أيضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم . ولم يلبث أن ظهر ذلك الشيء عندما اتّخذ أبو عبد الله محمد الأول الحفصي الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامية ، وتلّقى بلقب « المستنصر بالله »

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين «^(١)». وبذلك كان أسبق ملوك شمال إفريقيا – بعد الموحدين – إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين.

وتشير المراجع إلى أن الذى شجع الحفصيين على الإقدام على تلك الخطوة كان شريف مكة أبو نهى بن الحسن ، الذى أسرع بالاعتراف بسيادة الحفصيين على مكّة^(٢) . ولم تسكن سفاراته أبي نهى هى الوحيدة التى وصلت إلى تونس ، وإنما أعقبتها أيضا سفاراتان إحداهما من سلطان بنى مرین والأخرى من ملك التکرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصى لقب الخلافة مدة طويلة حتى قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ، مما أوجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين في تونس . والواقع إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائماً أن تقلل من شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمرى من أن ملك «تونس يخاطب بأمير المؤمنين في بلاده»^(٣) . كذلك شكك القلقشندى في دعوى انتساب الحفصيين لقرיש ، وقال لهم ليسوا من العرب في شيء ، ومحقر من شأنهم وشأن خلافتهم^(٤) . أما المؤرخ أبو الحasan فقد بلغ من تحقيقه للحفصيين وخلافتهم أن قال ما نصه « وفيها (٦٥٢هـ) وصلت الأخبار من العرب باستيلاء إنسان على إفريقيا وادعى أنه خليفة وتلقب بالمستنصر ...»^(٥)

(1) Van Berchem : Titres Califien, p. 292.

(2) القبروانى : المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس ، ص ١٢٨ .

(3) العمرى : التعريف بالمصطلح الفارسی من ١٢ .

(4) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ من ٣٧٧ .

(5) أبو الحasan : النجوم الزاهرة ج ٧ من ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيب الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب «أمير المسلمين» وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة^(١) . وليس في القلقشندى سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوم إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب «أمير المؤمنين» : وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفاً عن المسلمين نتيجة لخطأ النسخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سبباً دفع الظاهر برقوم إلى الاعتراف بخلافة الحفصية نكা�ية في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاثف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدد العالم الإسلامي عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار حملة لويس التاسع على تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بسرعة لدفع عادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتجديده لويس التاسع من عاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر^(٢) . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة بمساعدة

(١) Van Berchem : *Titres Califiens*, p. 261.

(٢) ابن خلدون : العبر ؛ ج ٦ ص ٢٩١ .

المستنصر الحفصى . هذا إلى أن بيبرس أمر بمحفر الآبار في الصحراء الغربية ليعتمد عليهما جنوده في طريقهم لنجد تونس ^(١) .

على أن السلطان بيبرس لم يكمل يمضي في استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته ، الأمر الذي جعل بيبرس يوقف استعداداته الغربية لمساعدة تونس ويرسل المعاشر إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر ^(٢) . ومع ذلك فإن السلطان بيبرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتثنيع على المستنصر الحفصى والخط من شأنه . ويروى المقريزى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استاء من أسلوب الخطابة وظن أن صاحب تونس تعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك تعمد السلطان بيبرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كارد على ملك الحفصيين مستقبلا ظاهره بالمنكرات واستخدامه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروى المقريزى أن السلطان بيبرس قال للمستنصر الحفصى « مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين ^(٣) » .

* * *

هذا عن العلاقة بين سلطنة المماليك ودولة الحفصيين في تونس ؟ أما عن علاقة المماليك بحقيقة بلاد المغرب الإسلامي - مثل بني زيان في تلمسان وبني مرин في فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقات بين سلطنة المماليك وبني مرин في فاس ، في الوقت الذي ساءت العلاقات بين بني زيان وبني مرин .

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٠

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ١١٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ؟ ج ١ ص ٦٠١ .

والواقع إن الزيانيين تطأعوا في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطّاع بنى مرین ؟ ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بنى مرین هم أضخم قوة في بلاد المغرب، فخرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ؛ الأمر الذي أدى إلى تقوّر بنى زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلک التقوّر ، وإن كانت للراجم تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أرسل سفارته سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جليلة . وبعد أن لقيت السفارة من بنى مرین كل ترحاب وحفاوة ، تعرّضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لصدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أصحاب اتسفاره كانوا قد طلبوا من بنى زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم ^(١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاون لما تأنّه صاحب تلمسان وهو عندئذ أبو حمّو موسى (١٣٠٧ - ١٣١٨) - فأرسل يقتب عليه ويعنته ، كما بعث له بهدية صغيرة تمحيرا لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجا ، كما رفض قبول الهدية ^(٢) . وعلى الرغم من أن أبي تاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبرا عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استياء أسلافه هو « ميلكم إلى غيرنا » (يقصد بنى مرین) ^(٣) ؛ فإن دعوته لم تجد ترحيبا من سلطنة المماليك . ولم يلبيت بنو مرین أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن على المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيدا ومهنّدا ^(٤) .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٠ (مخطوط) .

(٢) ابن خلدون العبر ج ٧ ص ٣٢٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦ .

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٢٩٥ - ٤٠٧ .

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين المماليك في مصر إلى بني سرين نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبّر قوّة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا^(١) .

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين المماليك بوجه خاص ، عديدة ومتعددة. ومن هذه المظاهر حرص سلاطين المماليك على إرسال البشائر إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي هددته من جهة الشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المتربّع عندما دهم خطر التتار المشرقيين على أيام هولا كوم تيمور لنك^(٢) ، وأنهم كانوا يسّارعون إلى تهيئة المماليك عقب كل انتصار أحرزواه على خصومهم^(٣)

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملحاً لـكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعمّد ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أنراً عميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجدهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد إداء فريضة الحج

(١) العبرى : التعرّيف ص ١٦ - ٣٣

(٢) الوبرى . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧ - ٩

الافتاشندي : صبح الأعمى ج ٨ ص ٧٩ - ٨٤ ، ٨٤ - ١٠٣ ج ٧ ص ٢٠٧ - ٤١١

كان فرصة طيبة لإطلاع نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر : ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لانتعاش التبادل التجارى والثقافى بين الطرفين . أما عن النشاط التجارى فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الخيول والزيوت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة ^(١) ، كما ذكر في موضع آخر « إن تجارة المغاربة إلى الشرق تروهم بعيدة بعد الشقة وغلو أسعار بضائعهم » ^(٢) . وأما عن التبادل الثقافي فالمعلوم أن مصر في عصر المماليك « سارت محل سكن العلماء ومحظى رجال الفضلاء » كما وصفها السيوطي ^(٣) . لذلك قصدها في ذلك العصر كثيرون من المغاربة لطلب العلم ، فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بمدفع سلاطين المماليك وسمعوا لهم بالتدريس في الأزهر ^(٤) . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخي ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لائذاً بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ . أما ابن بطوطة – الرحالة المغربي الشهير – فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٤ ، وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ربوعها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

(١) ابن خلدون : البرج ٧ ص ٤٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) السيوطي : حسن الحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣٦١ — ٣٦٢ ج ٤ ص ٣٢٧ .

العلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك بعد الشقة بين الطرفين . وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحجج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجج أن يستكروا على الدرج الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام^(١) . فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى يتهيأ ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولاشك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجج ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصالح المصريون بهم ويعرف كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجج من ملوك مالي والشகور هو منساولي الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس^(٢) . وتبيننا المراجع أن مدة وفداً من الحجاج الشكاررة وفدهم بعد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكروري على رأسهم منساوموسى^(٣) . وقد أحاط بذلك للملك نفسه

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) الفلاشندي : صبح الأعمى ج ٥ ص ٢٩٣ . وينذك الفلاشندي أن منسا معناها السلطان وولى معناها على " .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٧٥ .

بِهِ ظَاهِرُ التَّرْفِ ، وَأَخْذَ يَنْفُقُ فِي مِصْرَ حَتَّى اسْتَرَعَتْ نَظَرُ الْمُعاَصِرِينَ ، وَقَدْ هَدَا يَا جَلِيلَ لِلْسُّلْطَانِ النَّاصِرِ مُحَمَّدَ قَلَوْنَ مِنْ بَيْنِهَا حَلَ جَلِيلَ مِنَ الْذَّهَبِ الْمَدْنِيِّ الْخَامِ . أَمَّا السُّلْطَانُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ فَقَدْ أَكْرَمَهُ وَبَعْثَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَفْرَادِ حَاشِيَتِهِ بِالْخَلْمَعِ وَالسَّيْوِفِ وَغَيْرِهَا ، كَمَا أَمْدَهُ بِالْخَيْوَلِ وَالْجَمَالِ وَالْمَؤْوِنَةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ مُواصِلَةِ سَفَرِهِ إِلَى الْمَحْجَازِ^(١) .

ولم يلهم سلطان مالى أن أدر كوا أهمية الحصول على تقلييد من الخليفة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى انتهز فرصة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحجج ، ورأى أن يدعم ملوكه ويسكبهم صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً ينفي يغضبه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطاناً وخليفة بأرض التكرور » وأن كل من خالقه فقد خالف الله ورسوله^(٢) .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترضاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر، إذ حاول ملوك السكّان المحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة المماليك^(٣). هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شاهنشاهية، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب «الجناب السكريم العالى» في حين أن الفريق الثاني كانوا يخاطبون بلقب «المقام العالى»^(٤).

(١) العمرى : مسلك الأباء ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ — ٩٥٥

(٢) محمد كت التنبكتي : تاريخ الفناش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس من ١٤٠

(3) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) القائيندي: صبح الأعشى ج ٨ س ٧.

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الماليلك في مصر وملوك السودان الغربي تلقى صووا هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى عناية دولة الماليلك بتعريف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان الغربي بأخبار دولة الماليلك «ن ناحية أخرى وما ت تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التبادل ، ويستشف من كلام العمرى أنه يأسف لعدم العناية عناية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم ^(١) .

ولا شك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى انهز فرصة وجوده في مصر قابتع جملة من السكتب ليوفر لأهل بلاده بجانبها من الثقافة الإسلامية ^(٢) . كذلك يقال إن جامعة تمبكتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاوالت دائماً أن تحظى أسلوب الأزهر في التعليم . ويدل ما يذكره بعض المعاشر بين من الملة وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما درس في مدينة مالي لم يسعده بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين ^(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المبرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرها ^(٤) . وقد نبغ من التكاررة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكلوتاني الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠ ^(٥) .

(١) Demombynes : *Masalik Alabsar*, Intr; IX.

(٢) ابن حجر : الدرر السكافنة ج ٤ من ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطه ج ٤ من ٣٩٧ .

(٤) السخاوي : الضوء الالامع ج ٧ من ٠٢٧ .

(٥) ابن حجر الدرر السكافنة ج ٢ من ٢٠٥ .

كذلك ابْنَى تجَار التَّكَارِرَة بِمَصْر مَدْرَسَة الْمَالِكِيَّة عَرَفَتْ بِمَدْرَسَة إِبْن رَشِيق^(١)؛ وأَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَة الْمَالِكِيَّة مِرْكَزاً لِطَلَابِ الْعِلْم الْوَافِدِينَ مِنْ بَلَادِ التَّكَرُورِ، حَتَّى أَنْ الْخَيْرِيْنَ مِنْ أَهْلِ تَلْكَ الْبَلَاد اعْتَادُوا أَنْ يَعْمَلُوا لِتَلْكَ الْمَدْرَسَة بِالْمَالِ وَالْتَّبَرِعَاتِ^(٢). وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا أَنْ كَثِيرًا مِنْ الْقَسَّارِرَة فِي مَصْر كَانُوا عَلَى درَجَة شَدِيدَة مِنَ الْفَقْرِ، وَهُؤُلَاءِ كَانُوا لَهُمْ نَصْيَبٌ مِنْ عَطْفِ سَلاطِينِ الْمَالِيَّكِ، إِذَا يَرَوِيُ الْمُقْرِيزِيُّ أَنَّ السَّعِيدَ بْرَكَةَ خَانَ إِبْنَ الظَّاهِرِ يَبْرُسُ «عَمَلَ لِتَكَارِرَةِ خَوَانِ حَضْرَهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ»^(٣).

وَأَخِيرًا، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا أَنَّ التَّجَارَة كَانَتْ تَمَثِّلُ رِبَاطًا قَوِيًّا دَعْمَ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ دُولَة الْمَالِيَّكِ وَدُولَ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ. وَسَنَتَكَلِّمُ عَنِ النَّشَاطِ التَّجَارِيِّ بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَلَذَلِكَ نَسْكُونَى بِالإِشَارَةِ هُنَّا أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَقْتَصِرْ فِي عَصْرِ الْمَالِيَّكِ عَلَى مَجْمِعِ «الْتَّجَارِرَةِ» إِلَى مَصْرِ يَحْمِلُونَ حَاصِلَاتِ السُّودَانِ، وَإِنَّمَا تَعْدِي ذَلِكَ إِلَى تَرْدُدِ بَعْضِ التَّجَارِ الْمَصْرِيِّينَ عَلَى بَلَادِ الْكَانِمِ وَالتَّكَرُورِ، الْأَمْرُ الَّذِي قَوَى الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ دُولَة الْمَالِيَّكِ وَدُولَ السُّودَانِ الْغَرْبِيِّ.

العَلَاقَة بَيْنَ سُلْطَنَةِ الْمَالِيَّكِ وَالْخَبَشَةِ :

أَمَّا عَنِ الْعَلَاقَة بَيْنَ سُلْطَنَةِ الْمَالِيَّكِ وَالْخَبَشَةِ فَكَانَتْ مِنْ نَوْعِ آخَرِ . ذَلِكَ أَنَّ الْخَبَشَةَ دُولَة مُسِيَّحِيَّة تَتَبعُ كَنِيسَتَهَا الْكِنَدِسَةِ الْمَرْقِسِيَّةِ بِالإِسْكَنْدَرِيَّةِ؛ ثُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ بَعِيدَةَ عَنْ مَهْرِ لِاتِّرْبَطَمَا بِهَا حَدُودُ مِباشَرَةِ عَمَّا حَالَ دونَ وَقْعَ

(١) سُمِّيَتْ بِهَذَا الْاسْم لَأَنَّ عَلَمَ الدِّينِ إِبْنَ رَشِيقَ هُوَ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى بَنَائِهِ - قَبْلَ مِنْتَهِيِّ الْقَرْنِ السَّابِقِ الْمَهْجُورِ؛ وَهُوَ أَيْضًا أَوَّلُ مَنْ دَرَسَ بِهَا .

(٢) الْمُقْرِيزِيُّ الْمَوَاعِظُ وَالْاعْتِدَادُ ج ٢ ص ٣٦٥ .

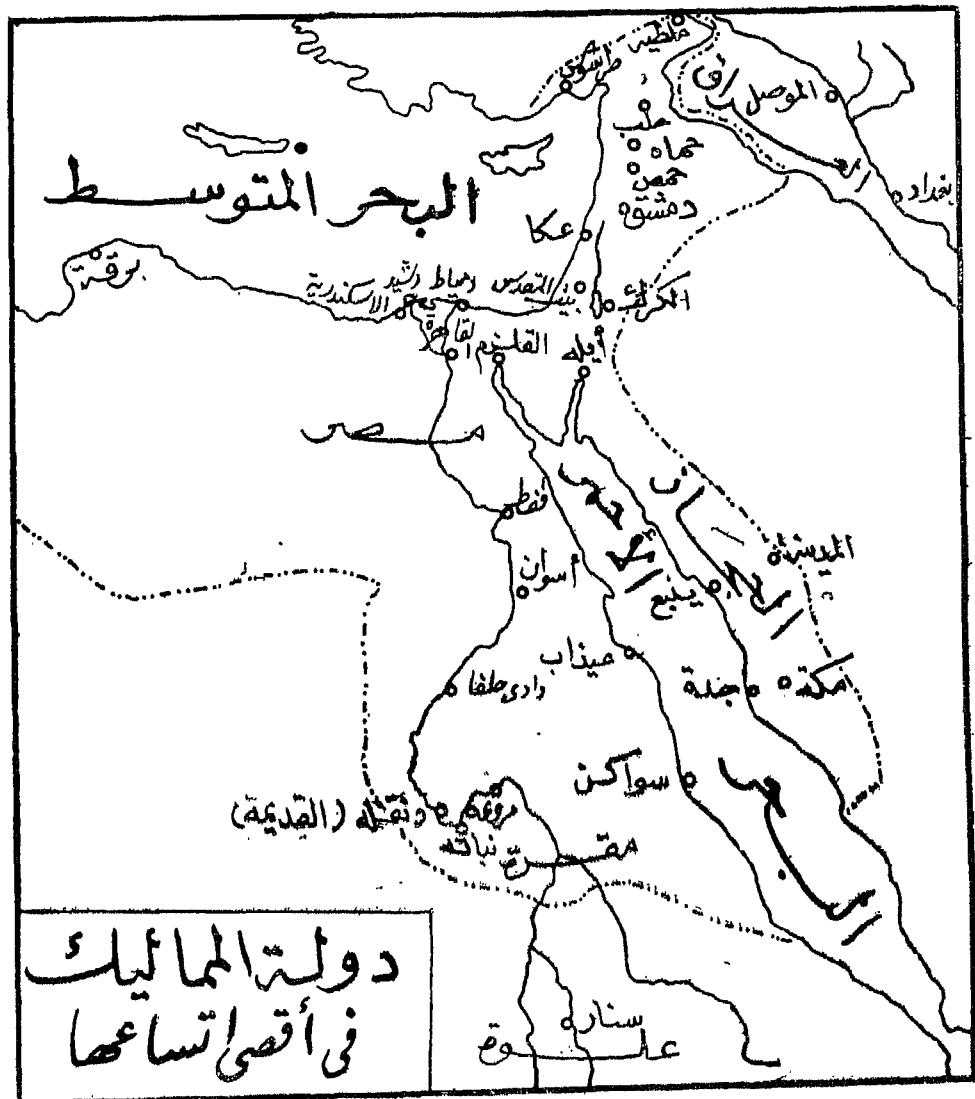
(٣) الْمُقْرِيزِيُّ : السُّلُوكُ ج ١ ص ٦٤٩ .

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر وملكة النوبة المسيحية في عصر الماليك ، أو بين سلطنة الماليك من ناحية والقوى الصليبية القرية في الشام وأرمينية الصغرى وقبس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكّدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستورد الحبشة مطرانها من مصر ؟ فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملوكها رسالتين أحدهما لحاكم مصر والأخرى لبطريرك الإسكندرية طالباً تعين من يشغل كرسى المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعایاه ⁽¹⁾ . وعند وصول هاتين الرسائلتين والمال ، يتصل بطريرك الإسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسمة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسى مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديني قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الماليك ، وحقق قدرًا كبيراً من الاتصالات بين الدولتين . ويفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولكن هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس . وقد أحس ملك الحبشة بغضب سلطان مصر ، فلم يحرُّ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطريرك غوريال الثالث ليبعث إلى الحبشة «مطراناً رجلاً جيداً عالملاً يحب ذهباً ولا فضة» . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن «لا يحب ذهباً ولا فضة» مما يفهم منه أن بعض المعاونة

(1) Cœulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, T. I, p. 179.



المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تسلالما على المال ؛ وثانيةً أن ملك الحبشة حرص على أن يخشى رسالته لسلطان مصر بعبارات الملك والزنقى ، ومن ذلك قوله « ... وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاناً مالك مصر ، وبهلك الله عدوه ... »^(١)

ومن ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سليمة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة ، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب ، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطراناً سورياً من بلاد الشام^(٢).

غير أن الأحباش لم يزداحوا على المطارنة السوريان ، فكتب ملك الحبشة يحباصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور قلاون يعتذر له ويسأله « إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين ». كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطريرك الإسكندرية يقول له « وهؤلاء السوريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم ، ولأجل محبتنا في بطريركيه مصر ماخليناهم عندنا أسفاقه وطربناهم »^(٣).

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاون بعد ذلك ؛ وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات ، حتى أنه قال في إحدى رسائله « ... اسمع يا سلطان مصر — نصر الله — : إعطي البطريرك المستور يبعث لي أسفاقاً ، فنحن وهم أماهتنا واحدة من زمن مرقس وإلى اليوم ... »^(٤). وكان أن استجواب السلطان المنصور قلاون لرجله ملك الحبشة فسمح بترسيم المطران المطلوب وسفره إلى العجمية.

(١) التويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط).

(٢) Coulbeaux : op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) عزي الدين بن عبد الظاهر : تشريف الأيام والمصور ص ١٢٠ — ١٢٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٢٣.

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة المماليك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين المماليك في مصر كانوا يرتابون أحياناً في العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ؟ وهذا أصرّوا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة المماليك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين المماليك أخذوا عهداً على بترك النصارى بأن « لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطنها ، ولا يول أحداً في بلاد الحبشة ولا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقفه على كتابته »^(١) . كذلك كان سلاطين المماليك يوجهون دائماً النصائح إلى بترك النصارى في مصر بأن « يتوقع ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة »^(٢) . ولا شك في أن تلك الخواوف التي سادت سلاطين المماليك في مصر من الاتصالات بين بترك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو مصر الذي طفح بروح التغصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة المماليك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجihad ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعين مطران للحبشة من قبل بترك الإسكندرية لم يكن السبب الوحيد للاتصال بين سلطنة المماليك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظاهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبطت بدور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقراً لهم . وقد اعتناد ملوك الحبشة إرسال المهدايا والمباهات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين المماليك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوي : التبر المسبوك في دليل السلوك ص ٢١٠ .

(٢) المعرى : التعريف بالمصطلح المعرى في ص ٤٨ .

الجيشة يجباً صيون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاون ؟ من أن ذلك الملك أرسل ثوباً ومائة شمعة « وسأل إنفاذ ذلك للرهبان العبوش المقيمين بالقدس الشريف، ويوصي عليهم بآلا ينبعوا من دخول المياكل »^(١). كذلك أرسل ملك الجيشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم « سلام عليكم يا رهبان العبوش الذين صبروا على العبادة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديناج ، ومائة شمعة ، وثيابي وهو زناري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسوه وقت القربان ٠٠ فعرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعواتكم ^(٢) ٠٠٠ » .

ويبدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمرون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلبوا نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الجيشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفارى أنه شاهد قافلة تضم نحو مائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضى المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس ^(٣) .

والمتوافق المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شمل دير الأحباش برعايته عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الجيشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والسكنى لسلطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بعطفهم ولا ينبعوهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) عي الدين بن عبد الظاهر: تصريف الأيام والمصور ١٧٠

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣

(3) Alvarez : Portuguese Embassy, pp. 243—244.

بالمقدس (٤) .

و الواقع ان وجود جالية كبيرة من الأجانب مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، وجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث إطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول . ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى — وهي الحبشة — في محاربة المسلمين ، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر^(٢) . ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين . وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجيانان ملك قبرس من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ . كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر ، وبخاصة عندما سمع بأن الماليك غزوا جزيرة قبرس وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ . وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن ، ولكنها باهت بالفشل^(٣) . كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويع مصر ، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى^(٤) .

(١) ابن مياس : بذائع الزهور ج ٠ من ١٢ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ من ١٢٠٩ .

(٣) المقريزي : الإمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام من ٤ ٨

أبو الحasan : النجوم الراحلة ج ٦ من ٦٣٧ - ٦٤٠ (طبعة كاليفورنيا)

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ من ١٢١٣ - ١٢١٤ .

العمرق: بين سلطنة المماليك ودول التركمان:

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متعددة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات مترقبة بين الخضوع والتبعية حيناً والثورة والمدعوان أحياناً، وفهماً أملته الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر.

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بتصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر، فعملوا جنوداً في جيوش أتابكة السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين فالمماليك. على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنداً مرتزقة في جيوش المماليك، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاط النهرين، اشتهرت منها دولة بني دلفادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشاه البيضاء ودولة الشاه السوداء. وكان المفترض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام، ولكن الحال فعلاً هو أنها لم تظل على لائحة المماليك، وإنما ذابت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومواجهة أراضيها، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية.

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر، عندما اكثرت القلائل والقتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيئتها والدفاع عن كيانها ضد الأخطار الخارجية التي هدتها، وبخاصة من جهة تيمورلنك. وكان أن أحسن السلطان المؤيد شيخ بنظر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بحملتين ضدهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولـكـنـهـمـ أـعـلـنـواـ ثـورـتـهمـ منـ جـدـيدـ عـقـبـ عـودـةـ السـلـطـانـ ،ـ فـأـرـسـلـ السـلـطـانـ المـؤـيـدـ شـيـخـ اـبـنـ إـبـرـاهـيمـ عـلـىـ رـأـسـ حـمـلـةـ كـبـرـىـ سـنـةـ ١٤١٩ـ ؟ـ فـوـعـلـتـ هـذـهـ حـمـلـةـ إـلـىـ قـوـنـيـةـ ،ـ وـخـرـبـ إـبـرـاهـيمـ بـلـادـ التـرـكـانـ ثـمـ عـادـ مـحـلاـ بـالـفـائـمـ .^(١)

وـلـمـ يـفـغـرـ التـرـكـانـ لـسـلـطـانـةـ المـالـيـكـ ماـ حـلـ بـلـادـهـ مـنـ تـخـرـيـبـ وـتـدـمـيرـ ،ـ فـقـامـ عـمـانـ قـرـايـلـوـكـ زـعـيمـ الشـاهـ الـبـيـضـاءـ بـمـاـجـمـةـ خـرـبـتـ سـنـةـ ١٤٢٩ـ كـمـاـ أـوـغـلـ دـاخـلـ حـدـودـ دـوـلـةـ المـالـيـكـ .ـ وـيـمـدـوـ أـنـ قـرـايـلـوـكـ أـقـدـمـ عـلـىـ مـهـاجـمـةـ دـوـلـةـ المـالـيـكـ بـتـحـرـيـضـ مـنـ شـاهـ رـخـ اـبـنـ تـيـمـورـلـنـكـ ،ـ الـأـمـرـ الـذـىـ جـمـلـ السـلـطـانـ الـأـشـرـفـ بـرـسـبـاـيـ بـيـادـرـ بـإـرـسـالـ حـمـلـةـ خـرـبـتـ الرـهـاـ —ـ التـابـعـةـ لـلـشـاهـ الـبـيـضـاءـ —ـ وـأـسـرـتـ حـاـكـمـاـ هـابـيلـ بـنـ عـمـانـ قـرـايـلـوـكـ .^(٢)

وـقـدـ بـلـغـ مـنـ اـسـتـخـفـافـ عـمـانـ قـرـايـلـوـكـ زـعـيمـ الشـاهـ الـبـيـضـاءـ بـسـلـطـانـةـ المـالـيـكـ أـنـهـ أـرـسـلـ إـلـىـ السـلـطـانـ بـرـسـبـاـيـ سـنـةـ ١٤٣٣ـ سـفـارـةـ تـحـمـلـ هـدـيـةـ تـشـمـلـ مـرـأـةـ وـخـرـوفـ وـخـلـمـةـ .ـ وـكـانـ أـنـ فـهـمـ بـرـسـبـاـيـ مـاـ يـعـنـيهـ قـرـايـلـوـكـ مـنـ تـلـكـ الـهـدـيـةـ ،ـ إـذـ يـرـمزـ الـخـرـوفـ إـلـىـ السـلـطـانـ وـالـمـرـأـةـ إـلـىـ أـنـ السـلـطـانـ وـأـمـرـاءـهـ كـالـنـسـاءـ ،ـ فـحـيـنـ تـشـيرـ الـخـلـمـةـ إـلـىـ أـنـ بـرـسـبـاـيـ تـابـعـ لـقـرـايـلـوـكـ .ـ وـلـمـ يـسـتـطـعـ السـلـطـانـ بـرـسـبـاـيـ أـنـ يـخـفـ غـصـبـهـ فـأـمـرـ بـذـبـحـ الـخـرـوفـ أـمـامـ الرـسـلـ وـأـلـبـسـ الـخـلـمـةـ لـأـحـدـ الـهـزـلـيـنـ فـرـقـصـ بـهـاـ فـيـ حـضـرـةـ السـلـطـانـ وـحـطـمـ الـمـرـأـةـ ،ـ ثـمـ صـرـفـ رـسـلـ قـرـايـلـوـكـ بـعـدـ أـنـ أـهـانـهـمـ وـقـصـ أـذـنـابـ خـيـوـلـهـمـ وـقـالـ لـهـمـ «ـ قـوـلـواـ لـأـسـتـاذـكـمـ يـلـاقـيـنـيـ عـلـىـ الـفـرـاتـ »ـ ؟ـ فـكـانـ ذـلـكـ إـعـلـانـاـلـلـحـربـ .^(٣)

وـمـعـ أـنـ الـحـربـ الـتـىـ شـنـهاـ بـرـسـبـاـيـ ضـدـ قـرـايـلـوـكـ سـنـةـ ١٤٣٣ـ اـنـتـهـتـ بـصـلحـ سـرـيـعـ تـعـهدـ فـيـهـ زـعـيمـ الشـاهـ الـبـيـضـاءـ بـأـنـ يـكـونـ تـابـعـاـ مـخـلـصـاـ لـسـلـطـانـ المـالـيـكـ ؟ـ إـلـاـ

(١) Wiet : op cit., pp. 546—547.

(٢) إـبـرـاهـيمـ طـرـخـانـ :ـ مـصـرـ فـيـ عـصـرـ دـوـلـةـ المـالـيـكـ الـبـرـاـكـسـةـ مـنـ ١٢١ـ —ـ ١٢٢ـ .

(٣) ابنـ لـيـاسـ :ـ بـدـائـمـ الزـهـورـ جـ ٢ـ مـنـ ١٩ـ —ـ ٢٠ـ .

أن قرایلوك كان ينكر دائمًا بوعوده ، الأمر الذي سبب للسلطان برسبياً متابع كثيرة . ولم يلبث برسبياً أن انتهز فرصة استحکام الخلاف بين دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده للأُخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرایلوك وقتلها ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسبياً سنة ١٤٣٥ فعلمها السلطان على باب زويلة وأمر بإقامة الزيارات في القاهرة ابتهاجاً بالخلاص من ألد خصمه^(١) .

وفي سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة الماليك السلطان جقمق الذي اتصف عهده بهدوء العلاقات مع التركان فصاهر أمراء دلفادر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ في النزاع بين أبناء عمان قرایلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعدته^(٢) . كذلك يروى السحاوى أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها^(٣) . وفي العام التالي — أي سنة ١٤٥٢ — أرسل أوزون حسن — أمير الشاه البيضاء — مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن انزع تلك المدينة من أخيه جهانكير المعادى لسلطنة الماليك ، فشكراً جقمق ورد إليه المفاتيح^(٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتابع التي سببها دول التركان لسلطنة الماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم في شؤون الإمارات التركانية من ناحية وفي العلاقات بينهم وبين سلطنة الماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(١) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السحاوى : التبر المسبوك من ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق من ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق س ٣٨٤ .

العُماني على إمارة دلفادر ، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجداً بالسلطان إينال « فما كثرت السلطان بذلك » بسبب صلة الصداقة بين الدولة العُمانية وسلطنة الماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال الساجي من أمير قرمان - وهو مشمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة الماليك ، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفقيدة^(١) .

ولم يلمث أن اتخذ التقافس بين سلطنة الماليك من ناحية وسلطنة العُمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركانية الواقعة على الحدود بين دولتي الماليك والعُمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفادر بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة الماليك أخيه بوداق . وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له في العاصمة أبُلسقين وأخذني بهاجم أطراف دولة الماليك ، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجمله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباي « انكسر كسرة شناعة »^(٢) . ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار ، إذ منيت بنفس المصير من الفشل والهزيمة .

ويبدو أن سوار تماذى في الاستخفاف بدولة الماليك والعبث بحدودها ، فضلاً عن أنه اعتدى على الدول التركانية المخالفة لسلطنة الماليك مثل دولة بنى رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لهيبة دولة الماليك ، فأرسل حملة كبيرة ضد سوار سنة ١٤٧ بقيادة الأمير يشبك الدوادار . وقد زود قايتباي قائد هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن لياس : صفحات لم تنشر ص ٢٣ ، ٤٧ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

له إمكانيات النصر، «ففوض إليه السلطان أمر البلاد الشامية والخلبية وغير ذلك من البلاد، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة...»^(١). وفعلاً انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عيتتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١. ولم يلهمت أن عاد يشبك إلى مصر منتصراً ومعه سوار مقيداً في الأغلال، وذلك بعد أن عين بوداق أميراً على إمارة دلفادر بدلاً من أخيه سوار.

ومع ذلك، فإن سلطنة المماليك استمرت تهانى كثيراً من المقاуб من جانب إمارة دلفادر، لا سيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠. ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتحريضهم وإن كان تفوق الجيوش المملوكيَّة على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يتلزم جانب العرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها.

أما أوزون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء، فقد استغل المقاوب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كاوصلت جيوبه إلى الراها؛ وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢^(٢). على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققها المماليك على حسن الطويل، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل عناداً. وقد حدث في الحروب التي شنها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسر يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠. ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن لیاس : بـدائـم الـزهـور ج ٣ مـ ٥٩ (نشر محمد مصطفى).

(٢) ابن لیاس : بـدائـم الـزهـور ج ٣ مـ ٨٠ ، ٨٦ (نشر محمد مصطفى).

ذلك الخبر «اضطربت أحواله وماجت القاهرة عن آخرها وكان يوما مهولا»^(١). وقد بادر السلطان قايتباى بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أربك ، ولكن دولة الشاه البيضاء بادرت بالإعتذار عما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين سلطنة المماليك وتلك الدولة إلى أن التهم الأراك العثمانيون دول التركان ودولة المماليك جيئما .

المماليك والعثمانيون :

أما العلاقة بين سلطنة المماليك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون صفاء، لاسيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها التوسعية ضد القوى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية ، وهو أمر قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك وغير المماليك من القوى الإسلامية في الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودي المتبادل بين المماليك والعثمانيين تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حتم ضرورة الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨ سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذر من تحركات تيمورلنك من تبريز نحو الغرب بما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية^(٢) . وإذا كان السلطان برقوق قد أكرم وفادة رسول السلطان العثماني ، وأظهر استعداده للتضامن معه لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفى مخاوفه من اطماع العثمانيين وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال «إني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن لبياس : بـدائع الزهور ح ٣ ص ١٧٤ (نصر محمد مصطفى) :

(٢) الخطيب : نزهة النقوس والأبدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه، وإنما أخاف من ابن عثمان! «^(١)

ونها مظاهر آخر من مظاهر تمسّح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفوّيضاً شرعياً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف التحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالي سنة ١٣٩٩ يذكّره بأن اختلافة العباسية مازالت قائمة في مصر وأن هذه القوة السكّيرة

(١) ابن حجر : إنباء الفمر ج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شهيبة : ذيل تاريخ الاسلام ورقة ٦٩

(٣) المقرئي : السلوك ، ج ٣ من ٧٠٨

الخطب : نزهة الفوسن ورقة ٤٥

كفيلاً بردعه إذا حاول العدوان^(١). ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بالنصر، على المؤربين في موقعة نيقو بوليس سنة ١٣٩٦ كاً أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائة أسير^(٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة الماليك أضفت من شأنها أطاع العثمانيين . وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة الماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على ملطية ودارندة^(٣). ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافياً في حد ذاته لتجذير سلطنة الماليك من نوابها بني عثمان ؟ هذا وإن كان خطر تيمور لنك ظل يدفع العثمانيين دفعاً إلى الاحتفاظ بود الماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محافلة السلطان فرج لإقامة جبهة متعددة في وجهه تيمور لنك ؟ ولكن كسبار الأمراء في مصر رفضوا محافلة ابن عثمان وأرسلوا إليه يذكرون له بعدها على ملطية . وهكذا أتيحت الفرصة لتيمور لنك لסקי ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على انفراد فزحف على دولة الماليك وأنزل المهزومة بجيوشها قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأنزل به كارثة أنقرة سنة ١٤٠٢.

على أن وفاة تيمور لنك سنة ١٤٠٥ وتفكك دولاته أتاح فرصة للدولتين العثمانية والمالية للتخلص من أثر الفسادات التي أنزلها بهما تيمور لنك . وكان أن تجددت علاقات الود بين سلطنة العثمانية وسلطنة الماليكية ، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(2) ابن قاضي شهبة . ذيل تاريخ الإسلام ج ٣ ورقة ١٢٣ .

ابن حجر : إحياء الفمر ج ١ من ٤١٤ .

(3) العيني . عقد الجوان ج ٢٥ ورقة ٧٨ .

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ ائمته السلطان الأشرف برسباى بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان الماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في يدى قراصنة البحر من الأوربيين ^(١) . ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباى سنة ١٤٢٦ ، وقد أفلامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهادت محبى ثالث حملات السلطان برسباى على قبرس سنة ١٤٢٧ ، وهى الجملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأسر ملوكها جانوس وزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى أحرزته سلطنة الماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثمانى ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال خمسين أسيراً مسيحيًا أوربياً هدية للسلطان برسباى ^(٢) .

وعندما ارتقى جقمق دست سلطنة الماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والماليكية ، فتبودلت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثمانى وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربى عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفظت القاهرة احتفالاً رائعاً بسقوط القدسية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ فزيت الأسواق والماركات وأوقدت الشموع في الشوارع والمساجن ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام ^(٣) .

غير أنه لم يكدر يوم للعثمانيين الاستيلاء على القدسية والسيطرة على البلقان ، حتى عادوا يوجهون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التى ما زالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين الماليك فى مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين الماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين الماليك ص ٢٤ .

خوج قبضهم في آسيا الصغرى . ولالمعروف أن الإمارات التركانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها - وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلفادر - كانت مشمولة بالحماية الماليكية ؟ فأنذر نطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصدام مقبل بين العثمانيين والماليلك . وقد اتّخذ الصدام بين العثمانيين والماليلك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً مذافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة الماليلك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والماليلك . وازدادت العلاقة توّراً بين سلطنتي الماليلك والعثمانيين عندما رحب السلطان قايتباي بأنج صفير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتُاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافقيه^(١) .

ولم يلبث التناقض بين سلطنة الماليلك وسلطنة العثمانيين أن يكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد يمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلفادر الخارج على سلطنة الماليلك ١٤٨٣ ، وساعدته بمنود عثمانية في الإغارة على نيابة ملطية التابعة للماليلك في آسيا الصغرى . ولم تفلح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي الماليلك والعثمانيين ؟ بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جموش الماليلك قد أحرزت عدة انتصارات في الجبهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر ، فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريكت الرغبة في الانتقام عنده .

وعندما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد - الذي ولـى

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولاً اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني أيملاه بنها سلطنته . و خاير بك هذا هو صاحب دور الخيانة الذي سبقت الإشارة إليه عند الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ و ربما رجمت الخيوط الأولى لمؤامراته وخياناته إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قاتيبي إلى القسطنطينية . وفي الوقت الذي اضطررت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة ثورة المماليك والأمراء وكثرة تغيير السلاطين والأشخاص منهم بالقتل أو الفرز ؛ كانت سلطنة العثمانية تستعد استعداداً جدياً للحركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى . وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريadianة سنة ١٥١٧ .

المماليك والدولة البيزنطية :

أثبتت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشرة في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفقاس ليضرروا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ؛ وإنما كان هناك الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليمثل خطرًا حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يخالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس ، فلم تُكدر سلطنة المماليك توقف على قدميها في عهد الظاهر بيبرس حتى أخذت تسعى للتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادى عشر . ولم تلبث أن توطدت

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والأمبراطور ميخائيل باليولوجس ، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيقاف بترك من الملائكة ليرعى شئون الطائفة الملائكة في دولته . وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢ ، الرشيد السكمال - وهو أحد رجال المذهب الملائكي - صحبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي . وهنـاك في القدسية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المملوكية ، وأطاع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذى كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذى شرع الإمبراطور في تجديده^(١) . وكان أن أسمى بيبرس في تعمير مسجد القدسية فـأرسل إليه « الحصر العبدانى والقناديل المذهبة والسطور المرقومة ، والمبخر والسبحـادـات والمودـ والمـنـبـرـ والمـلـكـ ومـاءـ الـوردـ»^(٢) .

وـمعـ أنـ الأمـيرـ أـقوـشـ المسـعـودـيـ عـادـ منـ القدسـيـةـ يـحملـ هـذاـياـ الإـمـبراـطـورـ البيـزنـطـيـ لـلـسـلـطـانـ الـظـاهـرـ ؟ـ إـلاـ أنـ الـأخـيرـ اـسـتـاهـ عـندـمـاـ عـلـمـ أنـ الإـمـبراـطـورـ عـاقـ رسـلـهـ أـنـتـاءـ سـفـرـهـ سـنةـ ١٢٦٤ـ عـبـرـ بـلـادـهـ إـلـىـ بـرـكـةـ خـانـ زـعـيمـ مـغـولـ القـبـجـاقـ .ـ وـقـدـ غـضـبـ بيـبرـسـ لـذـاكـ الـأـمـرـ وـجـعـ رـجـالـ الدـينـ لـيـشـهـدـهـمـ عـلـىـ أـنـ الإـمـبراـطـورـ .ـ الـبـيـزنـطـيـ «ـ خـالـفـ الـأـيـانـ»ـ .ـ عـلـىـ أـنـ الإـمـبراـطـورـ مـيـخـائـيلـ بـالـيـولـوـجـسـ لـمـ يـلـبـثـ أـنـ اـسـتـدرـكـ غـاطـتـهـ فـسـرـعـةـ ،ـ فـأـطـلـقـ رـسـلـ بيـبرـسـ وـسـعـ هـمـ بـالـسـفـرـ إـلـىـ بـرـكـةـ خـانـ وـفـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ ،ـ بـادـرـ بـإـرـسـالـ الـهـداـيـاـ إـلـىـ بـيـبرـسـ لـيـسـتـرـضـيـهـ^(٣)ـ .ـ

وـقدـ اـسـتـمـرـتـ الـعـلـاقـاتـ الـوـدـيـةـ بـيـنـ سـلـطـنـةـ الـمـالـيـكـ وـالـإـمـبراـطـورـيـةـ الـبـيـزنـطـيـةـ بـعـدـ عـهـدـ بيـبرـسـ ؟ـ إـذـ تـرـوـيـ الـمـرـاجـعـ أـنـ السـلـطـانـ الـمـنـصـورـ قـلـاـونـ أـرـسـلـ إـلـىـ

(١) الميني : عقد الجان المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ٩
محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

(٣) المقريزى : السلوك؟ ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الامير ناصر الدين الجزرى وبطرش الأقباط حنا السابع ؟ وحملت تلك السفار ق رسالة تفيد الامبراطور باعتلاء السلطان قلاون دست السلطنة ورغبةه في الإبقاء على موعد الامبراطور وصداقه . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاون مؤكداً حرصه على الصداقة بين الدولتين ويطلب منه أن يبعث إليه يميناً يتسلكه فأرسل إليه قلاون من حلفه على ذلك المين^(١) .

ولم تغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك في مصر عزماً اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثاني سنة ١٢٨٢ ، إذ بادر هذا الامبراطور الجديد بإرسال هدية إلى السلطان قلاون تشتمل حلامن الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاون بتلك الهدية سروراً كبيراً وغمر الرسل بالعطايا^(٢) .

والمروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات التفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون . وكان طبيعياً أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجي الضخم الذي ميز دولة المماليك في ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد في عهد السلطان بيبرس^(٣) . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب في سرعة لتلك الرغبة ف Skinner الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدهة سنوات ؟ وعندئذ أعاد الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطى في التسامح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، من ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) التورى نهاية الأربع ج ٢٩ ورقة ٢٨٥

(٣) المرجم السابق ج ٣٠ ورقة ٢٨ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته^(١). ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجونخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة^(٢).

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات ظهر حرصاً شديداً على صدقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لازدياد نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركمان^(٣). ولأدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أحد دعاة الحروب الصليبية من البندقة — واسمه ماريتو سانودو — وهو المشروع الذي استهدف تحقيق دولة المماليك اقتصادياً تمهدًا لاحتلالها خرباً ثم الاستيلاء على الأرضي المقدسة بالشام^(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما تشير إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٣٦٩ لإزالة الآخر السيء الذي تركه حملة بطرس لوزجان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥^(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجم السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاون في مصر ص ٢٦١ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ١١٩٩ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأساس التي اتبعتها دولة المماليك البحرينية. ويقال إن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه الهدايا وطلب منه أن يسكنون لم ينزل نظيرين ففضل بالاسكندرية أسوة بالبنادقة ؟ فأجاب السلطان الإمبراطور البيزنطي إلى طلبه^(١). على أن الملحوظ هو أن الإمبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ أواخر القرن الرابع عشر ، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء . ولم يكن بوسع الأباطرة البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن المسلمين جمعاً — داخل دولة المماليك وخارجها — كانوا ينظرون إلى توسيع العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون الفتوحات العثمانية جزءاً من سرقة الجهاد الديني في ذلك الدور الأخير من العصور الوسطى . وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً « ودقّت البشارّر بالقلمة » وزينت القاهرة ابتهاجاً بسقوط عاصمة الروم ، وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني « يهنئه بهذا الفتح العظيم »^(٢) .

سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً ، فإن سلطنة المماليك ربطتها صلات عديدة — تجارية أو عدائية — مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط . ولم يكن متوقراً من سلطنة المماليك — وهي إحدى قوى البحر المتوسط ذات السيطرة

(١) ابن حجر : إنباء النور ج ١ ورقة ٢٢٣ .

(٢) ابن إيس : صفحات لم تنشر من دائرة الذهور من ١٥ (نشر محمد مصطفى) .

على أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن متوقراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوروبية ذات المصالح التجارية والسياسية والصلبيّة في البحر المتوسط .

* * *

والمُعْرُوفُ أَنَّ صَقْلِيَّة رَبْطَهَا بِكَامِ مَصْرَ مِنْ بَنِي أَيُوب عَلَاقَاتٍ وَدِيَّةً كَانَتْ أَبْرَزَ أَرْكَانَهَا الصَّدَاقَةُ بَيْنَ الْإِمْپَرَاطُورَ فَرْدِرِيكَ الثَّانِي وَالسُّلْطَانَ الْكَامِلَ الْأَيُوبِيِّ، وَهِيَ الصَّدَاقَةُ الَّتِي اسْتَمْرَتْ قَائِمَةً بَعْدَ الْحَلَّةِ الصَّلَبِيَّةِ السَّادِسَةِ سَنَةَ ١٢٢٨ ، وَاتَّخَذَتْ صُورَةً هَدَائِيَا وَسَفَارَاتٍ مُتَبَادِلَةً بَيْنَ الْجَانِبَيْنِ . وَلَا أَدْلُ عَلَى اسْتَمْرَارِ عَرِيِّ هَذِهِ الصَّدَاقَةِ مِنْ أَنَّ الْإِمْپَرَاطُورَ فَرْدِرِيكَ الثَّانِي جَاءَ إِلَى تَحْمِيزِرِ السُّلْطَانِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ أَيُوبَ عِنْدَمَا عَلِمَ بِخَرْوْجِ لَوِيسِ التَّاسِعِ عَلَى رَأْسِ حَالَيِّهِ الصَّلَبِيَّةِ لِمُهاجمَةِ دِمِياطَ سَنَةَ ١٢٤٨ — ١٢٤٩^(١) . وَيَبْدُو أَنَّ سُقْوَطَ دُولَةِ الْأَيُوبِيَّيْنَ لَمْ يَغْيِرْ مِنْ تَلْكَ الصَّدَاقَةِ بَيْنَ مَلُوكِ صَقْلِيَّةِ وَسَلاطِينِ مَعْرَقٍ ، إِذْ حَرَصَ مَانْفَرْدُ بْنُ فَرْدِرِيكَ الثَّانِي عَلَى مُصادَقَةِ سَلاطِينِ الْمَالِيَّيْكِ ، كَمَا حَرَصَ سَلاطِينُ الْمَالِيَّيْكِ عَلَى الاحْتِفَاظِ بِعَلَاقَةِ الْوَدِ الَّتِي رَبَطَتْ مَصْرَ بِعِمَّالَيْكَ الصَّقْلِيَّيْنِ . مِنْ ذَلِكَ مَا تَشِيرُ إِلَيْهِ الْمَرَاجِعُ مِنْ تَبَادُلِ الْهَدَائِيَا بَيْنَ مَانْفَرْدَ مَلِكِ الصَّقْلِيَّيْنِ وَالسُّلْطَانِ الظَّاهِرِ بِيَسِّرِسْ ؛ حَتَّى أَنْ يَبِرُّسْ أَرْسَلَ سَنَةَ ١٢٦١ وَفَدَاهَا بِرَأْسِهِ الْمُؤْرِخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ وَاصِلَ إِلَى مَلِكِ صَقْلِيَّة^(٢) . وَكَانَ وَفْدُ بِيَسِّرِسْ يَحْمِلُ هَدِيَّةً جَلَيلَةً إِلَى مَانْفَرْدِ مِنْهَا بَعْضُ الزَّرَافَ وَبَعْضُ أَسْرَى عَيْنِ جَالُوتِ مِنَ التَّتَارِ . وَقَدْرَدِ مَانْفَرْدِ عَلَى تَلْكَ السَّفَارَةِ بِسَفَارَةٍ مُشَابِهَةٍ تَحْمِلُ الْهَدَائِيَا إِلَى السُّلْطَانِ بِيَسِّرِسْ^(٣) . وَلَيْسَ هَنَاكَ مَا يَشِيرُ إِلَى تَغْيِيرِ هَذِهِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ مَلُوكِ صَقْلِيَّةِ وَسَلاطِينِ الْمَالِيَّيْكِ بَعْدَ عَهْدِ

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266 & Enc. of Islam.

(3) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيرس ص ١١٢ .

ما نفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين قائمة في عهد البيت الأنجوبي الذي تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦. ويشير المقريزى إلى أن شارل الأنجوبي ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بيبرس هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه « بأن مخدومه أمره أن يكون أمراً للملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائباً للملك الظاهر كما أنا نائبه » ^(١). ويبدو أن الفرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملكة صقلية ^(٢).

* * *

أما الجموريات الإيطالية التجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ؛ فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرعى مصالحها . ولم يكن متوقراً من الجموريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي . العام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لماً إغارة بطرس لوزجانان ملك قبرس على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٩٦ تؤكد له أن السفن التي أغارت على الإسكندرية لانتهت إلى البندقية بصلة ، وأن البندقية لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتراكوا معه ^(٣).

وكان الجنوبي لا يقلون عن البندقية حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالإسكندرية ؛ بعد أن تأثرت تجاراتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية . من ذلك ما يرويه التویري السكندري من أن البندقية والجنوبي قصدوا بلاد العراق برأًّا بعد واقعة الإسكندرية للتجارة كعادتهم ،

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٠

(٢) Lane-Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والمحروب الصليبية ص ٧١ .

ففعهم السلطان أويس من دخول بغداد والتجارة بها وقال لهم «أرجعوا أولاً إلى سلطان مصر واسقدوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتونى بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحيثئذ تبیعون ببلدي وتبقاون منه»^(١) . وهكذا ألح الپمادة والجنویة في الصاح على الملك بطرس لوزجان من ناحية وعلى سلطان المالیک من ناحية أخرى ؟ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفین في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ؛ وعندئذ أخذت التجاراة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقیة وجروا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ، وأخذت سفن الفرنجية تند إلى الاسكندرية بكثرة «واطمأن الناس ومافات فات»^(٢)

والمروف أن التقافز التجاری بين البندقیة وجروا انتهى في القرن الرابع عشر بتغیق البناقة الذين احتکروا معظم النشاط التجاری في البحر المتوسط . ولم يرض الجنویة عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موائی شواطئ دولة المالیک الجراكسة ، وشارکهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنویة على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدی السلطان برقو وابنه فرج ، فهاجموا صیدا وبيروت ورشید ودمیاط ، الأمر الذي جعل السلطان برقو يهتم بتعییم قوتہ البحریة في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولة من ناحية وتأدیب الجنویة من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباکات قرب دمیاط بين الأسطول المالیکی والسفن الجنویة سنة ١٣٨٥ ، انتهت بهزيمة الجنویة وأسر بعضهم^(٣) .

(١) التویری : الإمام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعید عاشور : قبرس والمحروب الصلیبیة من ٨٢ &

التویری : الإمام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : لإنباء الغر ح ١ ورقة ٢٤٤ ب

المقریزی : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجنوبي أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوم سنة ١٣٨٦ ، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط . من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوم كانتقادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة ، فضلاً عن أخت السلطان برقوم نفسه وبعض أقاربها ، ولسكن الجنوبي أغروا على تلك السفن وأسرؤامن فيها ؛ الأمر الذي أغضب برقوم وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته^(١) . ومرة أخرى عاد الجنوبي إلى طلب الصلح ، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوم سنة ١٣٨٨^(٢)

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة الماليك وجمهوريّة جنوا تأرجح بين الصاج حيناً والمداء وال الحرب أحياناً . وقد حدث سنة ١٤٠١ — على عهد السلطان فرج بن برقوم — أن أغارت بعض القرصنة من الجنوبي على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدرًا كبيراً من البضائع^(٣) وبعد ذلك بعامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية ، ولكن حلته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذتها السلطان فرج . ولم يستطع الجنوبي بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة الماليك^(٤) . وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة الماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطاعها إلى جزيرة قبرس واستولت على ميناء فاماجوستا فعلاً في الوقت الذي كانت جزيرة قبرس تخضع لحماية سلطنة الماليك منذ

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوک ج ٩ ف ١ من ٣٣ .

(٢) ابن حجر : إحياء الفتوح ١ من ٢٦٥ — ٢٧٤ .

(٣) ابن قاصي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥ .

(٤) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzième Siecle , pp. 89—90.

أن فتحها السلطان برسماى سنة ١٤٢٦^(١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو الذى دفع الجنوية بالذات إلى البحث عن طريق آخر - غير طريق دولة المماليك - يوصل إلى الهند . وقد نجح الجنوية إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لإفريقية فى مواجهة جزر كفاريا ، مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد^(٢).

* * *

وإذا كانت الجهوريات الإيطالية قد اضطررتها ظروفها التجارية وما كان بينها من مشاحنات إلى الدخول فى منازعات أحياناً مع دولة المماليك ؟ فإن الوضع مختلف بالنسبة للدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة وأشبانيا . ويبدو أن حرص الدول المسيحية فى أسبانيا على عدم وصول نجدة من دولة المماليك المسلمين فى أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسلامون سلاطين المماليك . من ذلك أن جيمس الأول ملك أرغونة تعدد إلى السلطان بيبرس وبادله المدايا . وقد استقرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين مملكتة أرغونة من ناحية ودولة المماليك من ناحية أخرى ؟ فأرسل جيمس الثانى ملك أرغونة (١٢٩١ - ١٣٢٧) عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسألة تسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون لزيارة بيت المقدس ، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق رعاية تجبار كل بلد فى البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجبار كلها لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين^(٣).

(١) سعيد عاشور : قبرس والمرور الصليبية من ١٢٥٠ - ١٢٦٠.

(٢) Beazley : Note Book of Middle Ages, p. 156,

(٣) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60-62.

كذلك تبودلت الرسل والمهدايا بين السلطان المنصور قلاون من ناحية وألفونس العاشر صاحب قشتالة^(١). أما أشبيلية فيروى التو يرى أن صاحبها ألفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس بإرسال سفارة تحمل هدايا جليلة . وقد قوبلت سفارة بيبرس بالحفاوة والإكرام في أشبيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشبيلية سفينة حلقها إلى الاسكندرية^(٢)

وتجدر بالذكر أن القوى الغربية التي طالما ناصبت سلطنة المماليك العداوة بسبب السياسة الصليبية كانت أحياً تراجعاً إلى مسالة المماليك رغبة في التخفيف عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سياسة الصليبيين في السيطرة على الأماكن المقدسة عن طريق مسالة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا حنا الثاني والعشرين اشتراك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى القاهرة سنة ١٣٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاون معاملة المسيحيين في دولته برقق ، حتى يمكن أن يلقى المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ؟ « وأنه مما عمل بهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من المسلمين عذله » ^(٣) . كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٠ ، ومع السفارة كتاب يلتقط فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين .

(١) بيرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النورى : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

٢٨٧ ج ٢ من المقرنیزی

ولسكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراه ملك فرنسا وأمر
بردهم إلى بلادهم^(١).

* * *

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك ، «نـ»
أن بلاط سلاطين المماليك غداً مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق
والغرب جمِيعاً .

(١) التویری : نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .



0243624